التاو تي-تشينغ

إنجيل الحكمة التاوية في الصين

لاو تسي



دراسة وترجمة فراس السواح

التاو تي-تشينغ

إنجيل الحكمة التاوية في الصين

تأليف
لاو تسي

دراسة وترجمة
فراس السواح

مراجعة
شِّوِي تشينغ قوه



التاو تي-تشينغ

道德经

لاو تسي

Lao Tse

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٤٧١ ٧

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الصينية في تاريخ غير معروف.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٩٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

فاتحة

هنالك محطات على الطريق تستوقف الباحث في تاريخ الحياة الروحية للإنسان، فيحط عندها الرحال لينال من فَيْئها ومائها وسكينتها ما يجدِّد نشاطه ويشحذ عزيمته على متابعة السفر، بعضها يغادره دون رجعة، وبعضها يدعوه إلى رجعة أو رجعات، وبعضها يسكن النفس فلا يستطيع منه فكاكًا ويغدو جزءًا من حياته. كتاب التاو تي تشينغ، كان من هذه المحطات الآسِرة. قرأته منذ خمسة عشر عامًا، ولم أغادره إلا لأعود إليه في أكثر من ترجمة ودراسة، مستجليًا غوامضه ومدوِّنًا ملاحظاتي وتعليقاتي على المتن. إلى أن وجدتُني منساقًا إلى ترجمته كاملًا في صياغة عربية تؤلِّف بين الترجمات، وتستعين بما وضح في واحدتها على ما غمض في الأخرى، وذلك اعتمادًا على تحصيلي في مجال الفكر الصيني والفكر الشرق أقصوي، وعلى ما زودتني صحبتي الطويلة للكتاب من ألفة به وتذوق لِلَطائفه. وبما أن ترجمة نص على جانب من الإشكالية مثل كتاب التاو أمر متصل بفهمه وتفسيره، فقد سارت عملية الشرح والتفسير جنبًا إلى جنب مع عملية الصياغة. وهكذا تم إنجاز مؤلَّفي هذا في ثلاثة فصول. الفصل الأول عبارة عن مدخل عام إلى الحكمة التاوية وأصولها البعيدة في الفكر الصيني. الفصل الثاني يتضمَّن النص الكامل للتاو تي تشينغ. الفصل الثالث يحتوي على الشروحات والتعليقات على المتن مُرتَّبة وَفْق تسلسُل فصوله.

يُعزى كتاب التاو تي تشينغ إلى حكيمٍ صينيٍّ غامض السيرة يُدعى لاو تسو، عاش حياته خلال الفترة الواقعة بين أواسط القرن السادس وأواسط القرن الخامس قبل الميلاد. وقد مارس الكتاب تأثيرًا كبيرًا على الحياة الفكرية والروحية للصين، وبما لا يتناسب وحجمه الصغير جدًّا. وهو مكتوب بأسلوب مكثَّف ومختصر حتى بالنسبة للغة الصينية

القديمة التي تتميز عن الصينية الحديثة بشدة إيجازها وتكثيفها، الأمر الذي جعل منه نصًّا إشكاليًّا على جانبٍ كبيرٍ من الغموض رغم وضوح أفكاره الرئيسية. أخذ الكتاب بالانتشار في الثقافة العالمية الحديثة منذ عام ١٧٨٨ عندما قُدِّمت إلى الجمعية الملكية بلندن ترجمة له باللغة اللاتينية. وبحلول عام ١٨٤٤ كان مترجمًا إلى اللغتين الفرنسية والألمانية، وورد ذكره في بعض كتابات الفيلسوفين الألمانيين هيجل وشوبنهاور. ثم استمرَّ اهتمام الفلسفة الألمانية به وصولًا إلى مارتن هايدجر الذي طوَّر خلال النصف الثاني من حياته الفكرية نهجًا فلسفيًّا يقوم على الأفكار الرئيسية للتاو تي تشينغ. ومنذ عام ١٨٥٠ وحتى الآن ظهرت ثلاثون ترجمة إنكليزية للكتاب، تتراوح في جودتها بين عمل الهواة الذين فاق حماسهم للموسيقى الشرقية معرفتهم بالفكر الصيني واللغة الصينية، وبين عمل الاختصاصيين المرموقين من غربيين وصينيين.

في صياغتي العربية لنص التاو اعتمدت ثلاث ترجمات إلى الإنكليزية من إعداد باحثين صينيين مرموقين هم Chang Chung-yuan وGia-Fu Fing وD. C. Lau. ورغم اتكائي بشكل أساسي على ترجمة D. C. Lau التي وجدتها الأكثر أمانة والتزامًا بحرفية الأصل، إلا أن ترجمَتَي Chung-yuan Ghang وGia Fu Fing قد ساعدتني على خَلْق فضاء جمالي وموسيقى تفتقر إليه ترجمة D. C. lau وعقب استكمالي للصياغة بشكلها الأخير، قُمت بمقارنة حصيلتي على ترجمة فرنسية للتاو تي تشينغ من إعداد باحث صيني آخَر هو Liou Kia-Hway. ونظرًا لِقِصَر باعي في اللغة الفرنسية فقد استعنتُ بصديقي الباحث الشاب ديمتري أفينيروس، الذي تطوَّع للمهمة بروحٍ علمية ورفاقية عالية. ولقد زودتني هذه المقارنة، سواء في نقاط الالتقاء، أم الاختلاف، بالطمأنينة إلى سلامة نصِّي وحُسن تعبيره عن الأصل، وأخيرًا وبعد صدور الطبعة الثالثة للكتاب، قام صديقي الباحث الصيني الدكتور شْوِي تشينغ قوه بمراجعة نصِّي العربي على الأصل الصيني، وقدَّم لي ملاحظاتٍ مفيدة. ثم تعاونَّا معًا على تأليف كتاب في الموضوع نفسه صدر في بكين عام ٢٠٠٩ باللغة العربية تحت عنوان: لاو تسي.

لا يوجد في صياغتي العربية للتاو تي تشينغ ما لا سند له من إحدى الترجمات العالمية التي ذكرتها أعلاه. أمَّا الشروح والتعليقات فإنها مسئوليتي وحدي، ولا أحيل الثناء أو الملامة إلى واحد من مراجعي. لقد اجتهدتُ على قدر ما أسعفَني به البحث والحدس. وفي الاجتهاد خطأ وفيه صواب. وإن لي في خطأ الاجتهاد أجرًا واحدًا ولي في صوابه أجرين، على حدِّ قول الحديث الشريف المعروف.

أتقدَّم بجزيل الشكر إلى الصديق ديمتري أفينيروس على وقته وجهده. كما أتوجَّه بالشكر إلى الصديق العتيق جوزيف بصال في مكان إقامته الحالية بأمستردام؛ لأنه كان أول مَن قدَّمني إلى عالم الحكمة الشرقية عندما كنا على مقاعد الدرس في الجامعة. لقد كان متقدمي على درب المعرفة، وإني لأدين له بأكثر مما يظن.

فراس السواح

إميسا/حمص. ربيع ١٩٨٨

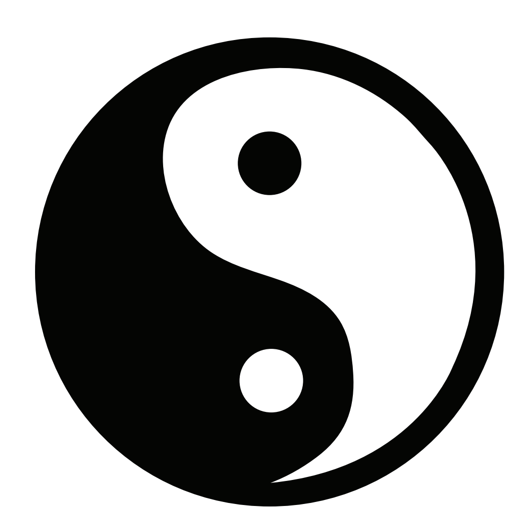
مدخل

يُحكى أن فلاحًا صينيًّا فقدَ حصانه الوحيد الذي يساعده في أعمال الحقل. فجاء إليه جيرانه في العشية يواسونه في مصيبته قائلين: أية مصيبة حلَّت بك! هزَّ الفلاح رأسه قائلًا: ربما، مَن يدري؟! في اليوم التالي رجع الحصان إلى صاحبه ومعه ستة جياد برية أدخلها الفلاح إلى حظيرته. فجاء إليه الجيران يهنئونه قائلين: أي خير أصابك! هزَّ الفلاح رأسه قائلًا: ربما، مَن يدري؟! في اليوم الثالث عمد الابن الوحيد للفلاح إلى أحد الجياد البرية فأسرجه عنوة واعتلى صهوته، ولكن الجواد الجموح رماه عن ظهره فوقع أرضًا وكُسِرت ساقه. فجاء الجيران إلى الفلاح يواسونه قائلين: أية مصيبة حلَّت بك! فهز الفلاح رأسه قائلًا: ربما، مَن يدري؟! في اليوم الرابع جاء ضابط التجنيد في مهمة من الحاكم لسَوْق شباب القرية إلى الجيش، فأخذ مَن وجدهم صالحين للخدمة العسكرية وعفَّ عن ابن الفلاح بسبب عجزه. فجاء الجيران إلى الفلاح يهنئونه قائلين: أي خير أصابك! فهز الفلاح رأسه قائلًا: ربما، مَن يدري؟!

يقوم التفكير الصيني منذ أقدم الأزمنة على النظر إلى الحياة والإنسان، والوجود بأكمله، على أنه نتاج حركة قوتين ساريتين في كل مظاهر الوجود، هما الـ «يانغ» والـ «ين»: الموجب والسالب، المذكَّر والمؤنث. وهاتان القوتان على تعارضهما متعاونتان ولا قيام لإحداهما في معزل عن الأخرى، فهما أشبه بالقطب السالب والقطب الموجب في قضيب المغناطيس وفي التيار الكهربائي. وإذا غلب الـ «يانغ» في دورانه على الـ «ين» نجمَ عن ذلك كل ما له صفة الموجب، وإذا غلب الـ «ين» نجمَ عن ذلك كله ما له صفة السالب. وهكذا تقف الأقطاب في تقابُل: الخير والشر، النور والظلام، الحياة والموت، الذكر والأنثى، السماء والأرض، العلو والانخفاض، الحرارة والبرودة، الجفاف والرطوبة، الحركة والسكون، الحظ الطيب والحظ العاثر ... إلخ. هذه الأقطاب ليست في صراع مع بعضها من أجل سيادة واحدها على الآخر

وإلغائه (كما هو الحال في الفكر الثنوي الشرق أوسطي؛ حيث يتصارع الحياة والموت، الخير والشر، الرحمن والشيطان، سيت وحورس، بعل وموت، أهورا مزدا وأهريمان ...) بل إنها تنشأ معًا، ويتخذ كلٌّ ضد معناه من ضده، حيث لا نور بلا ظلام، ولا خير بلا شر، ولا حياة بلا موت، وحيث الوجود وكل مظاهره في حالة تناوب تلقائي، فإذا بلغ الـ «يانغ» أعلى قمة له في الارتفاع تحوَّل إلى الـ «ين»، حتى إذا بلغ الـ «ين» أعلى قمة له في الانخفاض تحوَّل إلى الـ «يانغ» مرة أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية في دورة دائبة. من هنا، فإن الحكيم هو الذي يُدرك قطبية وجوده ووجود العالم، وصيرورة الأحداث فيه، ويرى في كل مظهر لـ «اليانغ» بذرة «الين» تنمو في أعماقه، وفي كل مظهر لـ «الين» بذرة «اليانغ».

وهذا هو مغزى حكاية الفلاح الصيني من وجهة نظر الحكمة التاوية. ذلك أن فن الحياة ينبغي ألا يقومَ على طلب الـ «يانغ» واستبعاد الـ «ين»، بل على الحفاظ على حالةٍ من التوازن بين القطبين، لأنه لا قيام لأحدهما إلا بوجود الآخر.



وقد تمَّ تمثيل قوتي الـ «يانغ» والـ «ين»، بصريًّا، على شكل دائرة تحتوي على مساحتين واحدة مظلمة والأخرى مضيئة، فالدائرة هي المبدأ الأول قبل ظهور الموجودات، وهي القاع الكلي الثابت قبل ظهور التغيرات؛ لأنه لا بد لكل متغير من مرجعية ثابتة تعمل على إظهاره، وتكون بمثابة الخلفية التي تنتظم فوقها المظاهر المتحولة وتتبادل فيما بينها العلائق. أمَّا المساحتان المظلمة منها والمضيئة، فقد صُوِّرَتا في وضع دوراني يدل على التناوب الأبدي

بينهما، وهو التناوب الذي أظهر الموجودات من حالة اللاتمايز والسكون إلى عالم الشكل والحركة. إن الخط الفاصل بين المساحتين داخل الدائرة يعبر عن ظهور الأقطاب إلى حيِّز الوجود. فهذا الخط هو الذي أحدث شرخًا في الفراغ المتماثل وقسَّمه إلى أعلى وأسفل، إلى يمين ويسار، إلى أمام وخلف، وانحلت الوحدة السابقة إلى مظاهر ذات قوًى متعارضة ومتجاذبة في الآن نفسه. وبما أن الـ «يانغ» لا يتجلَّى في حالته الصرفة، ولا الـ «ين» كذلك، فقد صور القسم المظلم من الدائرة وفيه بقعة صغيرة بيضاء وصور القسم المضيء وفيه بقعة صغيرة سوداء. لأن في كل إيجاب بعضًا من السلب، وفي كل سلب بعضًا من الإيجاب. تُدعى هذه الدائرة بدائرة التاو، وتتخذ مكان البؤرة في التفكير الصيني.

لا يتطابق التاو مع أي مفهوم نعرفه عن الألوهة المفارقة، الخالقة للعالم والمتحكمة به عن بُعْد، ولا مع أي قانون مفروض على العالم من خارجه، بل هو الخميرة الفاعلة في الكون من داخله، والنظام الضمني الذي يدفع صيرورة عمليات الطبيعة. من هنا فإن هذا المفهوم يتفق مع التصورات الفلسفية والدينية الصينية، التي لا تنظر إلى الكون باعتباره نتاجًا لفعالية ملك سماوي، بل ترى فيه ما يشبه الجسد الحي الذي تعتمد وظائفه على بعضها وفق تلقائية طبيعية مغروسة في صميمه.[١] فالصينيون عَبْر تاريخهم لم يأخذوا مفهوم الألوهة المشخصة المفارقة للعالم بشكلٍ جديٍّ، ولم يكن لديهم تصوُّر واضح عن إله يتربَّع على عرش الكون كما يتربع الإمبراطور على عرش سلطانه. ورغم أن الميثولوجيا الصينية حافلة بالآلهة من شتى الأشكال والأنواع والاختصاصات، إلا أن هذه الآلهة لم تكُن في حقيقتها إلا أسلافًا أسطوريِّينَ رفعهم الخيال الشعبي إلى مراتب عُليا، وقدَّسهم وأقام لهم المعابد. وتظهر السِّيَر الأسطورية لهؤلاء الأسلاف كيف ابتدأ أمرهم كرجال صالحين على الأرض، وكيف تم تأليههم وعبادتهم فيما بعد.

ومما يلفت النظر في أمر الآلهة الصينية على كثرتها، أنها لا تظهر كشخصيات ذات كيان مُحدَّد ووظيفة دائمة، بل ككيانات شبحية غير واضحة الملامح تكتسب قوتها من قوة المنصب الذي تشغله. ذلك أن الوظيفة الإلهية هي الثابتة، أمَّا شاغلوها فمُتحوِّلون ومتنقِّلون، ففي كل إقليم من الأقاليم الصينية العديدة، يجري توزيع الوظائف

---

[١] حول المفهوم الصيني للألوهية راجِع ما أورده الباحث الصيني Uo. I. Tai في موسوعة لاروس للميثولوجيا.

Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London 1977, p. 380.

والاختصاصات (مثل تصريف الرياح وقدح البرق وإنزال المطر ... إلخ) بين الآلهة الصينية نفسها بشكلٍ مختلفٍ عن الإقليم الآخَر وقد يتم في إقليم مُعيَّن ترفيع إله ما إلى مقام أعلى من مقامه في إقليم آخَر، أو تخفيض مرتبته، أو حتى صرفه من الخدمة نهائيًّا.[٢]

أمَّا المصدر الحقيقي لقدرة الآلهة الصينية، فهو مفهوم مُجرَّد عن الألوهة يتمثل في قوة السماء التي يدعونها تي يين، والتي عُبدت في الصين منذ أقدم عصورها. ويرى كونفوشيوس، وهو أكثر المفكرين تأثيرًا في الثقافة الصينية القديمة، أن إرادة السماء إنما تفعل من خلال عناية متضمنة في صلب نظام الطبيعة لا من خارجها. ويقابل هذا النظام الطبيعي، عنده، نظام آخَر يسود على المستوى الإنساني في المجتمع هو القانون الأخلاقي. من هنا فإن انسجام الفرد مع إرادة السماء الفاعلة في الطبيعة، لن يتحقَّق إلا بمراعاة النظام الأخلاقي الذي يُشكل انتهاكه خطيئة بحق السماء.[٣] وكان الاسم الذي يُطلق على ألوهة السماء هذه، في عهد أسرة شانغ (١٥٠٠–١١٠٠ق.م.) هو شانغ تي، الذي يعني الحاكم الأعلى. والتسمية هنا مجازية، لأن هذه الألوهة السماوية لم يكن لها كيان شخصي محدد، وإنما جرى تصوُّرها كقوة تشغل الجهة العليا من قبة السماء، وهي أبعد ما تكون عن مفهوم الإله الأعلى المُسيِّر للكون، لأنها لا تتمثل في شخصية إلهية مُعيَّنة، ولا تتصل بالناس عن طريق رُسُل يشرحون مقاصدها في عالم البشر ويوصلون إليهم شرائعها. فإذا أراد الناس التواصل مع الإرادة الإلهية عمدوا من جانبهم إلى تقنيات الاستخارة والتنجيم وما إليها (يضاف إلى ذلك ما تستطيع الخبرة الصوفية الفردية تحقيقه في هذا المجال). ومنذ حكم أسرة تشوس (بعد عام ١١٠٠ق.م.)، تم إطلاق اسم تي يين على هذه الألوهة الكونية. والاسم في الأصل يعني: مسكن الروح الكبرى. ولكنه استُخدم هنا للدلالة على القوة العظمى التي تعتلي هرم القوى الجزئية في الكون، والتي بقيت مدار المعتقد الصيني حتى القرن الثاني عشر الميلادي.[٤]

فإذا جرَّدنا مفهوم الـ «تي يين»، أو قوة السماء، حتى من القبة الزرقاء التي اعتُبرت أحيانًا مظهرها المرئي، فإنها تلتقي مع مفهوم التاو الذي لعب الدور الأهم في تاريخ الفكر الديني والفلسفي الصيني منذ البدايات المبكرة لتاريخ الصين.

---

[٢] Ibid, p. 380.

[٣] L. Tompson , T'ien. In: Incyclopedia of Religion, Macmillan, London 1987, vol. 2, pp. 508–509.

[٤] G. Parridar, World Religions, New York , p. 244.

نستطيع متابعة التعبيرات الأولى عن مفهوم التاو من خلال أشهر كتب الحكمة الصينية المعروف بكتاب الـ «إي كينغ» أو التغيرات. ويكتب الباحثون الغربيون الاسم بصيغة آي تشينغ I. Chung ورغم أن التقاليد الصينية ترجع الأشكال الأولى لكتاب التغيرات إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، إلا أن الدراسات الحديثة تُرجِّح تاريخًا لا يتعدَّى مطلع الألف الأول قبل الميلاد، علمًا بأن الصيغة الأخيرة المتداولة للكتاب هي أحدث من ذلك التاريخ بكثير. لقد شغل كتاب التغيرات صفوة العقول الصينية قرونًا عديدة، وساهم عدد من المفكرين الصينيين المرموقين بالتعليق عليه والشرح على مَتْنه، ومنهم كونفوشيوس (٥٥١–٤٧٩ق.م.) وكان وراء أهم المنجزات خلال التاريخ الطويل للثقافة الصينية، وبشكلٍ خاصٍّ، فإن فرعَي الحكمة الصينية وهما التاوية والكونفوشية قد نهلا من هذا النبع، والتقت جذورهما العميقة عنده. وذلك إضافة إلى تأثيره الواسع على الحياة اليومية لعامة الناس في الصين، فإلى وقتٍ قريبٍ كان زائر المدن الصينية يلتقي عند زاوية بعض الشوارع الرئيسية بقارئ حظٍّ يجلس وراء طاولة ومستعد لاستخارة كتاب التغييرات لَمَن يرغب في معرفة طالعه، كما كان بإمكان السائح أن يقرأ جملًا من الكتاب محفورة على لافتات خشبية تزينية مُثبَّتة على أبواب المنازل. فما هو كتاب التغيرات، وما هي المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها؟[٥]

للوهلة الأولى، يبدو كتاب التغيرات كنص في العرافة وقراءة المستقبل. ولسوف نتوقف أولًا عند هذا الجانب من الكتاب، ثم ننتقل إلى بسط المفاهيم الفلسفية الكامنة وراءه. يعتمد الكتاب على مجموعة من الرموز التي تحتوي على عدد من الخطوط المتوضعة فوق بعضها وفق الشكل الآتي ☱ وتنويعاته المختلفة، تستخدم في قراءة الطالع. ففي أبسط أشكالها القديمة كانت العرافة تقتصر على إعطاء جواب بالنفي أو الإيجاب على مسألة ما. وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه الكتاب من حيث الشكل. فالجواب: «نعم»، يُشار إليه بخطٍّ متصلٍ ———، أي «يانغ»، والجواب: «لا»، يُشار إليه بخطٍّ متقطِّع —— ——، أي «ين». ثم دعت الحاجة على ما يبدو إلى إجابات أكثر تفصيلًا، فتمَّ جمع

---

[٥] اعتمدت في العرض المكثف الآتي على الترجمة العالمية المعتمدة لكتاب التعبيرات، وهي ترجمة العلامة ريتشارد ميلهيلم إلى الألمانية، والتي نقلها إلى الإنكليزية Cary Baynes:

- The I. Ching, or Book of Changes, the Richard Wilhelm Translation Renderd into English by Cary Baynes, Princeton University Press 1977.

الخطوط المتصلة والمتقطعة في أزواج، ونتج عن ذلك أربعة رموز هي كل الاحتمالات المُمكِنة لاجتماع خطَّين متقطِّعَين أو متصلين أو مختلفين:

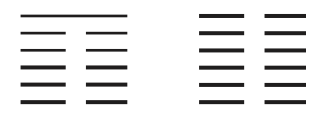
وإلى كل زوج من هذه الأزواج جرى إضافة خط ثالث، الأمر الذي أنتج المجموعات الأساسية الثماني، وهي كل الاحتمالات الممكنة لاجتماع ثلاثة خطوط:

المجموعة	اسمها	خصيصتها	صورتها	علاقتها العائلية
☰	المبدع	القوة	السماء	الأب
☷	المتلقي	الانقياد	الأرض	الأم
☳	الموقظ	الحركة المحرضة	الرعد	الابن الأول
☵	العميق	الخطر	الماء	الابن الثاني
☶	المستقر	الثبات	الجبل	الابن الثالث
☴	الرقيق	النفاذ	الهواء	الابنة الأولى
☲	الممسك	وهب النور	النار	الابنة الثانية
☱	البهيج	البهيجة	البحيرة	الابنة الثالثة

من منظور التغيرات، فإن هذه المجموعات الثلاثية في صور لكل ما يجري في السماء وعلى الأرض. وفي الوقت نفسه فإنها دائمة التحول، يصير واحدها إلى الآخر مثلما تصير الظاهرة إلى الأخرى في العالم الطبيعي. هنا نضع اليد على المفهوم الأساسي في كتاب التغيرات. فالأشكال أو المجموعات الثلاثية تشير إلى أوضاع متبدلة ومتحوِّلة. إنها صور

في حالة تبدل دائم. ولذا ينبغي على الذهن ألَّا يركز على الأشياء كوجود ثابت بل على صيرورتها، على حركتها وتبدلها. إن المجموعات يجب ألَّا ينظر إليها بالمعنى الحرفي بل بالمعنى المجرد، حيث يمثل كلُّ عضوٍ في هذه العائلة قوة ووظيفة، لا شخصية إلهية محددة.

ثم التقت هذه المجموعات الثلاثية كل اثنتين في واحدة تحتوي على ستة خطوط، ونجم عن كل الاحتمالات الممكنة لاجتماعها بهذه الطريقة أربعة وستون رمزًا يحتوي كل منها على خطوط سالبة متقطعة وخطوط موجبة متصلة. إن كل خط من هذه الخطوط قابل للتغير، فإذا انقلب خط واحد سالب إلى آخر موجب في المجموعة، وقع التغيير في الحالة التي تمثلها المجموعة. ولنأخذ على سبيل المثال المجموعتين الآتيتين:



تحتوي المجموعة الأولى أعلاه على ستة خطوط سالبة «ين». فهي تمثِّل الأرض المتلقية، كما تمثِّل فصل الخريف عندما تكون قوى الحياة في حالة الراحة. فإذا تحول الخط السالب السفلي في هذه المجموعة إلى خطٍّ موجب، حصلنا على المجموعة الثانية التي تمثل الرعد، والحركة المحرضة التي تثير الحياة في باطن الأرض عند تحول الفصول.

يمكن للخبير بهذه الأمور أن يستخدم عددًا من عيدان نبات الألفية، فيبعثرها على الأرض لتعطيه تشكيلًا للعيدان يقابل رمزًا من الرموز الأربعة والستين. وهذا الرمز يقابل بدوره حالة الشخص الذي يستخير الكتاب. على أن هذا النوع من التنبؤ الذي يستخدم رموز التغيرات، يتعدى وصف الحالة إلى وصف الفعل الذي يجب أن يترافق مع معرفة الحالة، وذلك قبل أن تستفحل وتغدو قضاءً مبرمًا لا يمكن رده. فنبوءة التغيرات هي نبوءة إيجابية لا سلبية. وقيام المستخير بالسؤال عمَّا يستطيع القيام به لمواجهة الأوضاع المرتقبة، يجعل من التغيرات كتابًا في الحكمة لا كتابًا في العرافة.

تقوم حكمة التغيرات على عدد بسيط من المفاهيم الأساسية. فلدينا أولًا مفهوم التغير، الذي يشكِّل الأرضية العامة لفلسفة الكتاب. فكل شيء يجري ويجري دون توقُّف كماء النهر، على حدِّ قول كونفوشيوس. ولكن التغير يحدث على أرضية ثابتة غير متغيرة، وإلا لما كان هناك نظام كوني، ولانحلَّ كل شيء إلى فوضى مطلقة. هذه الأرضية الثابتة هي التاو، الوحدة الكامنة خلف الكثرة المتبدية. فمَن أدرك التغير ومعانيه صرف النظر عن الأعراض الزائلة في الأشكال المتنوعة وثبت قلبه على المبدأ غير المتغير.

إضافة إلى مفهومي التغير والثبات، لدينا مفهوم ميتافيزيكي أساسي يدور حول الأفكار. فالمجموعات الموضَّحة أعلاه ليست صورًا وتمثيلات لموضوعات، بل صور لأحوال مُتغيِّرة. وكل حادث في المستوى المرئي للعالم يتم بتأثير صورة (أو فكرة) في المستوى غير المرئي. وعليه، فإن ما يجري على الأرض هو نسخة لاحقة زمنيًّا عن أمر جرى في مستوى يقع وراء إدراكنا الحسي. والحكيم الذي يكون في تواصل مع المستوى الخفي للوجود يُتاح له الاطلاع على الأفكار من خلال حدسه المباشر، ويصبح بالتالي في وضع يسمح له بالتدخل في الأحداث الجارية في العالم.

وبهذه الطريقة يغدو الإنسان مرتبطًا بالسماء التي تؤلف عالم الأفكار فوق الحسي، وبالأرض التي تؤلف عالم المادة الحسي، ويُشكِّل معهما مثلث قوة. إن نظرية الأفكار المتضمنة في كتاب التغيرات تطبق في اتجاهين. فالكتاب ينبئ عن صور الأحداث، كما ينبئ في الوقت نفسه عن تحققها التدريجي في الزمن. ولهذا فإن الاستعانة به في استبصار بذور الأمور المقبلة، من شأنها أن تنير لنا المستقبل من جهة وتجعلنا نفهم الماضي من جهة أخرى، وبذلك نتكيَّف مع مجرى الطبيعة.

لقد عرف كونفوشيوس كتاب التغيرات وكرَّس قِسمًا كبيرًا من وقته لدراسته والتعليق عليه خصوصًا في سنوات شيخوخته. وهناك قسم مهم من ملاحق الكتاب يحتوي على شروحات على المتن، تُعزى إلى كونفوشيوس وإلى بعض تلامذته. كما أن الكتاب كان المصدر الرئيسي لإلهام الحكيم لاو تسو، مؤسس التاوية ومعاصر كونفوشيوس، وواضع كتاب تاو تي تشينغ؛ أي رسالة في التاو وقوته. وهو الصرح الثاني في الفكر الصيني بعد كتاب التغيرات.

يلف الضباب شخصية لاو تسو الغامضة، التي لم يستطع قدامى المؤرخين الصينيين رسم سيرة حياة واضحة لها. إن كل ما استطاعوا نقله إلينا بثقة، هو أن هذا الحكيم قد عاش حياة مديدة جدًّا فيما بين أواسط القرن السادس وأواسط القرن الخامس قبل الميلاد، وأنه عاصر كونفوشيوس الأصغر منه سنًّا. ويروي المؤرخ الصيني القديم Ssyu-ma-Chien، الذي عاش في أواسط القرن الثاني ق.م.، عن لقاء جرى بين كونفوشيوس ولاو تسو، عندما جاء كونفوشيوس لزيارة لاو تسو الذي كان يعمل قيِّمًا على مكتبة القصر الملكي في عاصمة مملكة تشاو. وقد صاغ كونفوشيوس انطباعه عن ذلك اللقاء المؤثر بالكلمات التالية: «أعرف أن الطيور تحلق في الهواء والسمك يسبح في الماء والدبابات تنتقل على اليابسة، وأعرف أن كل ما يدب على اليابسة يمكن اصطياده وكل ما يسبح في الماء يمكن إمساكه بشص، وما يطير في الهواء يمكن ملاحقته بسهم. ولكن هناك التنين، الذي لا

أعرف كيف يمتطي الرياح ويناطح السحاب فيصعد إلى السماء. اليوم رأيت لاو تسو، ولا أستطيع مقارنته إلا بالتنين.» ثم يتابع هذا المؤرخ القول: إن لاو تسو قد قرَّر تَرْك عمله في القصر ومغادرة العاصمة بعد أن سادت الاضطرابات وفسدت أحوال الأسرة المالكة فيها. وقبل أن يغادر، طلب إليه بعض المقربين أن يضع كتابًا يلخِّص فيه حكمته، فأنجز لاو تسو كتابه: تاو تي تشينغ، الذي يتكوَّن من حوالي خمسة آلاف شارة كتابية صينية فقط، ثم اختفى ولم يسمع به أحد بعد ذلك. ويُعلِّق المؤرخ في نهاية روايته قائلًا: لقد كان لاو تسو شخصية فذة متفوقة، وأحب دومًا أن يُبقي نفسه مجهولًا.[٦]

لقد صاغ كل من كونفوشيوس ولاو تسو تعاليمهما بطريقة حكموية بعيدة عن الطابع الديني الذي يميِّز تعاليم أصحاب الرسالات الدينية، كما أن أيًّا منهما لم يعتبر نفسه رسولًا من قِبَل السماء يوصل مشيئتها إلى عالم البشر، بل إنسانًا يعمل على التلاؤم مع النظام الكوني الذي يعكس المشيئة التلقائية للسماء. فالإنسان ليس كائنًا مستقلًّا عن الطبيعة وعن الكون، وما عليه لكي يحيا حياة متزنة سعيدة إلا أن يتلمَّس النظام الكوني ويسلك في اتفاق معه. وعند هذه النقطة يختلف المعلمان. فبينما يركز كونفوشيوس على القانون الأخلاقي في المجتمع باعتباره صورة عن القانون الكوني، وعلى ضرورة إدراك القواعد الأخلاقية وتلقينها للأجيال، فإن لاو تسو يركِّز على ضرورة إدراك النظام الخفي الكون، وكيفية انسحاب هذا النظام على الإنسان والكائنات الحية طرًّا، لأن مثل هذا الإدراك من شأنه أن يضع الفرد، والمجتمع بالتالي، في حالة تناغم تامة مع الكون والطبيعة، وهذا ما يهيئه لتبني السلوك الأخلاقي بشكلٍ تلقائيٍّ ومن غير حاجة إلى تلقين أو اتباع لوائح أخلاقية موضوعة. من هنا، فإن التاوية الحكموية التي أسس لها لاو تسو تخلو من العبادات ومن الطقوس بشكلها المتعارف عليه. وفيما عدا التأمل الباطني الذي يحاول الإنسان من خلاله التواصل مع منبع الحقيقة، فإن التاوي حرٌّ من أية فروض طقسية أو تشريعية.

على أن طريق الحكمة الذي أسس له المعلم الأول لاو تسو، وطوره تلامذته من بعده، وأهمهم شارحه الرئيسي تشوانغ تزو الذي عاش في القرن الرابع ق.م.، قد تحوَّل بمرور الوقت إلى طريقة دينية طقسية تبنت العديد من الممارسات اليوجية الهادفة إلى السيطرة على الجسد واكتساب القوى الخارقة، كما داخلتها ممارسات وأفكار خيميائية وسحرية. وهذا ما تعرضت له أيضا الكونفوشية الحكموية التي تحولت أيضًا إلى طريقة دينية

---

[٦] D. C. Lau, Lau Tzu, Tao Te Ching, Penguin, London, 1978, pp. 8–10.

طقسية، عقب ظهور الكونفوشية الجديدة في القرن الثاني عشر الميلادي، والتي تبنَّت العديد من العناصر التاوية والبوذية والكونفوشية الحكموية القديمة إضافة إلى عناصر من الموروث الصيني القديم. ورغم ذلك فقد بقيت كلمات المعلم الأول لاو تسو فاعلة في الحياة الفكرية والروحية للشعب الصيني عبر العصور، وساهمت بشكلٍ فعَّالٍ في تكوين موقف الإنسان الصيني من الكون والمجتمع والحياة. يُضاف إلى ذلك أن تعاليم لاو تسو قد استمرت بكامل زخمها القديم من خلال بوذية الـ «شان» (أو الـ «شي آن» كما يكتبها الباحثون الغربيون) التي بدأت بالتشكل تدريجيًّا منذ القرن السابع الميلادي، عن طريق التوفيق بين العناصر البوذية والعناصر التاوية الحكموية في تركيبٍ واحدٍ. وما زالت هذه الطريقة البوذية، التي تحمل طابع المعلم الأول للتاوية، منتشرة على نطاق واسع في اليابان والعديد من أقطار الشرق الأقصى تحت اسم بوذية الـ «زن»، والتي تلقي اليوم اهتمامًا واسعًا على النطاق العالمي وتنتشر مدارسها في أوروبا وأمريكا الشمالية.

لا أريد في هذه المقدمة تقديم كثير من الشروحات النظرية حول المفاهيم الأساسية لكتاب تاو تي تشينغ، وذلك رغبة مني في ترك الكتاب يتفتح تدريجيًّا عَبْر فصوله، من خلال كلمات المعلم وما قدمته من شروح مستفيضة على المتن. ومع ذلك لا بد من تقديم الحد الأدنى من الأفكار التمهيدية التي من شأنها أن تضع القارئ في الجو العام للكتاب، وتعدُّه للتعامل مع أفكاره التي تبدو للوهلة الأولى غريبة عن الفكر الشرق أوسطي والفكر الغربي على حدٍّ سواء. وسوف أبتدئ بعرض بضعة مقتطفات من كتاب علمي حديث في الفيزياء الكونية لمؤلفه هوبرت ريفز، صدر عام ١٩٩٤ في باريس، من شأنها أن تقرِّبنا كثيرًا من مفهوم التاو. يقول المؤلف:

> «يفرِّق مفكِّرو ما وراء الطبيعة بين معنيين لكلمة خلق، فهي يمكن أن تعبر عن فعل حدث في لحظة محدَّدة من الزمن، هي الزمن صفر من عمر الكون. ويمكن أن تعبِّر أيضًا عن فعلٍ أبديٍّ يقع فيما وراء الزمن الذي احتوى العالم في الوجود، على حدِّ تعبير توما الإكويني. ينطبق هذا المعنى الثاني على كون ذي بداية تاريخية، كما ينطبق أيضًا على كون موجود منذ الأزل وسيظل موجودًا إلى الأبد. هذه التفرقة يمكن أن توضح فصولًا حديثة من علم الكون المعاصر. فلقد نشر العديد من العلماء وصفات لكيفية نشوء الكون: كيف تنشأ عوالم متعددة انطلاقًا من لا شيء. إن هذه الأفكار، رغم الاختلافات الواسعة حولها، مبنية على أسس فيزيائية صحيحة، ربما تكون قد لعبت دورًا في ميلاد الكون الوحيد الذي

نعرفه، وهو كوننا. ولكن ثمة ملاحظة تفرض نفسها مع ذلك، فهذه الوصفات تقوم أساسًا على التسليم بالوجود المسبق لقوانين الطبيعة، تلك التي أتاحت لنا الاختبارات العلمية صياغتها، وهي تستلزم أن هذه القوانين موجودة قبل وفيما وراء هذه الأكوان. في هذا السياق فإن السؤال الميتافيزيكي للفيلسوف ليبنتز يطرح نفسه: لماذا يوجد هناك شيء بدلًا من لا شيء؟ وهذا يقودنا إلى السؤال الآخر: لماذا توجد قوانين بدلًا من لا قوانين؟ وهكذا فإن مشكلة الخلق ستتحوَّل بالتالي إلى مشكلة الأصل اللازماني للقوانين التي تُسير الكون، والتي ربما كانت السبب في ظهوره قبل خمسة عشر مليارًا من السنين. فيما يتعلَّق بهذا الأصل، نحن في حالة جهل تام.»

«لقد تمكَّن العلم مُستخدِمًا طريقته التقليدية المثمرة، أي الحوار بين المفاهيم الرياضية والملاحظة العلمية، من أن يستجوب الطبيعة ويستطلع تركيب الكون. ويمكن وصف النتائج بأنها رائعة، على أقل تقدير، وتنضوي على مفاجآت. المفاجأة الأولى هي أن الكون ليس ساكنًا بل في حالة تطوُّر ويهيمن عليه التغيُّر. والمفاجأة الثانية هي أن هذه الصورة لكون متطوِّر، قد نجمت عن كون بدئيٍّ سديمي بلا شكل وبدون تنظيم، أخذ بالتشكُّل تدريجيًّا. أمَّا العناصر المنظمة فيه فهي تلك القوى الطبيعية الخاضعة لقوانين كونية دقيقة. إن تاريخ الكون هو تاريخ تنامي التعقيد على المستوى الكوني. وأمَّا المفاجأة الثالثة، فهي أن هذه القوانين تبدو وقد ضُبِطت بدقة لكي ترقى إلى مستوى هذا التعقيد، وكان لديها بالفعل. ومنذ اللحظات الأولى، القدرة على إنتاج التعقيد، على إنتاج الحياة والوعي.»

«لم يدرك أرسطو السمة التطورية للكون، عندما قدَّم لنا صورته الخاصة عن كون ثابت خالد لا يتغير. فالكون بالنسبة إليه قد وجد دائمًا وسيوجد أبدًا في حالة تطابق مع ذاته. غير أن بعض التعريفات الفلسفية القيِّمة لدى أرسطو تبدو ملائمة بشكل خاص لوصف تاريخ العالم، وخصوصًا ما تعلَّق منها بنظريته في الوجود بالقوة والوجود بالفعل، فالوجود بالقوة هو الممكن غير المتحقِّق، والوجود بالفعل هو الحادث والمتحقِّق. فحين نقول إن الشيء يتصف بالصفة x بالقوة، فإننا نعني أنه سيصبح كذلك بالفعل إذا توفرت شروط مُعيَّنة. فالقول بأن الزيت قابل للاشتعال يعني أنه إذا توفَّرَت مجموعة

من الشروط، يمكن تحديدها، فإن الزيت سيشتعل، فهنا بمقدورنا أن نرى نوعًا من الحدوث للخواص البنائية للمادة الكونية الموجودة بالقوة من قبل على هيئة قوانين طبيعية. إن معجزة الحياة لم تظهر على كوكبنا إلا منذ ثلاثة مليارات ونصف المليار من الأعوام. ولكن هذه المعجزة كان لديها القدرة على الظهور لحظة الانفجار البدئي الذي نَجَم عنه الكون، وذلك من خلال قوانين تتربَّع على عرش المادة السديمية المتوهِّجة.»

ترتكز نظرية الانفجار البدئي الذي نجم عنه الكون على فرضية أن قوانين الفيزياء، على الصورة التي اكتشفناها داخل مختبراتنا وفي المنظومة الشمسية، هي قوانين قابلة للتطبيق في أرجاء الكون جميعها، وأنها لا تتغيَّر بمرور الزمن. وفي الحقيقة، فإن التخليق النووي البدئي يتيح لنا أن نختبر هذا الافتراض. لقد استخدمنا في حساباتنا القوانين التي تحكم المادة اليوم، على عمليات التخليق النووي البدئي، وجاءت النتيجة لتؤكِّد أن القوانين لم تتغير منذ اللحظة صفر، لحظة الانفجار البدئي الكبير، إن القوانين التي تتحكَّم في القوى تلعب دور العناصر المنظمة للكون، مثل البيضة الكونية فوق السطح الهائل للحياة الأولى، وفق التصورات الميثولوجية القديمة. إنها سابقة على بناء التعقيد الكوني.[٧]

هذه الأفكار التي يقدِّمها علم الفيزياء الكونية بلسان أحد أقطابه، تضعنا في حالة فكرية ملائمة للولوج إلى كتاب تاو تي تشينغ. لأننا نجد في تلك القوانين، التي يرى هوبرت ريفز أنها سابقة على ظهور الكون وفاعلة فيه منذ لحظة الانفجار الكبير، مفهومًا يقرِّبنا كثيرًا من مفهوم التاو: المبدأ الضمني الذي يفعل من داخل مظاهر الكون والطبيعة. يقول لاو تسو:

هنالك شيء بلا شكل
موجود قبل السماء والأرض
صامت وفارغ
قائم بنفسه لا يَحُول
شأنه الدوران بلا كلل

---

[٧] هوبرت ريفز: الكون. ترجمة درويش الحلوجي، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٧-٢٨ ص٣٦-٣٧.

مؤهل لأمومة هذا العالم
لا أعرف اسمه فأدعوه: التاو
لا أستطيع وصفه فأقول: العظيم
عظمته امتداد في المكان
الامتداد في المكان يعني امتدادًا بلا نهاية
الامتداد بلا نهاية يعني العودة إلى نقطة المبتدى.

تاو تي تشينغ، الفصل ٢٥

ونقرأ لتشوانغ تزو تلميذ المعلم الأول وأهم شُرَّاحه ما يلي:

«في السماء حركة دائبة وفي الأرض ثبات. هل يتنازع القمر والشمس مجريهما؟ مَن يحكم فوق هذه الأمور ويعمل على تنظيمها؟ مَن يحافظ على اتساقها وتناغمها؟ مَن بدون جهد يحفظها؟ هل هناك قوة شد خفية تجعلها على ما هي عليه؟ هل يتحتَّم على الأجرام السماوية أن تجري على هذا النحو فلا تستطيع غير ذلك؟ انظر إلى السحب كيف تسقط مطرها، وإلى المطر كيف يرتفع ثانية فيصنع سحبًا! من يحركها لتعطي خيرها؟ ومن دون جهدٍ ابتدر هذا ويعمل على دوامه؟ رياح تنطلق من الشمال وتهب غربية وشرقية، وأخرى تنطلق نحو الأعلى دونما وجهة! أية أنفاس تدفع بها؟ من بلا جهد يدفع هبوبه؟ ما هي العلة؟»[٨]

والجواب الضمني الذي يقدِّمه تشوانغ تزو من خلال تساؤلاته في المقطع أعلاه، هو أنه لا وجود لعلة خارجية لكلِّ ما عدَّده من مظاهر حركة الكون والطبيعة، لأن العلة والمعلول وجهان لحقيقة واحدة هي التاو، والعمليات الطبيعية لا تتطلب عنصرًا خارجيًّا فاعلًا، أو مُبدِئًا متعاليًا مفارقًا يُحرِّكها عن بُعد، بل إنها تعمل وفق تلقائية كونية شمولية تتبادل من خلالها كل عناصر الكون الأثر والتأثير في سلسلة مترابطة لا يوجد فيها علة ومعلول. ولكن هذه التلقائية الكونية ليست بحالٍ من الأحوال نوعًا من الميكانيكية التي تقول بها المذاهب المادية؛ لأن كل مظاهر الحركة وتبادل التأثير في عناصر الكون، إنما

[٨] Chuang Tzu , Works, ch. 14. cited in: Chang Chung-yuan, Creativity and Taoism, p. 59.

تقوم على الخلفية الثابتة، والقاع الخفي الساكن الذي تقوم به كل حركة. إن ما يميز هذه الميتافيزيكا التاوية عن ميتافيزيكا الأديان والفلسفات الإلهية (أي التي تؤمن بوجود إله مفارق للطبيعة) هو وحدة المبدأ الضمني مع مظاهره المتنوِّعة. نقرأ لتشوانغ تزو أيضًا:

«مَن يعتمد على المنقلة والفرجار والمسطرة والمربع من أجل إنجاز أشكال صحيحة، لا ينتج إلا أشكالًا مُصطنَعة ... الأشياء في طبيعتها غير المحدودة منحنية دون حاجة إلى منقلة، مدورة دون حاجة إلى فرجار، مربعة إلى زوايا صحيحة ... بهذه الطريقة فإن الأشياء تخلق ذاتها من خلال انعكاسها الذاتي، ولا أحد يستطيع أن يقول كيف.»[٩]

وهذا يعني أن العمليات الطبيعية أشبه بتفتُّح زهرة، حيث تنبثق الفعالية الخلَّاقة من الداخل إلى الخارج، لا من الخارج لتؤثر في الداخل، ومن خلال هذه الفعالية التلقائية يفيض التاو من اكتماله البدئي ليتحول إلى ما لا يُحصى من المظاهر الحية والجامدة. هذا الفيض ليس فعلًا إراديًّا ناشئًا عن خطة مُحكمة مسبقة ذات مقاصد محدَّدة في عقل مستقلٍّ مفارقٍ، بقدر ما هو نوع من الفعل التلقائي الذي يصفه المعلم لاو تسو في أكثر من موضع بأنه اللافعل:

التاو ليس من شيمته الفعل
ومع ذلك لا يترك شيئًا بحاجة إلى إتمام.

الفصل ٣٧

ولدينا مقطع آخَر لتشوانغ تزو يُلقي مزيدًا من الضوء على مفهوم النشوء التلقائي في الحكمة التاوية، حيث يقول:

«قد يبدو لنا أن للعالم سيدًا. ولكن لا يوجد مؤشرات تدل على وجوده ... لننظر إلى الجسد الإنساني بعظامه المائة وفتحاته التسع وأجهزته الداخلية الستة. جميعها متكاملة وقائمة في أماكنها الصحيحة. هل أستطيع أن أضع أسبقية لواحدها على الآخَر؟ هل أضعها جميعًا على قدم المساواة؟ هل كلها خدم لا

---

[٩] Ibid, p. 66.

تستطيع ضبط بعضها بعضًا؟ هل تتبادل دور السيد والخادم على التوالي؟ ألا ترى أن هنالك شيئًا حقيقيًّا موجودًا في صميم تكاملها؟»[١٠]

أي إن الأشياء في المفهوم التاوي تنشأ تلقائيًّا وبشكلٍ متزامن معًا في معزل عن مبدأ السببية. وكل عنصر في هذا العالم يبدو وكأنه مركز للعالم، تمامًا كما هو الحال في سطح الكرة حيث تتخذ كل نقطة عليه دور المركز. فلا حاكم ولا محكوم، وكل عنصرٍ يحدث من تلقاء ذاته وفي ارتباط وثيق مع حدوث الآخَر. إن أية نملة صغيرة تدب على الأرض هي مركز الكون، فلكي تعيش هذه النملة تحتاج الْتقاط ما يتساقط على التربة من حبوب، والحبوب تحتاج إلى التربة ودورة الفصول، ودورة الفصول تحتاج إلى الشمس، والشمس إلى المجرة، والمجرة إلى بقية النظام الكوني، والعكس صحيح تمامًا. فمنذ اللحظات الأولى للانفجار الكبير الذي أدَّى إلى ظهور الكون يبدو لنا أن تنامي التعقيد على المستوى الكوني يسير في اتجاه إنتاج الحياة، وبالتالي إلى إنتاج هذه النملة الصغيرة، إن حياة أصغر الكائنات على الأرض تتطلب كونًا بأكمله ليسندها، وهذا الكون كان موجهًا منذ البداية لإنتاج هذه الحياة.

تحت هذه المظاهر المتنوعة التي تتبادل التأثير وتنشأ في تزامن معًا يقبع التاو، إنه الوحدة التي تجمع الذوات إلى بعضها، وتجمعها إلى ما لا يحصى من الظواهر الحية والجامدة، حيث يتخذ كل جزءٍ معناه من الكل، ويتخذ الكل معناه من الأجزاء، وتَئُول التعارضات على المستوى الظاهري إلى تواحد على المستوى التحتي. فالتاو هو الماضي والحاضر، الشكل واللاشكل، الوجود والعدم. إنه وحدة الثنويات والمنبع البدئي لكل بداية ونهاية، إنه المستوى الذي ينشأ عنه كل ميلاد وإليه يَئُول كل موت. يقول تشوانغ تزو:

«ينشأ النفي عن الإثبات، وينشأ الإثبات عن النفي. من هنا فإن الحكيم يصرف النظر عن الفوارق والاختلافات ويستمد رأيه من السماء. إن الـ «هذا» هو أيضًا ذاك، والـ «ذاك» هو أيضًا هذا، هذا له خطؤه وصوابه، وذاك له خطؤه وصوابه أيضًا. هل هنالك حقًّا من فرق بين هذا وذاك؟ هل ليس من فرق بينهما؟ عندما لا ننظر إلى هذا وذاك باعتبارهما ضدَّين نكون في جوهر التاو ... إن النفي والإثبات يتمازجان في الواحد اللانهائي.»[١١]

[١٠] Ibid, p. 37.

[١١] Ibid, p. 36.

فنحن في تجربتنا اليومية نعاين الأشياء في تعارضاتها، حيث العالي والمنخفض، الكبير والصغير، الأسود والأبيض، الصح والخطأ ... إلخ، ولكن التاوي يتساءل عمَّا إذا كان هنالك بالفعل فرق بين هذه الثنائيات، وهنا يصوغ تشوانغ تزو المسألة على الوجه التالي: «لأن شيئًا أكبر من أشياء أخرى ندعوه كبيرًا، ويتبع ذلك أن كل الأشياء في العالم كبيرة، لأن شيئًا أصغر من أشياء أخرى ندعوه صغيرًا، ويتبع ذلك أن كل الأشياء في العالم صغيرة».[١٢] ومعنى هذا القول إنَّ أي شيء في العالَم هو صغير وكبير في آنٍ معًا، طويل وقصير في آنٍ معًا، لأن الحجم والطول وما إليها من خصائص الأجسام المادية هي أمور نسبية، وكل شيء يمتلك خصائص مختلفة ومتعارضة أيضًا، وهذا ما يقود التاوي إلى القول بوحدة الأضداد والنظر إلى المظاهر في «ذاتويتها» فحين تدرك ذاتوية الأشياء؛ أي وجودها الذاتي بصرف النظر عن خصائصها النسبية، تكون قد أدركت جوهر التاو.

ولدينا نصٌّ للمعلِّم الأول لاو تسو، يعبِّر بشكل جميل عن النظرية التاوية في النشوء التزامني للأشياء، ووحدة الأضداد عند المستوى التحتي للوجود، حيث يقول:

الوجود واللاوجود ينجمان عن بعضهما بعضًا.
الصعب والسهل يُكمل بعضهما بعضًا.
الطويل والقصير يقابل بعضهما بعضًا.
العالي والمنخفض يسند بعضهما بعضًا.
الصوت والصمت يجاوب بعضهما بعضًا.
القَبل والبَعد يتبع بعضهما بعضًا.
لذا فإن الحكيم لا يبادر إلى فعل شيء.
ويعلِّم بدون كلمات.

«تاو تي تشينغ، الفصل ٢»

إن نظرة التاوي إلى المظاهر في نشوئها التزامني، وإلى وحدة الثنائيات وتماثل الأضداد، تقوده إلى رؤية الكثرة في الوحدة، والكل في الأجزاء، فالتاو يحل في المظاهر المتنوِّعة ويوجد خارجها في آنٍ معًا، إنه الخفي الذي يصدر عنه ما لا يحصى من الأشياء في كثرتها وفي

---

[١٢] Ibid, p. 32.

ثنائياتها، توضح هذه النقطة الحوارية الآتية بين تشوانغ تزو وحكيم كونفوشي يُدعى تونغ كاو تزو:

«تونغ كاو تزو سأل تشوانغ تزو: أين يوجد ذاك الذي تدعوه بالتاو؟ فأجاب تشوانغ تزو: إنه في كل مكان. فقال تونغ كاو: أين بالتحديد؟ فأجاب تشوانغ تزو: إنه في النملة. فقال تونغ كاو: كيف له أن يوجد في هذه الدرجة السفلى؟ فتابع تشوانغ تزو قائلًا: إنه في بلاطة الأرض هذه. فقال تونغ كاو: إن هذا لعمري أدهى وأَمَرُّ. فتابع تشوانغ تزو قائلًا: إنه حتى في الرَّوَث. وهنا سكت تونغ كاو ولم يُجِب ببنت شفة. فأردف تشوانغ تزو شارحًا وجهة نظره: إن أسئلتك هذه لا تنفع في اكتناه جوهر التاو. عليك ألا تسأل عن أشياء محدَّدة يوجد فيها التاو، لأنه لا وجود لأي شيءٍ بدون التاو».

فإذا كان التاو هو الخلفية الساكنة للوجود، والمبدأ السابق على مظاهر الكون والطبيعة، والمطلق الحر من شروط المكان والزمان، فإنه في الوقت ذاته مصدر عملية الخلق الدائمة التي تنطلق منه وتعود إليه فهنا يتخلَّل التاو جميع مظاهر الكون، ويتحوَّل إلى ما لا يحصى من الأشياء والأجزاء المتكثرة، المستقلة من حيث ظاهرها والمتوحِّدة عند جذورها في المطلق الساكن الذي نشأت عنه، وبذلك تنحلُّ الوحدة إلى كثرة وتَئُول الكثرة إلى وحدتها الأصلية، أو كما يقول تشوانغ تزو أيضًا: «إذا نظرنا إلى الأشياء من ناحية فروقها واختلافها فإننا نجد كل ما حولنا متباعدًا مستقلًّا، حتى إن المسافة بين أجهزتنا الداخلية تبدو أبعد من المسافة بين دولتي تشو ويوهي، أمَّا إذا نظرنا إلى الأشياء من ناحية تماهيها وتطابقها، فإن كل هذه الأشياء تبدو لنا على حقيقتها مندغمة في واحد.»

إن كل مظهر، كل حدث في الكون وفي الطبيعة يلعب دوره ويتخذ أهميته من علاقته بكلِّ ما عداه، وإذا تركت الأشياء والأحداث حرَّة في مسارها، تحقق الانسجام على مستوى الكون؛ لأن أي عملية من عمليات الكون لا تسير قدمًا إلا في علاقتها بالعمليات الجارية الأخرى، وبتعبير آخَر فإن نظام العالَم هو نظام الطبيعة التي لا تعرف القانون المفروض من الخارج بل تسير وفق قوانينها الضمنية الذاتية، حيث مسار أي شيءٍ متطابق ومنسجم مع مسار العالم بأكمله، مع طريق التاو. هذه القوانين الضمنية الذاتية تُشبه النظام العضوي الذي نجده في مقطع الشجرة وفي شكل وخارطة أوراقها، وفي بلورات الكريستال وما إليها، فهذا النظام العضوي لا تناظري، غير متكرِّر، ولا يتبع قاعدة ثابتة أو خطة

مسبقة، وهذا ما نجده في جريان الماء وفي أشكال وجذوع الشجر وفي تشكُّل السحب، وتكوُّن بلورات الثلج، وتوزُّع الحصى على شاطئ البحر.

إن النظرة التاوية إلى الكون ليست تأمُّلًا ميتافيزيكيًّا صرفًا بل هي خبرة داخلية تجعل صاحبها في تواصل مع منبع الحقيقة، وهذا التواصل ينعكس على خبرة التاوي العملية في الحياة، ويزوده بمرجعية للسلوك مع نفسه ومع الآخَرين، مما سأتعرَّض له بالتفصيل في ثنايا الشروح والتفسيرات المقبلة على المتن، فكتاب تاو تي تشينغ ليس مجموعة تأملات حكموية في أمور ما وراء الطبيعة فقط، بل إنه في الوقت ذاته دليل حياة وعمل، يساعد التاوي على التوافق مع نفسه ومع الآخَرين ومع صيرورة النظام العضوي على المستوى الأعلى، إضافة إلى كونه دليل عمل ناجع في أمور الحكم والسياسة.

لقد حاولت في البداية تقريب مفهوم التاو إلى ذهن القارئ عن طريق بسط بعض المفاهيم العلمية التي تدور حول القوانين الناظمة لصيرورة الكون، ولم يكُن ذلك إلا مزدلفًا سهلًا يساعدنا على الإحاطة بمفهوم التاو قبل تقليب صفحات متن الكتاب، وما أود قوله الآن هو أن الفرق شاسع بين مهمة العلم ومهمة الحكمة، فبينما يهدف العلم إلى معرفة ممَّ يتكون العالم وكيف يعمل، فإن الحكمة تهدف إلى معرفة كيف نستطيع العيش في هذا العالم، المعرفة العلمية مكتفية بذاتها والعرفان الحكموي يؤدي إلى موقف وإلى سلوك، وهذا ما يتضمَّنه المعنى اللغوي لكلمة التاو، فالتاو في اللغة الصينية يعني الطريق، ولكن ليس بالمعنى الضيِّق المحدد الذي يرى في الطريق خطاً يصل بين مكانين محدَّدين، وإنما بالمعنى الشمولي الذي يدل جوهر صيرورة عمليات الكون والطبيعة، إنه الطريق الخفي الذي تطرقه كل حركة في تناوبها، وكل سلوك إنساني في سعيه للتناغم مع منبع الحقيقة، كما تؤدِّي كلمة تي المرتبطة بالتاو (تاو تي تشينغ) معنى مكملًا لمعنى كلمة التاو، فالـ «تي» هي التاو متحقِّقًا في الكون وفي الإنسان، وعندما يدرك الفرد صِلته العضوية بالتاو، إدراكًا ضمنيًّا حدسيًّا لا ذهنيًّا، فإن ذلك الإدراك ينعكس على سلوكه العام الذي يتخذ طابع التلقائية والعفوية، والانسجام مع طريق السماء بدلًا من الزوغان عنه.

أخيرًا، لا بد لي من إيراد بعض الملاحظات حول كيفية تعامل القارئ مع هذا النص، فكتاب التاو هو نص في الحكمة لا في الفلسفة، والكاتب لا يطرح مقدمات منطقية ثم يعمل على تطويرها بشكل مضطرد وصولًا إلى النتائج، وإنما يترك أفكاره تنبثق بشكل تلقائيٍّ ثم يصوغها في اختزال واختصار شديدين يؤدِّيان في كثير من الأحيان إلى غموض شديد في المعنى، إنه أسلوب الشعر الذي يقصد إلى الإيجاز لا إلى بَسْط الأفكار ومناقشتها والإقناع

بها، وهذا ما يقود إلى فقدان الارتباط الظاهر بين فقرات بعض الفصول، وإلى تكرار بعض الأفكار والصيغ الكلامية، على ما هو مألوف في كتب الحكمة وفي الكتب المقدسة بشكل عام.

ويتعلَّق بمسألة الشكل هذه مسألة أخرى في المضمون، فهنالك أكثر من مستوى للمعنى في نصِّ لاو تسو. المستوى الأول ميتافيزيكي والثاني أخلاقي اجتماعي والثالث سياسي، فقد يتم الانتقال من المستوى الأول إلى الثاني إلى الثالث في الفصل الواحد، وقد تحمل الفقرة الواحدة أكثر من مستوى للمعنى، ويمكن فهمها بشكل ميتافيزيكي وأخلاقي وسياسي في آنٍ معًا، ويتبع ذلك أن بعض التعابير التي يستخدمها الكاتب تحمل أكثر من دلالة، من ذلك مثلًا تعبير «الحكيم» الذي يدل على الشخص الذي انكشفت بصيرته على التاو، كما يدلُّ أيضًا على السياسي أو الحاكم الذي يرى لاو تسو ضرورة ارتقائه إلى مرتبة الحكيم ليستطيع حكم الدولة وفق النظام الطبيعي الذي يسير الكون، ومن ذلك أيضًا تعبير «المملكة» الذي يدل على الدولة بمفهومها السياسي، كما يدل على العالم بالمفهوم الشمولي.

ولمساعدة القارئ على اقتناء المعنى، تبنَّيت أسلوب الباحث الصيني D. C. Lau في تقسيم الفصل الواحد إلى فقرات، يحتوي كلٌّ منها على جزءٍ من الرسالة الإجمالية للفصل، أو على رسالة مستقلة وخاصة به، وتحمل كل فقرة رقمًا خاصًّا متسلسلًا، وهنالك فقرات تشترك مع سابقتها بالرقم وتنفرد عنها برمز خاصٍّ مثل: ١٣ و١٣a و١٣b وفي ذلك إشارة إلى وجود رابطة عضوية بينها، وتعاونها على أداء الجزء الخاص بها من المعنى.

وبما أني قد فصلتُ متن النص عن شروحاته، وأفردتُ لكلِّ جزء فصلًا خاصًّا به فإن القارئ مخيَّر بين قراءة متصلة للنص، أو قراءة مقرونة بالعودة إلى الشرح، رغم أني أنصح بالاستعانة بالشرح في قراءة الفصول الأولى على الأقل، لأنها تتضمَّن الأفكار الرئيسية للاو تسو، ولأن عدم وضوح هذه الأفكار منذ البداية سوف يقود القارئ من لغز إلى آخَر، ويؤدِّي إلى سوء الفهم والتأويل.

تاو تي تشينغ

النص الكامل

الفصل الأول

(١) التاو الذي يمكن التحدُّث عنه
ليس التاو السرمدي،
الاسم الذي يمكن إطلاقه
ليس الاسم السرمدي.
(٢) اللامسمى (أو العدم) هو السابق على السماء والأرض،
المسمى هو أم الآلاف المؤلفة.[١]
(٣) جرِّد نفسك من رغائبها تعاين أسراره
الزم نفسك رغائبها تعاين تجلياته.
(٣-أ) الأسرار والتجليات أمران سيان في المنشأ،
ولكنهما لا يستويان بالاسم عند صدورهما
استواؤهما أدعوه ظلمة وخفاء
ظلمات وراءها ظلمات، خفاء وراءه خفاء
بوابة كل الأسرار.

[١] تعبير: «الآلاف المؤلَّفة»، هو ترجمتي للتعبير الصيني: «العشرة آلاف شيء»، ويُقصد به ما لا يمكن حصره من مظاهر الكون والطبيعة بما فيها النفوس الحية. وفي بعض المواضع من هذا النص يستخدم التعبير للدلالة حصرًا على الكائنات الحية، وفي استخدام أضيق يدل على الناس فقط.

الفصل الثاني

(٤) يرى الجميع في الجميل جمالًا لأن ثمَّة قبحًا
يرى الجميع في القبيح قباحة لأن ثمَّة جمالًا.
(٥) الوجود واللاوجود ينجم بعضهما عن بعض
الصعب والسهل يكمل بعضهما بعضًا
الطويل والقصير يوازن بعضهما بعضًا
العالي والمنخفض يسند بعضهما بعضًا
الصوت والصمت يجاوب بعضهما بعضًا
القبل والبَعد يتبع بعضهما بعضًا.
(٦) لذا فإن الحكيم لا يتدخل في مسار الأشياء
ويُعلِّم بدون كلمات.
(٦-أ) الآلات المؤلفة تظهر وتختفي بلا توقف
(٦-ب) ما يعطيها الحياة لا يدَّعي امتلاكًا
يعينهم ولا يقتضي عرفانًا
يكمل عمله ولا يدَّعي فضلًا.
(٧) العمل يُنجَز ثم يُنسَى
ولذا فإن أثره لا يفنى.

الفصل الثالث

(٨) عندما لا نُمجِّد السبَّاقين، نمنع التنافس.
عندما لا نُقدِّر النفائس، يختفي المال الحرام.
عندما لا تعرض ما يثير الرغبة، نقضي على تبلبل الأذهان.
(٩) لذا، فإن الحكيم في إدارته للرعية
يفرغ العقول ويملأ البطون،
يُضعف المطامع ويقوِّي الأجسام.
(٩-أ) حتى إذا تحرَّرت الرعية من الرغبة ومن المعرفة
لم يبقَ للمفكِّرين دورٌ يلعبونه.
(١٠) لا تتدخَّلْ في مسار الأشياء يَسُد النظام من تلقاء ذاته.

الفصل الرابع

(١١) التاو فارغ ولا يُنضبه النضح
لا يُسبر غوره؛ مُنشِئًا الآلاف المؤلَّفة.
(١٢) ثلِّم الحد
حُل العُقد
خفِّف البريق
تمازَجْ مع التراب
دع عجلاتك تسير فوق الدروب القديمة.
(١٣) خفي وغامض ولكنه حاضر أبدًا
لا أدري ابن مَن هو
ولكنه سلف الآلهة.

الفصل الخامس

(١٤) السماء والأرض لا شفقة عندهما؛ ولا قسوة
تعامل الآلاف المؤلَّفة مثل دُمى الحقول (= في حياد).
الرجل الحكيم لا شفقة عنده، ولا قسوة
يُعامل الآلاف المؤلَّفة مثل دُمى الحقول.
(١٥) الفضاء بين السماء والأرض يشبه المنفاخ
فارغ ولا ينضبه النضح
كلما كدَّ، كلما أنتج أكثر.
(١٦) الكلام الكثير يقود أخيرًا إلى الصمت
ثبِّت قلبك على جوهر الفراغ.

الفصل السادس

(١٧) روح الوادي لا تَحُول
يدعونها بالأنثى الغامضة
البوابة إليها تُدعى منشأ السماء والأرض
خفية وغامضة،
والنضح لا ينضب مَعينها.

الفصل السابع

(١٨) السماء والأرض باقيتان

لماذا تبقى السماء والأرض؟

لأنهما لا تشعران بوجودهما.

(١٩) الحكيم يضع نفسه في المؤخرة ليجدها في المقدمة

عندما ينسى نفسه يجد نفسه.

(١٩-أ) لأنه لا يشعر بنفسه يحقِّق كمال ذاته.

الفصل الثامن

(٢٠) الخير الأسمى يُشبه الماء
الماء يسقي ألوف الحيوات بلا جهد
يرافقها في أماكن لا يرتادها أحد
وهو في ذلك يشبه التاو.
(٢١) في السكن، ما يهم هو الحيِّز الذي يسد حاجتك
في صفات العقل، ما يهم هو العمق
في صفات الصداقة، ما يهم هو المودة
في الكلام، ما يهم هو الصدق
في الحكم، ما يهم هو النظام وحسن الإدارة
في الشغل، ما يهم هو البراعة
في التنفيذ، ما يهم هو التوقيت.
(٢٢) لأنه لا يجهد نفسه يصيب هدفه.

الفصل التاسع

(٢٣) عندما لا تتوقف عن صب الماء في الوقت المناسب
يطفح الكيل بمائه
عندما تزيد في شحذ الحد
تعمل في النهاية على انثلامه
عندما تزيد في تكديس الذهب والفضة
لا تغدو قادرًا على حراستها
عندما تبالغ في الغطرسة إذا أتاك المال والجاه
تجلب على نفسك كارثة.
(٢٣-أ) إن تنسحب عقب إتمام المهمة
تتشبه بطريق السماء.

الفصل العاشر

(٢٤) بينما تحمل روحيك، روح اللين وروح اليانغ
هل بمقدورك الجمع بينهما في كلٍّ لا ينفصم؟
(٢٤-أ) في تركيزك على تنفسك
هل بمقدورك أن تغدو كالوليد الجديد؟
في تأملك أغوار ذاتك
هل بمقدورك أن تجلو مرآتك الداخلية؟
فلا تترك عليها غبارًا؟
(٢٤-ب) هل بمقدورك محبة الناس وحكم الدولة
دون التدخل في مسار الأشياء؟
عندما تنفتح بوابات السماء وتُغلَق
هل بمقدورك التزام دور المرأة؟
عندما تنفذ بصيرتك في الاتجاهات الأربعة
هل تفعل ذلك دون معرفة منك؟
(٢٥) يعطيهم الحياة ولا يدعي امتلاكًا
يعينهم ولا يقتضي عرفانًا
هو المدبر ولا يبسط سلطانًا.
(٢٦) هذا ما يُدعى بالـ «تي» الخافية.

الفصل الحادي عشر

(٢٧) اجمع أقطار العجلة الثلاثين عند المركز
وانظر كيف يعطيك اللاشيء، في المركز، حركة ودورانًا
اعجن الطين وشكِّله إناءً
وانظر كيف يُتيح لك اللاشيء في داخله، استعمالًا
اصنع أبوابًا ونوافذ وارفع غرفة
وانظر كيف يقدم لك اللاشيء، في داخلها، سكنًا!
(٢٧-أ) ما نحصل عليه هنا: شيء
ولكن بفضل اللاشيء يكتسب الشيء وظيفته.

الفصل الثاني عشر

(٢٨) الألوان الخمسة تُعمي بصر الإنسان.
المقامات الموسيقية الخمسة تصم أذنيه.
الطعوم الخمسة تفسد حاسة تذوقه.
السباق والقنص يهيِّج قلبه.
تقدير النفائس وتكديسها يصيبه بالقلق عليها.
(٢٩) لذا فإن الحكيم ينكفئ نحو الداخل.
ويتجنَّب إغواء الحواس.
يترك هذا ويأخذ بالآخَر.

الفصل الثالث عشر

(٣٠) الاستحسان والتقريع أمران مزعجان
المنصب العالي يورث المتاعب، مثل جسد المرء
(٣٠-أ) لماذا يكون الاستحسان والتقريع أمرَين مُزعِجَين؟
لأن الاستحسان ما أن يُمنح حتى يتبعه تقريع
لا هذا يدوم ولا ذاك!
لماذا يورث المنصب العالي المتاعب مثل جسد المرء؟
لأن الجسد يتطلَّب رعاية واهتمامًا دائمًا
فإن لم يكُن لديك جسد من أين تأتيك المتاعب؟
(٣١) لذا، فإن مَن يهتم برعاية جسده كاهتمامه بحكم مملكة
يُمكن أن يُوكل إليه حكم مملكة
ومَن يحب جسده أكثر من حبِّه لحُكم مملكة
يمكن أن توكل إليه رعاية مملكة.

الفصل الرابع عشر

(٣٢) ما لا تستطيع رؤيته، هو ما لا شكل له
ما لا تستطيع سماعه، هو وراء الصوت
ما لا تستطيع لمسه، هو بدون كتلة.
(٣٢-أ) ثلاثة لا يمكن معرفة كُنهها
ولكنها تتمازج في واحد
(٣٣) من الأعلى لا يمكن لنور أن يجعله أكثر وضوحًا
من الأسفل لا يمكن لظلمة أن تجعله أكثر عتمةً
يستمر بلا انقطاع
ولكنه يعود إلى العدم
إنه الشكل الذي لا شكل له
إنه الصورة التي لا صورة لها
إنه بلا تحديد ويتجاوز الخيال
اسبقه لا تر له بداية
اتبعه لا تر له نهاية
(٣٤) قف مع التاو القديم
لتتحرك مع اللحظة الراهنة
القدرة على معرفة الأصول
تضعك في جوهر التاو.

الفصل الخامس عشر

(٣٥) العارف بالتاو في سالف الأزمان
كان رقيقًا، فهيمًا، لا يُسبَر لمعرفته غور
ولا تستطيع العين تمييزه
ولذا لا يمكننا وصفه إلا بصورةٍ عامةٍ:
متمهِّل كمَن يخوض شتاءً في ماء نهر
متأنٍّ كمَن يحاذر إزعاج جاره
دمِث كضيف زائر
ليِّن كثلجٍ يذوب
صلب وطبيعي كجلمود خام
مجوَّف وفارغ كالوادي
(٣٦) سديمي كماءٍ عكِر، يصير رائقًا إذا هدأ
ويبقى في سكون، حتى إذا حركته عاد إلى النشاط
صاحب هذا الطريق لا يرغب في الامتلاء
ولأنه يبقى غير ملآن، يبلى ويتجدَّد على الدوام.

الفصل السادس عشر

(٣٧) أتأمل الفراغ المطلق
ألبث في سكون
الآلاف المؤلَّفة تنشأ في تواقت معًا
وأنا أرقب دورانها
الآلاف المؤلَّفة في حركة دائبة
ولكنها تعود أخيرًا إلى أصولها
العودة إلى الأصول تعني السكون
السكون يعني العودة إلى مصير الوجود
العودة إلى مصير الوجود تعني الثبات
معرفة الثبات تفتح البصيرة
(٣٨) أن تفعل وأنت جاهل بالثبات يقود إلى الضلال
أن تفعل وأنت عارف به يفتح الذهن
الذهن المفتوح يعني قلبًا مفتوحًا
القلب المفتوح يقود إلى الملوكية
الملوكية تقود إلى السماء
السماء تقود إلى التاو
التاو يقود إلى الأبدية
وإلى آخِر أيامك لن يمسك ضرٌّ.

الفصل السابع عشر

(٣٩) أفضل الحكام مَن شابَهَ الظِّل عند رعيته،
يليه الحاكم الذي يحبون ويحمدون،
فالذي يخافون ويرهبون،
فالذي يكرهون ويحتقرون،
(٤٠) إذا لم يمنح الحاكم ثقته للناس أولًا
لن يستطيع الحصول على ثقتهم،
(٤١) متأنٍّ لا يلقي الكلام على عواهنه
فإذا أكمل مهمته وأتمَّ عمله،
تقول الرعية: لقد حصل ذلك من تلقاء ذاته.

الفصل الثامن عشر

(٤٢) عندما يُهمَل التاو العظيم
تظهر تعاليم الاستقامة وأفعال الخير.
عندما يُقدَّر المفكرون
يظهر النفاق والادعاء الفارغ.
عندما تفقد الأسرة تماسكها
تدعو الحاجة إلى الأولاد البارِّين.
عندما تعم الفوضى في المملكة
تدعو الحاجة إلى الوزراء المُخلصين.

الفصل التاسع عشر

(٤٣) إذا استبعدت الفقهاء ومُدعي الذكاء
يفيد الناس أضعافًا مضاعفة.
إذا ألغيت تعاليم الاستقامة وأفعال الخير
يعود الناس إلى محبة بعضهم بعضًا.
إذا أوقفت تقدير الشطارة والكسب
يختفي اللصوص وقُطَّاع الطرق.
(٤٤) المعرفة وفعل الخير والشطارة
إنْ هي إلا زينة خارجية، لا تكفي في حدِّ ذاتها
اكشف عن جوهرك غير المصقول.
كن مثل الجلمود الخام
وتخلص من التعاليم.
(٤٥) تخلَّ عن المعارف تدع عنك الهم والقلق.

الفصل العشرون

(٤٦) بين الـ «نعم» والـ «لا»
هل كبيرٌ هو الفرق؟
بين الخير والشر
هل بعيدة هي المسافة؟
(٤٧) ما يخافه الآخرون، عليَّ أن أخافه أيضًا!
إنه لأمرٌ سخيفٌ!
(٤٨) جموع الناس تروح وتجيء
كأنها في عيد واحتفال
أو كأنها في نزهات الربيع اللاهية
وأنا وحدي خامل لا تصدر عني إشارة
أزداد دون أن أصل إلى الامتلاء
أنا وحدي ساذجٌ مثل الوليد الجديد قبل أن يتعلم الابتسام
هائمٌ كمَن لا بيت عنده يئوب إليه
جموع الناس لديها أكثر مما تحتاج
وأنا وحدي لا شيء عندي
عقلي، كمثل الأبله، صفحة بيضاء
عامة الناس مشرقون
وأنا وحدي خامل هامد
عامة الناس متنبهون
وأنا وحدي غافل

ساكِنٌ مثل صفحة الماء الهادئ
جموع الناس يسعى كلٌّ إلى غاية
مثل ريح لا يهدأ لها هبوب
وأنا وحدي مختلف عن الآخرين
أعتمد على الأم: مرضعتي.

الفصل الحادي والعشرون

(٤٨) أهل الـ «تي» هم في كلِّ لحظةٍ مع التاو
(٤٩) إذا أردت التشبيه
أقول إن التاو لا متمايز ومعتم
معتم ولا متمايز
ومع ذلك ففي صميمه صورة
معتم ولا متمايز
ومع ذلك ففي صميمه جوهر
معتم ولا متمايز
ومع ذلك ففي صميمه ماهية أصيلة
فيها الحقيقة الناصعة.
(٤٩-أ) منذ القِدم إلى يومنا هذا
لم يفارقه اسمه
دليلنا إلى مصدر الأشياء طرًّا
كيف أعلم عن مصدر الأشياء؟
بواسطة هذا.

الفصل الثاني والعشرون

(٥٠) إذا انحنيت تغلب
إذا انطويت تستقيم
إذا فرغت تمتلئ
إذا بدوت باليًا تتجدد
بالقليل تكسب
بالكثير تتعثر.
(٥٠-أ) لذا فإن الحكيم يقف مع الواحد
ويجعل من نفسه أمثولة للناس.
(٥٠-ب) لا يُظهر نفسه، ولذا يبدو للنظر
لا يعتبر نفسه على حق، ولذا يبرز
لا يتفاخر، ولذا يحوز المكانة
لا يتبجح، ولذا ينال الاعتراف
(٥٠-ج) لا يباري أحدًا، ولذا لا منافس له
(٥٠-د) لقد قال القدماء: إذا انحنيت تغلب
وما هو بالقول الفارغ
إذا عملتَ به أمنتَ حتى النهاية.

الفصل الثالث والعشرون

(٥١) في قلة الكلام تناغم من الطبيعة
الطبيعة لا تُعبِّر عن نفسها بالكلمات
(٥١-أ) الريح القوية لا تهب طوال الصباح
الأمطار الغزيرة لا تهطل على مدار النهار
مَن يقف وراء ذلك؟ السماء والأرض!
ولكن السماء والأرض لا تديمان الأمور إلى الأبد
وأقل منهما بكثير الإنسان
لذا ثبِّت قلبك على التاو
(٥٢) رجل التاو يماثل التاو
رجل الـ «تي» يماثل الـ «تي».
مَن يماثل التاو يقبله التاو
مَن يماثل الـ «تي» تقبله الـ «تي».
مَن يماثل الخسارة تقبله الخسارة.
(٥٣) مَن لا يملك ثقة كافية
لا يكون موضعًا للثقة.

الفصل الرابع والعشرون

(٥٤) مَن يتطاول على أطراف أصابعه لا يقف طويلًا
مَن يعدو لا يمشي بعيدًا
(٥٥) مَن يظهر نفسه لا يبدو للعيان
مَن يعتبر نفسه دومًا على حق لا ينال الرضى
مَن يتفاخر لا يحوز المكانة
مَن يتبجَّح لا ينال الاعتراف
(٥٥-أ) عند أهل التاو
هذه الأمور طعام زائد ومتاع فائض
هذه الأمور لا تجلب معها السعادة
من هنا فأهل التاو يتجنبونها.

الفصل الخامس والعشرون

(٥٦) هناك شيء بلا شكل
موجود قبل السماء والأرض
صامت وفارغ
قائم بنفسه لا يحُول
يتخلَّل المكان ولا ينفد
إنه بمثابة الأم لهذا العالَم
(٥٦-أ) لا أعرف له اسمًا فأدعوه التاو
لا أعرف له وصفًا فأقول العظيم
عظمته امتداد في المكان
الامتداد في المكان يعني امتدادًا بلا نهاية
الامتداد بلا نهاية يعني العودة إلى نقطة المبتدى
(٥٧) لأن التاو عظيم، السماء عظيمة
لأن السماء عظيمة، الأرض عظيمة
لأن الأرض عظيمة، الإنسان أيضًا عظيم
أربعة ينتسبون إلى العظمة
(٥٨) الإنسان يقتدي بالأرض،
الأرض تقتدي بالسماء،
السماء تقتدي بالتاو،
التاو يقتدي بذاته.

الفصل السادس والعشرون

(٥٩) الثقيل هو جذر الخفيف
الثابت هو سيد المتقلقل
(٥٩-أ) من هنا، فإن السيد المرتحل طيلة النهار
لا يترك عرباته المثقلة تغيب عن ناظرَيه
حتى يحط رحاله وراء الأسوار والأبراج
عندها يركن في سلام بعيدًا عن المخاوف
فكيف لحاكم عشرة الآلاف عربة
أن يسلك في خفة أمام الناس؟
(٥٩-ب) في الخفة فقدان للجذور
في التقلقل فقدان للسيطرة.

الفصل السابع والعشرون

(٦٠) المحنك بالأسفار لا تترك عجلاته وراءها أثرًا
الضليع في الكلام لا يتعثر به اللسان
البارع في الحساب لا يلزمه جهاز للعد
الحاذق في الإيصاد لا يستخدم المزلاج
وما يُحكم إيصاده يستعصي على الفتح
الحاذق في إحكام الرباط لا يحتاج إلى عَقْد الحبل
وما يُحكم رباطه يستعصي على الحل
(٦١) لذلك، فإن الحكيم هو المحنك برعاية الناس
لا يترك أحدًا دون رعاية
إنه يهتم بكلِّ شيءٍ ولا يترك أمرًا مهما صغر
هذا ما أدعوه باتباع البصيرة
(٦٢) لذا، فإن الإنسان الصالح هو الذي يعلم الطالح
والإنسان الطالح هو موعظة للصالح
إذا لم يتم تقدير المعلِّم
إذا لم يكن هناك حدب على المتعلِّم
سيسود الاضطراب مهما بالغت في الحرص
(٦٢-أ) هذا ما أدعوه بعقدة السر.

الفصل الثامن والعشرون

(٦٣) اعرف الذكر
والعبْ دور الأنثى
تكُن في المملكة كمسيل نهرٍ جارٍ
إذا كنت كمسيل نهرٍ جارٍ
فإن الـ «تي» الخالدة لن تتركك
وتغدو مرة أخرى مثل الوليد الجديد
اعرف الأبيض
والعبْ دور الأسود
تكن في المملكة أمثولة
إذا كنت في المملكة أمثولة
فإن الـ «تي» الخالدة لن تعوزك
اعرف الإباء
والعب دور المتواضع
تكن في المملكة كوادٍ عميقٍ
إذا كنت كوادٍ عميقٍ
فإن الـ «تي» الخالدة سوف تغمرك
وستئول إلى حالة الجلمود الخام
(٦٤) عندما يُنحت الجلمود الخام ويُجزَّأ يصير آنية
والحكيم يستخدم هذه الآنية لكي يحكم
(٦٥) لذلك، فإن الخيَّاط الماهر
لا يعمد كثيرًا إلى القص.

الفصل التاسع والعشرون

(٦٦) مَن يبسط سلطته على مملكة فيحاول قولبتها
لن يعرف الراحة قط
المملكة وعاء مقدَّس لا يمكن مسَّه بالتعديل
مَن يعمل على قولبتها يجعلها خرابًا
مَن يُحكِم قبضته عليها يخسرها
(٦٧) بعض الأشياء يأتي في المقدمة وبعضها في المؤخرة
البعض يتنفس بسهولة والبعض يتنفس بصعوبة
البعض يجنح إلى القوة والبعض يجنح إلى الضعف
البعض يسحق والبعض ينسحق
(٦٨) لذلك، فإن الحكيم يتجنَّب الإفراط في الغلو والصلف.

الفصل الثلاثون

(٦٩) إذا كنت في موضع نصح الحاكم، وفق التاو
لا تُشر عليه بإشهار السلاح وإخافة الناس
فمن شأن ذلك إثارة ردود فعل تلقائية
(٦٩-أ) حيثما تعسكر القوات ينبت شجر الشوك
وفي أعقاب الجيوش الجرارة يذوي الحصاد
إذا كان لا بد من الحرب فعجِّل في إنهائها
عجِّل في إنهائها ولا تتفاخر
عجِّل في إنهائها ولا تتبجح
عجِّل في إنهائها ولا تتغطرس
عجِّل في إنهائها ولا تروِّع الناس
(٧٠) فورة القوة يعقبها الوهن
وهذا ليس من التاو
مَن يسِرْ عكس تيار التاو
يأتِ إلى نهاية سريعة.

الفصل الحادي والثلاثون

(٧١) لأن السلاح أداة شؤم يبغضها الناس
فإن رجل التاو لا يلجأ إلى استخدامها
السادة يلجئون إلى اليسار في زمن السلم
وفي زمن الحرب يلجئون إلى اليمين
السلاح أداة شؤم لا يلجأ إليها السادة
فإذا كان لا بد منها، استخدِمها في حياد
لا يوجد مجد في الانتصار
تمجيد الانتصار يعني إعلاء شأن القتل
ومن يُعلي شأن القتل لا مكان له في المملكة
في زمن الأفراح تُعطى الأسبقية لليسار
وفي زمن الأتراح تُعطى الأسبقية لليمين
القائم قام مكانه إلى اليسار
والجنرال مكانه إلى اليمين
وهذا يعني أن الحرب تُقاد كما الجنازة
عندما يقتل العديد من الناس نبكيهم بحزنٍ وأسى
ولهذا عند الانتصار علينا أنْ نُقيمَ طقوس الحداد.

الفصل الثاني والثلاثون

(٧٢) التاو يبقى أبدًا بدون اسم
مثل الجلمود الخام
الجلمود الخام مهما صغر
لا يستطيع أحد أن يدعي عليه سلطانًا
إذا أفلح السادة والحكام في التمسك به
فإن جموع الناس تنساق من تلقاء ذاتها
ستلتقي السماء والأرض وينزل الندى العذب
ويسلك الكل بعدل وإنصاف من دون إكراه
عندما يتجزأ الجلمود الخام تظهر الأسماء
عندما تظهر الأسماء على المرء أن يعرف أين يثبت
عندما تعرف أين تثبت، لن يصيبك ضُرٌّ
(٧٣) التاو يشق طريقه في العالَم
مثلما تشق الأنهار طريقها إلى البحر.

الفصل الثالث والثلاثون

(٧٤) في معرفة الآخرين ذكاء
في معرفة الذات بصيرة
في قهر الآخرين قدرة
في قهر النفس قوة
(٧٥) مَن يعرف الرضى غنيٌّ
مَن يثابر، هو رجل إرادة وهدف
مَن يحافظ على صلته بجذوره يَدُم
أن تموت من غير أن تفنى
ذلك هو الحضور الأبدي.

الفصل الرابع والثلاثون

(٧٦) التاو واسع يسري يمينًا ويسارًا وفي كل مكان
جموع المخلوقات تعتمد عليه في وجودها، ولا يدَّعي سلطانًا
يكمل عمله ولا يدَّعي فضلًا
يُطعم المخلوقات ويكسوها ولا يدَّعي امتلاكًا
(٧٦-أ) بلا رغبات، أبدًا، يمكن أن ندعوه الصغير
ولأنه لا يدَّعي سلطانًا عندما تدير الجموع وجهها إليه
يمكن أن ندعوه العظيم
(٧٦-ب) لأنه لا يحاول أن يجعل من نفسه عظيمًا
فقد أفلح في أن يكون عظيمًا.

الفصل الخامس والثلاثون

(٧٧) ثبِّت قلبك على الصورة العظمى
يأتِ العالم إليك
يأتِ الجميع إليك، والكل في سلامٍ ووفاقٍ
(٧٨) الطعام والموسيقى تجذبان المسافرين إلى التوقف
ولكن التاو في مروره عبر الفم لا طعم له
انظر إليه! لا ترَ شيئًا
أنصتْ إليه! لا تسمع صوتًا
ومع ذلك فإن النضح منه لا يُنضبه.

الفصل السادس والثلاثون

(٧٩) إذا أردتَ ضغط شيء
عليه أولًا أن يكون ممطوطًا
إذا أردتَ إضعاف شيء
عليه أولًا أن يكون قويًّا
إذا أردتَ حني شيء
عليه أولًا أن يكون منتصبًا
إذا أردت أن تأخذ من شيءٍ
عليه أولًا أن يكون مليئًا
(٧٩-أ) هذا ما يُدعى بالبصيرة الخافية
اللَّيِّن والضعيف، يقوى على القاسي والصلب
(٨٠) على السمكة ألا تغادر مسكنها في الأعماق
أسلحة الحاكم ينبغي ألا تظهر للعيان.

الفصل السابع والثلاثون

(٨١) التاو ليس من شيمته الفعل
ولكنه لا يترك أمرًا بحاجة إلى إتمام
إذا استطاع السادة والأمراء استيعاب ذلك
فإن جموع الناس ستنتظم من تلقاء ذاتها
فإذا ما انتظموا وعادت الرغبات مجددًا
فإني سأعمل على دفعها بالجلمود الخام، عديم الاسم
الجلمود الخام بلا اسم
هو الذي يحرِّر من الرغبات
إذا استطعت التحرُّر من الرغبات والبقاء ساكنًا
فإن المملكة ستعيش بسلامٍ من تلقاء ذاتها.

الفصل الثامن والثلاثون

(٨٢) رجل الفضيلة الكاملة لا يشعر بفضيلته
ولذا فإنه رجل فاضل
البعيد عن الفضيلة مشغول بها على الدوام
ولذا فإنه رجل غير فاضل
(٨٢-أ) رجل الفضيلة لا يفعل
ومع ذلك لا يترك أمرًا بحاجةٍ إلى إتمام
البعيد عن الفضيلة يفعل
ومع ذلك يترك أمورًا بحاجة إلى إتمام.
(٨٢-ب) رجل الخير يفعل ولكن دون دوافع خفية
رجل الاستقامة يفعل ولكن بدوافع خفية
رجل الشريعة يعمل وعندما لا يلقى استجابة
يُشمِّر أكمامه ويعمد إلى الإقناع بقوة
(٨٣) لذا، فعندما يُنسى التاو تظهر الفضيلة
وعندما تُنسى الفضيلة يظهر عمل الخير
وعندما يُنسى عمل الخير تظهر الاستقامة
وعندما تُنسى الاستقامة تظهر الشريعة.
(٨٤) الشريعة هي قشرة للإيمان وبداية الفوضى
لذا، فإن أصحاب العقل الراجح يبقون مع اللباب لا مع القشور.

الفصل التاسع والثلاثون

(٨٥) من القدم هذه الأشياء تنتمي إلى الواحد:
بفضل الواحد شفافية السماء
بفضل الواحد استقرار الأرض
بفضل الواحد قدرة الكائنات الإلهية
بفضل الواحد امتلاء الوادي
بفضل الواحد حياة الآلاف المؤلَّفة
بفضل الواحد سلطان السادة والأمراء
بفضل الواحد كل هؤلاء على ما هم عليه.
(٨٥–ب) بدون ما منحها الاستقرار، كانت الأرض تميد
بدون ما منحها القدرة، كانت الكائنات الإلهية تخور
بدون ما قيض لها الامتلاء، كانت الوديان تجف
بدون ما مدها بالحياة، كانت الآلاف المؤلَّفة تفنى
بدون ما وهبهم سلطانًا، كان السادة والأمراء يتهاوون.
(٨٦) من هنا، فإن قليل الشأن هو جذر عالي الشأن
والواطئ هو قاعدة العالي وأساسه.
(٨٦–ب) لذا يعتبر السادة والأمراء أنفسهم بمثابة
الأرامل واليتامى وعديمي الشأن
لأنهم يرتكزون على التواضع.
(٨٧) الصيت الذائع ليس ميزة
فابتعد عن القعقعة والضجيج.

الفصل الأربعون

(٨٨) بالعودة إلى الخلف يتحرك التاو
باللين ينجز عمله.
(٨٩) الآلاف المؤلَّفة في العالَم وُلدت من شيء
والشيء وُلد من لا شيء.

الفصل الحادي والأربعون

(٩٠) عندما يسمع التلميذ النجيب بالتاو
يعطيه كل دأبه واهتمامه
عندما يسمع التلميذ العادي بالتاو
يعطيه اهتمامه بين الحين والآخَر
عندما يسمع التلميذ الغبي بالتاو
يضحك بصوت عالٍ
إذا لم يكُن هناك ضحك
فإن التاو لن يكون ما هو عليه.
(٩١) من هنا يذهب القول إلى أن:
الطريق الواضح يبدو معتمًا
الطريق الذي يمتد إلى أمام يبدو ممتدًّا إلى الوراء
الطريق الممهد يبدو وعرًا
الفضيلة العُليا مثل الوادي
البياض الناصع يبدو داكنًا
الفضيلة الكاملة تبدو ناقصة
الفضيلة القوية تبدو متراخية
الفضيلة الصافية تبدو مُعكَّرة
البياض الناصع يبدو داكنًا
(٩١-أ) المربع الأمثل لا زوايا له
الإناء الأمثل لا يمتلئ

النغمة المثالية لا صوت لها
الصورة المثالية لا شكل لها
(٩٢) التاو يحجب نفسه لكونه بلا اسم
التاو وحده هو الظاهر في العطاء والإنجاز.

الفصل الثاني والأربعون

(٩٣) التاو أنجب واحدًا
الواحد أنجب الثاني
الثاني أنجب الثالث
الثلاثة أنجبت الآلاف المؤلَّفة.
(٩٤) الآلاف المؤلَّفة تحمل الـ «ين» على كتفها
وتعانق الـ «يانغ» بالذراعين
الآلاف المؤلَّفة ناتج تمازُج القوتَين
(٩٥) لا أحد يريد أن يكون بمثابة الأرملة واليتيم وعديم الشأن
ومع ذلك فإن الحكام والأمراء يستخدمون هذه الأوصاف إشارة إلى أنفسهم.
(٩٦) بالإضافة إليك تنقص
إذا ما نقصت تكسب
(٩٧) وإني لأقول مع مَن قال قديمًا:
من قَتَل بالسيف فبالسيف يُقتل
وإنها لسُّنَّة جوهرية.

الفصل الثالث والأربعون

(٩٨) ألْيَن الأشياء في العالم
يقوى على أقسى الأشياء في العالم
ما لا مادة له ينفذ إلى ما لا ثقوب له.
(٩٩) من هنا، جدوى أن لا تتدخل في مسار الأشياء
وأن تُعلَّم بدون كلمات.

الفصل الرابع والأربعون

(١٠٠) اسمك أم شخصك أيهما أعز؟
شخصك أم ممتلكاتك أيهما أثمن؟
الخسارة أم الربح أيهما أكثر إيلامًا؟
لهذا، فإن البخل باهظ التكاليف
والاكتناز يقود إلى الخسارة
اعرف القناعة والرضى
لا يخِبْ بك المسعى
اعرف متى تتوقف
لن يُصيبك ضرٌّ
وتسلم إلى آخِر أيامك.

الفصل الخامس والأربعون

(١٠١) عندما يبلغ الإنجاز كماله، يبدو ناقصًا
ومع ذلك فإن الاستعمال لا يبليه
عندما يصل الامتلاء تمامه يبدو فارغًا
ومع ذلك فإن النضح لا يُنضبه
الاستقامة التامة تبدو انحناءً
المهارة التامة تبدو خرقاء
الفصاحة الكاملة تبدو تلعثمًا.
(١٠٢) التحرك يقهر البرد
الهدوء يقهر الحر.
(١٠٣) رائقًا وساكنًا
باستطاعتك أن تقود مملكة.

الفصل السادس والأربعون

(١٠٤) عندما يكون التاو حاضرًا في المملكة
يقتصر عمل الخيل الرشيقة على حراثة الأرض،
عندما يُنسى التاو في المملكة
فإن خيول الحرب تُربى على الحدود.
(١٠٥) لا يوجد خطيئة تفوق امتلاك الرغبات.
لا يوجد نكبة تفوق عدم القناعة.
لا يوجد بلية تفوق اشتهاء ما ليس لك.
لذا، فبالقناعة تحصل دومًا على كفايتك.

الفصل السابع والأربعون

(١٠٦) من غير أن تسافر بعيدًا
تستطيع أن تعرف العالَم كله
من غير أن تنظر من النافذة
تستطيع أن ترى طريق السماء
كلما ابتعدت أكثر كلما قلَّت معرفتك
(١٠٧) ولذا فإن الحكيم يعرف دون أن يتحرَّك خطوة
يُميِّز دون حاجة إلى نظر
يُنجز دونما حاجة إلى فعل.

الفصل الثامن والأربعون

(١٠٨) في طلب العلم تعرف في كلِّ يومٍ أكثر
في طلب التاو تبذل في كل يوم أقل
تبذل أقل فأقل، حتى تصلَ حالة اللافعل
وعندما تصل حالة اللافعل
لا تجد أمرًا بحاجة إلى إتمام.
(١٠٩) بعدم التدخل تكسب المملكة
باللجوء إلى التدخل لست أهلًا لذلك.

الفصل التاسع والأربعون

(١١٠) عقل الحكيم وفِكره ليس شأنًا خاصًّا
لأنه مهتم على الدوام بما عداه.
(١١١) الصالحون من الناس أعاملهم كصالحين
والطالحون منهم أعاملهم كصالحين أيضًا
وبذلك أعمل على تعميم الصلاح
أثق بمَن هو أهل للثقة
كما أضع ثقتي فيمَن هو غير أهْل لها
وبذلك أعمل على تعميم الثقة
(١١٢) في حكم الناس لا ينير الحكيم العقول بل يُخدِّرها
الناس يتكئون على حواسهم
وهو يعاملهم جميعًا مثل الأطفال.

الفصل الخمسون

(١١٣) بين الحياة والموت
ثلاثة من عشرة يحيون عمرًا طويلًا
وثلاثة من عشرة يحيون عمرًا قصيرًا
وثلاثة من عشرة يتعلقون بالحياة
ولكنهم يفقدونها. لماذا؟
لأنهم يَسْعون إليها سعيًا حثيثًا.
(١١٣-أ) ولقد سمعت مَن يقول:
إن مَن يتقن فن الحياة
لا يواجهه كركدن أو نمر في سفَر
ولا يؤذيه سلاح في معركة
إذ لا موضع في جسده لمخلب الوحش
ولا موضع في جسده لطعنة سلاح
لماذا؟
لأنه يترك للموت مكانًا ينفذ منه.

الفصل الحادي والخمسون

(١١٤) التاو يهبهم الحياة
الـ «تي» ترعاهم
المادة تعطيهم الشكل
ومحيطهم ينشئهم
(١١٤-أ) لذا، فإن الآلاف المؤلَّفة تُجلُّ التاو وتوقِّر الـ «تي».
غير أن إجلال التاو وتوقير الـ «تي».
ليس فرضًا من قِبَل أية سلطة
ولكنه من طبيعة الأشياء.
(١١٥) التاو يهبهم الحياة ويرعاهم
ينشئهم حتى يبلغوا أشُدَّهم
يئويهم ويطعمهم.
(١١٦) يُعينهم ولا يقتضي عرفانًا
يدبِّر شئونهم ولا يدَّعي سلطانًا
هذا ما أدعوه بالـ «تي» الغامضة.

الفصل الثاني والخمسون

(١١٧) للعالم كانت بداية
هذه البداية هي أمُّ الأشياء
عندما تعرف الأم تتوصل إلى معرفة الابن
بعد أن تعرف الابن، عُد إلى الأم
وإلى آخِر أيامك لن يمسك ضرٌّ.
(١١٨) سُدَّ النوافذ
غلِّق الأبواب
وإلى آخِر أيامك لن تنضب
افتح النوافذ
شرَّع الأبواب
تزِد في متاعبك
وإلى آخِر أيامك لن تعرف الخلاص.
(١١٩) أن ترى الخافي، هذا ما يُدعى بصيرة
أن تجنح إلى اللِّين، هذا ما يُدعى قوة
استخدم الضوء الداخلي
ودع حُسن التمييز
تنجُ من الرزايا.
(١١٩-أ) هذا ما يُدعى بالحياة في الحقيقة.

الفصل الثالث والخمسون

(١٢٠) بالحد الأدنى من حُسن الإدراك
أسير على الطريق الرئيسي
ولا أخشى سوى الزوغان عنه
من السهل أن تسير على الطريق الرئيسي
ولكن الناس تُفضِّل الطُّرق الفرعية المتعرِّجة
(١٢١) لذا، فإن القصور مُزيَّنة وفارهة
بينما الأهراءات فارغة
والحقول مَلْأى بالأشواك
هناك مَن يخطر بالأزياء الأنيقة
من يتبختر والسيف إلى جنبه
مَن يأكل ويشرب بإفراط
مَن يكتنز ما يفيض عن حاجته
هؤلاء هم أسياد السرقة والنهب
(١٢٢) وما أبعدهم عن تيار التاو!

الفصل الرابع والخمسون

(١٢٢) ما يضرب جذوره عميقًا، لا يمكن اقتلاعه،
ما تقبض عليه بقوة، لا يفلت من يدك،
بهذه الطريقة يتم الحفاظ على الموروث من جيلٍ إلى جيل.
(١٢٣) حافِظ على التاو في شخصك، فتبقى فضيلته أصيلة.
حافِظ على التاو في القرية فتبقى فضيلته نامية دائمة.
حافِظ على التاو في الأمة فتبقى فضيلته زاخرة.
حافِظ على التاو في العالَم فتتخلل فضيلته كلَّ مكان،
(١٢٤) لذا، أنظرُ إلى الشخص من خلال الشخص.
أنظرُ إلى العائلة من خلال العائلة.
أنظرُ إلى القرية من خلال القرية.
أنظرُ إلى الأمة من خلال الأمة.
أنظرُ إلى المملكة من خلال المملكة.
(١٢٤-أ) كيف أعرف أن العالم على هذه الشاكلة؟
بواسطة هذا.

الفصل الخامس والخمسون

(١٢٥) مَن يحوز على الـ «تي» يغدو كالوليد الجديد.
الهوام الضارة لا تلسعه
الحيوانات الكاسرة لا تقفز نحوه
الطيور الجارحة لا تنقض عليه
عظامه طرية وعضلاته ليِّنة، ولكن قبضته قوية
لا يعرف اتحاد الذكر والأنثى، ولكن قضيبه ينتصب
لأن طاقته الحيوية في أوجها
يصرخ طيلة النهار من غير أن يُبَحَّ صوته
ذلك أنه في تناغم داخليٍّ.
(١٢٦) معرفة التناغم الداخلي هي البقاء في الحقيقة
البقاء في الحقيقة يعني الاستنارة.
(١٢٦-أ) اكتساب طاقة إضافية بطرقٍ مُصطنعة أدعوه نذير شر
الضبط المصطنع للتنفُّس أدعوه قسوة على العقل.
(١٢٧) فورة القوة يتلوها الوهن
وهذا لا يتماشى مع التاو
مَن يَسِرْ عكس تيار التاو
يأتِ إلى نهاية مبكرة.

الفصل السادس والخمسون

(١٢٨) الذي يعرف لا يتكلم
الذي يتكلم لا يعرف
(١٢٩) سُد النوافذ
غلِّق الأبواب
ثلِّم الحَد
خفِّف البريق
حُل العُقد
تمازج مع التراب.
(١٢٩-أ) هذا ما أدعوه بالتماثل مع التاو
(١٣٠) بعيد بلا مسافة، قريب بلا مسافة
لا تستطيع له ضرًّا ولا نفعًا
الإعلاء من شأنه لا يعليه
والخفض من شأنه لا يؤذيه
ولهذا هو مهوى أفئدة الجميع.

الفصل السابع والخمسون

(١٣١) احكم البلاد باتباع السكينة، وتقويم ذاتك
وأدِر الحرب بتحركاتٍ مفاجئةٍ سريعةٍ
واكسب المملكة بدون تدخل.
(١٣١-أ) كيف أعرف أن الأمر هكذا؟
من خلال هذا.
(١٣٢) كلما كثرت القيود في المملكة
كلما ازداد الناس فقرًا
كلما امتلك الناس أسلحة ماضية
كلما اضطربت أحوال البلاد
كلما ازدادت حِيَل الناس
كلما شاعت البدع والشرور
كلما كثرت القوانين والشرائع
كلما انتشر اللصوص وقُطَّاع الطرق
(١٣٣) لذا فإن الحكيم يقول:
لا أقوم بأيٍّ فعل، والناس يتغيرون من تلقاء ذاتهم.
أميل إلى حالة السكون، والناس ينصلحون من تلقاء ذاتهم.
ألزم عدم التدخل، والناس يزدهرون من تلقاء ذاتهم.
أتحرَّر من الرغبات، والناس يصيرون بسطاء كالجلمود الخام من تلقاء ذاتهم.

الفصل الثامن والخمسون

(١٣٤) عندما تكون الحكومة غافلة
يتَّسم الشعب بالبساطة
عندما تكون الحكومة يقظة
يتسم الشعب بالخبث.
(١٣٥) في قلب الكارثة يقبع حُسن الطالع
تحت حُسن الطالع تجثم الكارثة
مَن يعرف الحدود بين هذه
يصير الصدق إلى خداع
وتصير الطيبة إلى مكر
والناس متحيرون في هذا طويلًا
(١٣٦) لذا فإن الحكيم حادٌّ ولكنه لا يقطع
ثاقبٌ ولكنه لا ينفُذ
متسع ولكنه لا يتعدى
يلمع ولكنه لا يُبهر.

الفصل التاسع والخمسون

(١٣٧) في حكم الناس وخدمة السماء
على الحكيم أن يتبع نكران الذات
عندما يتبع نكران الذات يعود إلى طبيعته الأصلية
عندها يكتسب مزيدًا من الـ «تي».
عندما يكتسب مزيد من الـ «تي».
يغدو قادرًا على تحقيق أي أمر
يصير أمام الآخَرين بلا حدود
عندما يصير أمام الآخَرين بلا حدود
يستطيع حيازة الدولة
عندما يحوز على ناصية الدولة
يدوم حُكمه طويلًا
يضرب جذوره ويُرسي أساساته
وهذا طريق الحياة المديدة والحكمة الدائمة.
(١٣٨) حكم دولة كبيرة يُشبه طبخ سمكة صغيرة.

الفصل الستون

(١٣٩) عندما تحكم المملكة وفق التاو
يفقد الشر سلطانه
أن يفقد الشر سلطانه لا يعني أنه قد فَقَد قوَّته
ولكن قوة الشر لا تُستخدم لإيذاء الناس
وكما أن المتمتعين بالقوة لا يستخدمونها لإيذاء الناس
كذلك الحاكم أيضًا
وكذلك كل واحد آخَر
وعندها يعزو كل شخص الفضل للآخَر.

الفصل الحادي والستون

(١٤٠) على الدولة الكبيرة أن تكون مثل سرير النهر
حيث تلتقي كل مياه الأرض
(١٤١) إنها للبقية مثل المرأة
عندما تلجأ المرأة إلى السكون تتخذ الوضعية السفلى.
(١٤٢) لذا، فإن الدولة الكبيرة عندما تتخذ الوضعية السفلى
تكسب الدولة الصغيرة
والدولة الصغيرة عندما تتخذ الوضعية السفلى
تكسب بانتمائها إلى الدولة الكبيرة.
(١٤٢-أ) وهكذا، فإن مَن يتواضع أمام الآخَر يتفوَّق عليه
مَن يتخذ الوضعية السُّفلى أمام الآخَر يتفوق عليه
إن ما تهدف إليه الدولة الكبيرة
هو احتضان الجميع ورعايتهم
إن ما تصبو إليه الدولة الصغيرة
هو مشاركة الآخَرين والعمل معهم
وبهذه الطريقة يحصل كلٌّ على ما يرغب ويصبو
ولكن على الدولة الكبيرة أن تُبدي تواضعها أولًا.

الفصل الثاني والستون

(١٤٣) التاو كامن في صميم الأشياء كلها
الصالحون يقدِّرونه ويوقِّرونه
والطالحون يتلقون حمايته ورعايته.
(١٤٤) الكلمات الطيبة ترفع صاحبها إلى مقامٍ رفيعٍ
الأعمال الحسنة تُكسب صاحبها الاحترام.
(١٤٥) لا تُدِر وجهك عن الطالح رغم سوئه.
(١٤٦) لذا، ففي يوم التتويج وتعيين الوزراء الثلاثة
لا ترسل هدايا ثمينة من الحجر الكريم
أحسن هدية تقدمها هي التاو.
(١٤٦-أ) منذ القِدَم والتاو في موضع تقدير
لأن الناس يجدونه عندما يريدونه
فإذا وجدوه تحللوا من خطاياهم
لذا فإنه أثمن كنوز العالم.

الفصل الثالث والستون

(١٤٧) ليكن فعلك من خلال اللافعل
ونشاطك من خلال عدم التدخُّل
تذوق ما لا طعم له.
(١٤٨) اجعل الصغير كبيرًا
اجعل القليل كثيرًا
قابل السيئة بالحسنة.
(١٤٩) تأمَّل الصعب من خلال السهل
باشِر العمل الكبير من خلال العمل الصغير
إن أصعب المهام في العالم تبدأ بالخطوات السهلة
وأكبر الأشياء لا بد أن يبدأ بأصغرها.
(١٥٠) لذا، فإن الحكيم يُنجز ما هو عظيم
لأنه لا يباشر العمل بما هو صعب.
(١٥١) كلما استسهلت بذل الوعود
صعُب عليك الوفاء بها
كلما وجدت الصعب يسيرًا
شقَّ عليك تحقيقه.
(١٥١-أ) من هنا، يرى الحكيم في الصعب صعوبة
ولذا لا يصعب عليه أمر عسير.

الفصل الرابع والستون

(١٥٢) من السهل أن تحافظ على وضع لم ينفجر بعد
من السهل أن تتعامل مع وضع لم تظهر فيه أعراض الخلل
من السهل أن تخرب ما هو في طور التشكل
من السهل أن تُبعثِر ما هو صغير ودقيق.
(١٥٢-أ) تعاملْ مع الأمور قبل وقوعها
واضبط الأمور قبل أن يدب فيها الاضطراب.
(١٥٣) إن الشجرة العملاقة قد نشأت عن سُويَقة
ومدرج من الأرض بتسع مساكب قد ابتدأ من قبضة تراب
ورحلة ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.
(١٥٤) (المملكة وعاء مقدَّس).
مَن يحاول مسها بالتعديل يجعلها خرابًا
مَن يُحكم قبضته عليها يخسرها.
(١٥٤-أ) من هنا، فإن الحكيم لا يُفسد شيئًا لأنه لا يتدخل
لا يخسر شيئًا لأنه لا يُحكم قبضته على شيءٍ.
(١٥٥) في تحقيق الأمور غالبًا ما يأتي الإخفاق قاب
قوسين أو أدنى من تحقيق النجاح
لذا، كن حريصًا في النهاية كحرصك في البداية
عندها لا تخفق في تحقيق أهدافك.
(١٥٦) من هنا، فإن الحكيم يرغب في ألَّا يرغب
لا يُقدر النفائس

يتعلَّم ما لا يُتعلَّم
يتجنب أخطاء الآخَرين ويُصلحهم
إنه في تناغم مع طبيعة الآلاف المؤلَّفة
ولكنه لا يتدخل بشئونها.

الفصل الخامس والستون

(١٥٧) العارفون بالتاو في الماضي
لم يحاولوا تنوير الناس بل إبقاءهم في جهل.
(١٥٧-أ) لماذا يصعب حكم الناس؟
لأنهم على جانب كبير من الذكاء
لذا، فإن حكم الدولة باستخدام الذكاء
يُنزل بالدولة الضرر
عدم استخدام الذكاء في حكم الدولة
يملأ الدولة نعمة.
(١٥٧-ب) هذان هما نموذجان وخياران
إنْ تفهمهما تُحرز الـ «تي» الخفية
الـ «تي» الخفية عميقة وبعيدة الغور
إنها تقود إلى التناسق التام مع التاو.

الفصل السادس والستون

(١٥٩) يغدو النهر ملكًا على مئات الجداول
لأنه أوطأ منها منسوبًا
(١٦٠) لذا مَن أراد أن يحكم أمة
عليه أن يتضع أمامها
ومَن أراد أن يقود شعبًا
عليه أن يسير وراءه أولًا.
(١٦١) إذا اعتلى الحكيم قمة السلطة
لا يشعر بسلطته أحد
وإذا سار في مقدمة الركب
لا يشعر بوجوده أحد
ولهذا يعطيه الناس ولاءهم عن طِيب خاطر
(١٦٢) لأنه لا ينافس أحدًا
لا يقدرُ أحدٌ في المملكة على منافسته.

الفصل السابع والستون

(١٦٣) التاو واسع بلا حدود
ليس كمثله شيء
لأنه بلا حدود لا يماثله شيء
لو ماثَله شيء لغدا صغيرًا منذ أمد طويل.
(١٦٤) عندي ثلاثة كنوز أحرص عليها
الكنز الأول هو الرحمة
الكنز الثاني هو نكران الذات
الكنز الثالث هو العزوف عن صدارة الناس
الرحمة تقودك إلى الشجاعة
نكران الذات يقودك إلى توسيع حدود ذاتك
العزوف عن صدارة الناس يضع قيادهم بين يديك.
(١٦٤-أ) الشجاعة بدون الرحمة
توسيع حدود الذات بدون نكران الذات
النزوع إلى الصدارة بدون تواضع
جميعها تقود إلى الهلاك.
(١٦٥) الرحمة تهبك النصر في الهجوم
وتحميك في حال الدفاع عن النفس
إنها الوسيلة التي تبسط السماء رعايتها عليك.

الفصل الثامن والستون

(١٦٦) المقاتل الصنديد لا يظهر عنفًا
والمجلي في المعارك ليس غضوبًا
والمنتصر على عدوه ليس منتقمًا
والبارع في القيادة يُظهر تواضعًا.
(١٦٦-أ) هذا ما يُدعى بفضيلة اللاجهد
هذا ما يُدعى بالإفادة من قوة الطرف الآخَر
هذا ما يدعى بالتماثل مع السماء.

الفصل التاسع والستون

(١٦٧) في العمليات العسكرية هنالك رأي يقول:
لا أجرؤ على لعب دور المضيف، بل ألزم دور الضيف
لا أجرؤ على التقدُّم قيد أنملة، بل أتراجع مسافة قدم
(١٦٨) هذا ما يُدعى بالتقدم نحو الأمام، دون حركة باتجاه الأمام
هذا ما يُدعى بتشمير الأكمام دون إظهار السَّاعدَين
وبالإيقاع بالخصم دون هجوم
بحمل السلاح دون إظهار السلاح.
(١٦٩) التهوين من شأن الخصم يقود إلى كارثة
بالتهوين من شأن الخصم أخسر كنوزي الثلاثة
عندما يرفع الطرفان السلاح في وجه بعضهما
الطرف الرابح هو الذي يدخل الحرب بأسًى وحزن.

الفصل السبعون

(١٧٠) كلماتي سهلة الفهم والتطبيق
ومع ذلك لا أحد يفهمها أو يعمل بها.
(١٧١) كلماتي تأتي من نبع الكلمات
وأفعالي تصدر عن أصول ومرجعيات
لأن الناس لا يعرفون هذا
فإنهم لا يفهمونني.
(١٧٢) كلما قلَّت معرفة الناس بي
زادت قيمتي
(١٧٢-أ) من هنا، فإن الحكيم يلبس الثوب الخشن
ويستر تحته حجرًا كريمًا.

الفصل الحادي والسبعون

(١٧٣) من الأفضل أن تعرف أنك لا تعرف
عندما لا تعرف وتظن أنك تعرف
تواجهك المصاعب.
(١٧٣-أ) عندما تكون واعيًا لعيوبك تتخلص منها
الحكيم بلا عيوب لأنه واعٍ بها.

الفصل الثاني والسبعون

(١٧٤) عندما يفقد الناس الخوف من أيِّ شيءٍ
فبأي شيء تخيفهم؟
(١٧٥) لا تضيِّق عليهم في مساكنهم
لا تقطع أسباب رزقهم
عندها لا يشعرون بوطأتك، لا يتذمرون من حُكمك
(١٧٦) لذا، فإن الحكيم يعرف نفسه ولكنه لا يُظهرها
يصقل نفسه ولكنه لا يعلي من شأنها
إنه يترك هذا ويأخذ بذاك.

الفصل الثالث والسبعون

(١٧٧) الشجاعة مع التهور تقود إلى الهلاك
الشجاعة مع التأني تقود إلى السلامة
في الخيار بين الطريقين، واحد يكسب والآخَر يخسر.
(١٧٨) هناك أشياء ينفر منها طريق السماء
ولا أحد يعرف لماذا، حتى الحكيم.
(١٧٩) عندما تتبع طريق السماء
فإنك تربح دون نضالٍ
تحصل على ما تريد دون سؤالٍ
تحقق النجاح دون طلبه
(١٧٩-أ) شبكة السماء تمتد في كل اتجاه
وهي رغم اتساع ثقوبها لا ينفذ منها شيء.

الفصل الرابع والسبعون

(١٨٠) عندما يفقد الناس خوفهم من الموت
لماذا تهدِّدهم بالموت
ولكن عندما يكون خوف الموت متمكنًا منهم
تستطيع إعدام المجرم وقطع دابر الجريمة.
(١٨٠-أ) في الحياة هنالك دومًا مسئول عن موت الإنسان
فاذا أخذنا على عاتقنا مسئولية القتل
نكون كمَن يأخذ عن الحطَّاب مسئولية قطع الشجر
عندما نأخذ عن الحطَّاب مسئولية قطع الخشب
لا نملك إلا أن نؤذي أيدينا.

الفصل الخامس والسبعون

(١٨١) عندما لا يجد الناس ما يأكلونه
فلأن حُكَّامهم قد فرضوا عليهم ضرائب باهظة
عندما يجد الحُكَّام صعوبة في حكم الناس
فلأن هؤلاء الحُكَّام يتدخلون كثيرًا في أمورهم
عندما لا يحرص الناس كثيرًا على أرواحهم
فلأن حكامهم يعيشون في لهوٍ وإفراطٍ.
(١٨٢) عندما لا يجعل المرء من حياته بؤرة تفكيره
يعرف كيف يصون حياة الآخَرين.

الفصل السادس والسبعون

(١٨٢) الجسد الحي رقيق وليِّن
وكذلك العشب والشجر النامي
الجسد الميت صلب وقاسٍ
وكذلك العشب الذاوي والشجر اليابس
ذلك أن القسوة والصلابة من علائم الموت
واللِّين والرقة من علائم الحياة.
(١٨٣) من هنا، فسلاح القوة لا ينفع
والشجر اليابس الذي لا ينحني ينكسر بسهولة
القوي والضخم يقع تحت اللَّيِّن والرقيق
اللَّيِّن والرقيق يعلو على القوي والضخم.

الفصل السابع والسبعون

(١٨٤) طريق السماء يفعل مثلما توتُّر القوس
الجزء الأعلى ينضغط نحو الأسفل
الجزء الأسفل يرتفع نحو الأعلى
يُؤخذ من الزائد ليُعطى إلى الناقص
طريق السماء يأخذ من الزائد ليعطي الناقص
أمَّا طريق الناس فيعطي الزائد ويأخذ من الناقص
(١٨٥) مَن يعطي ما يزيد عليه لكل الناس؟
إنه رجل التاو.
(١٨٥-أ) من هنا، فإن الحكيم يعينهم ولا يقتضي عرفانًا
يُكمل عمله ولا يدَّعي فضلًا
(١٨٦) يبقى فضله مستورًا.

الفصل الثامن والسبعون

(١٨٦) لا يوجد في العالم أرقُّ وألْيَن من الماء
ومع ذلك فإنه الأقدر على مواجهة القوي والصلب
هذه حقيقة ناصعة لا يمكن تغييرها.
(١٨٧) كلنا يعرف أن الضعيف يتفوق على القوي
واللَّيِّن يقوى على الصلب
ولكننا لا نضع هذه المعرفة موضع التطبيق.
(١٨٨) لذا فإن الحكيم يقول:
مَن يقدر على تحَمُّل اللوم في سبيل الناس
مؤهَّل لحكم الناس
مَن يقدر على تحمل مسئولية كوارث البلاد
مؤهَّل لقيادة المملكة
(١٨٩) الكلمات الصادقة تبدو متناقضة.

الفصل التاسع والسبعون

(١٩٠) عندما تتم المصالحة بين خصمين كبيرين
يبقى شيء من العداوة بين الطرفين
ما الذي يمكن فعله إزاء ذلك؟
(١٩١) لذا فإن الحكيم يلتزم نصيبه من الاتفاق
دون أن ينتظر التزام الطرف الآخر بنصيبه
رجل الـ «تي» يفي بالتزامه
أمَّا مَن يُدير ظهره لـ «التِّي» فيطلب من الآخرين ذلك.
(١٩٢) طريق السماء حيادي
ولكنه يبقى إلى جانب الشخص الطيب.

الفصل الثمانون

(١٩٣) هنالك دولة صغيرة، قليلة السكان
لديهم أدوات تُسهِّل أعمالهم ولكنهم لا يستخدمونها
يخشون على حياتهم فلا يرتحلون بعيدًا.
(١٩٣-أ) لديهم عربات وقوارب ولكنهم لا يركبونها
في حوزتهم أسلحة ماضية ولكنهم لا يحملونها.
(١٩٣-ب) يعيشون في تلك الأيام الماضية
عندما كان العَدُّ والحساب باستخدام عُقَد الحبل
يستمتعون بالطيبات ويَهنئُون باللباس
يسعدون في مساكنهم ويرضون بعاداتهم وتقاليدهم.
(١٩٣-ج) ورغم أن الدولة المجاورة تقع على مَرمَى البصر
وتُسمع من ناحيتها أصوات الكلاب والديكة
فإن أهل هذه الدولة يقضون حياتهم دون اتصال مع الغير.

الفصل الحادي والثمانون

(١٩٤) كلمة الصدق ليست جميلة
الكلمة الجميلة ليست صادقة
الكلمة المزخرفة غير مقنعة
الكلمة المقنعة غير مزخرفة.
(١٩٤-أ) لكي تعرف لا تحتاج إلى تعلُّم ودراسة
التعلُّم والدراسة يُبعدانك عن المعرفة.
(١٩٥) الحكيم لا يكتنز شيئًا
وكلما أكثر من عطائه للآخَرين
زادت وفرته
ورغم أنه بذل كل ما لديه
يبقى غنيًّا.
(١٩٦) إذا اتبعت طريق السماء
تبذل الحسنة لا السيئة
إذا اتبعت طريق السماء
تبذل العمل ولا تقتضي عرفانًا.

تاو تي تشينغ

شرح وتعليق

الفصل الأول

(١) في الفصل ٦٧ من تاو تي تشينغ يصف لاو تسو التاو بأنه «ليس كمثله شيء». وفي الفصل ١٤ يقول بأنه وراء الشكل والصوت والمادة، ومعنى ذلك أنه لا ينتمي إلى عالم الظواهر رغم حضوره فيه، من هنا فإن اللغة التي نستخدمها لترميز المستوى الظاهر للوجود من أجل التعامل معه ذهنيًّا لغرض استيعابه وممارسة فعالياتنا فيه، لا تصلح لترميز المستوى الخافي للوجود ولا تفيدنا في استيعابه ذهنيًّا. وأول ما يجب استبعاده من عالم الكلمات في مواجهتنا مع المبدأ الكلي هو الأسماء، فالأسماء دلالة على أشياء وما هو وراء الأشياء لا يمكن أن يحمل اسمًا.

فالأسماء تدل على أشياء ذات وجود مادي، وكل ما في عالم الظواهر المُدركة له اسمٌ أو يمكن أن يُطلق عليه الاسم. أمَّا المبدأ الكلي فهو بدون اسم لأنه ينتمي إلى مستوى آخَر للوجود لا إلى عالم الظواهر المادية، وبالتالي فهو عدَمٌ بالنسبة إليها، ولكنه ليس عدمًا مطلقًا؛ لأنه يحتوي في صميمه على كل الموجودات ولكن في حال الكمون، أو حال الوجود بالقوة (بالمصطلح الفلسفي). فإذا انتقلت هذه الموجودات من حال الكمون إلى حال الظهور والتحقُّق، صارت موجودةً بالفعل بعد أن كانت موجودة بالقوة، فهي والحالة هذه نتاج العدم الخلَّاق وتبديات متجذرة فيه. من هنا يقول المعلم في هذا الفصل الافتتاحي:

التاو الذي يمكن التحدث عنه
ليس التاو السرمدي
والاسم الذي يمكن إطلاقه
ليس الاسم السرمدي.

ثم يقول في الفصل ٢٥:

لا أعرف له اسمًا

فأدعوه بالتاو
لا أعرف له وصفًا
فأقول العظيم.

فمصطلح التاو ليس اسمًا كبقية الأسماء؛ لأنه لا يدل على كينونة محدَّدة بل على حالة وجود، والكلمة في اللغة الصينية تعني الطريق، ولكن لاو تسو لا يرى في الطريق ذلك الدرب الذي يصل بين مكانين، وإنما الطريقة التي ينشط بها المبدأ الكلي باعتباره الثابت الذي تنشأ عنه كل حركة، فالطريق لا ينتقل من مكان إلى آخَر ولكنه يقود الأشياء في حركتها، انظر إلى الدروب الجوية التي تسير عليها الطائرات الحديثة لا تجد لها أثرًا في السماء، ومع ذلك فلا حركة للطائرات بدونها، أو انظر إلى الدروب التي تتبعها أسراب الطيور المهاجرة لا ترى فيها أثرًا لأجنحة الطيور، ومع ذلك فإن كل نوع منها يعرف طريقه بين موطنيه.
(٢) فإذا شئنا استخدام الاسم تاو، لا نكون قد أطلقنا الاسم على المبدأ الكلي في حالته الكمونية قبل صدور الموجودات عنه، بل على المبدأ بعد إنتاجه للموجودات. في الحالة الأولى يرمز الفكر الصيني إلى المبدأ الكلي بدائرة فارغة، وفي الحالة الثانية يرمز إليه بدائرة اليانغ ين، ففي البدء صدرت الحركة عن المطلق العظيم فأنتجت اليانغ أو القوة الموجبة، وعندما وصلت الحركة منتهاها انقلبت إلى سكون أنتج اليِنْ. وبهذه الطريقة أنتجت الحركة والسكون بعضهما بعضًا ودارا على بعضهما فأنتجا العناصر الخمسة، ومن العناصر الخمسة نتجت الآلاف المؤلَّفة من مظاهر الطبيعة، فالدائرة الفارغة تبقى بلا اسم، ودائرة اليانغ ين نطلق عليها الاسم، وهذا معنى قوله:

اللامُسمى هو السابق على السماء والأرض
المُسمى هو أم الآلاف المؤلَّفة.

(٣) الأسرار والتجليات هما وجها التاو. الجوهر والمظهر متطابقان في الحقيقة مستقلان في الظاهر، ولا يدرك تطابق المظهر والجوهر عند الأعماق التحتية للخبرة الوجودية إلا أهل السر وأصحاب الكشف الروحي، عندما تصل إلى هذا المقام تنفتح أمامك بوابة كل الأسرار، وتدرك الوحدة الكامنة خلف الكثرة والثبات الذي يقوم عليه كل تغير. وهذا معنى قوله:

الأسرار والتجليات أمران سيَّان في المنشأ
ولكنهما لا يستويان بالاسم عند صدورهما

استواؤهما أدعوه ظُلمة وخفاءً
ظلمات وراءها ظلمات بوابة كل الأسرار

ولدينا قصة صينية عن وحدة الجوهر والمظهر تُروَى عن الحكيم فا تسانغ من القرن السابع الميلادي، فقد كان الحكيم يُعلم في القصر الملكي حول مسألة وحدة المظهر والجوهر، عندما استنفذ كل شروحاته النظرية وأحسَّ بحاجته إلى مثال حسي يُرسِّخ المقولة في أذهان سامعيه، نظر حوله فرأى تمثالًا من ذهب خالص لأسد رابض، أشار الحكيم إلى التمثال قائلًا: انظروا إلى هذا، إن الذهب فيه يُمثِّل الحقيقة والجوهر، أمَّا الأسد فيُمثِّل الشكل والمظهر، الحقيقة في حدِّ ذاتها بلا شكل، ولكنها تتخذ أي شكل وفقًا للظروف والأحوال، وكذلك الذهب الذي ترونه أمامكم، إنه بلا شكل في طبيعته ولكنه اتخذ هنا من الأسد له شكلًا. ومن ناحية أخرى، فإن الأسد هو مجرد شكل أو مظهر للذهب ولا يتمتَّع بحقيقة مستقلة عنه. عندما نرى الأسد يغيب الذهب عن ناظرنا، وعندما نرى الذهب فإن الأسد يتلاشى من أمامنا. والأمر هو أن ما نراه هنا هو ذهب وأسد في الآن نفسه.[١]

وبتعبير آخَر، عندما تنفتح العين الداخلية على الحقيقة في تجربة كلانية مباشرة، فإن ازدواجية المظهر والجوهر تذوب لتحل محلها وحدة طرفي الوجود على تمايزهما في الوعي اليومي، وقد عبَّر المتصوف الإسلامي الشيخ عبد الكريم الجيلي عن مفهوم وحدة المظهر والجوهر بطريقة مشابهة رغم استخدامه لمصطلحات مختلفة عندما قال:

«فأول رحمة رحم بها الله الموجودات أنه أوجدَ العالَم من نفسه، ولهذا سرى ظهوره في الموجودات جميعًا، فظهر كماله في كلِّ جزءٍ وكل فرد من أفراد العالم، ولم يتعدَّد بتعدُّد مظاهره، بل هو واحد في جميع تلك المظاهر، أحد على ما تقتضيه ذاته الكريمة في نفسها .. وسر هذا السريان أنَّ الله خلق العالم مِن نفسه وهو لا يتجزَّأ، فكل شيءٍ من العالَم هو بكماله، واسم الخليقة على ذلك الشيء مُعار ... فأعار الله حقائقه اسم الخليقة لتظهر بذلك أسرار الألوهية ومقتضياتها من التضاد، فكان الحق هيولى العالم، فمثل العالم مثل الثلج والحق سبحانه وتعالى الماء الذي هو أصل الثلج، فاسم الثلجة على ذلك المُنعقد مُعار واسم المائية عليه حقيقة».[٢]

---

[١] Chang Chung-yuan, Creativity and Taoism, p. 10.

[٢] الشيخ عبد الكريم الجيلي: الإنسان الكامل، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٠ ص٤٦.

الفصل الثاني

(٤) يتخذ مفهوم الأقطاب مركز البؤرة في الفكر الصيني منذ أقدم العصور، ويشترك في ذلك كل مَن فكر كتاب التغيرات والفكر التاوي والفكر الكونفوشي، وكذلك الفكر البوذي، إن استقرار الكون وتوازنه هو محصلة لتقابل الأقطاب وتعاونها على كلِّ صعيدٍ، وهذا التعاون هو ما يميز مفهوم الأقطاب في الفكر الشرق أقصوي عن مفهوم الأضداد في الفكر الشرق أوسطي والفكر الغربي، فالأضداد تقف في مجابهة أبدية حيث النور يُكافح الظلام والخير يكافح الشر والصحة تكافح المرض والحياة تكافح الموت ... إلخ. أمَّا الأقطاب فلا تتصارع من أجل سيادة أحدها على نقيضه؛ لأنه لا قيام لأي قطبٍ دون ذلك النقيض، ولأن زوال النقيض يعني زوال القطب الساعي إلى البقاء بلا نقيض؛ فلا قيام للصحة بدون مرض ولا للنور بدون ظلام ولا للحياة بدون موتٍ ولا للخير بدون شرٍّ، وهذا معنى قول المعلم:

> يرى الجميع في الجميل جمالًا لأن ثمَّة قبحًا
> يرى الجميع في القبيح قباحة لأن ثمَّة جمالًا

(٥) إن المفهوم الصيني للأقطاب يراها في توازنها وتعاونها؛ فالوجود ينجم عن العدم والعدم لا معنى له بدون الوجود، الطويل يوازن القصير والمنخفض يسند العالي، البَعد يتبع القَبل ولكن القَبل لا معنى له بدون البَعد. هذه الأقطاب وغيرها تعمل على إظهار بعضها بعضًا، وما على الإنسان إلَّا أنْ يدرك قطبية الوجود ويعمل على التوافق معها.

(٦) يتوافق الإنسان مع الطبيعة من خلال ما يدعوه لاو تسو بـ «اللافعل» و«عدم التدخل في مسار الأشياء». ففنُّ الحياة هو أشبه بفن الملاحة لا بفنِّ القتال، ففي الملاحة يُدير الرُّبان شراعَه إلى الريح ويوجه معرفته للإفادة منها لا لمقاومتها، وبذلك يغدو فعله

جزءًا من النظام الطبيعي للأشياء لا مستقلًّا عنها ولا معارضًا لها، من هنا فإن تعبير اللافعل الذي يتردَّد كثيرًا عند لا تسو لا يحمل معنى سلبيًّا كما يتصوَّر البعض للوهلة الأولى، بل هو دعوة إلى الإيجابية الوحيدة الحقيقية التي بدأنا الآن فقط في إدراكها، إيجابية التناغم مع حركة الكون وترك المُثل، التي غدت اليوم بالية، عن قهر الطبيعة وتسخيرها.

هذا الموقف التاوي من الطبيعة لا يتضمن رفضًا للتكنولوجيا ولتقنيات الإفادة من الطبيعة، بل يدعو إلى نوع من التكنولوجيا ذات الطابع الإنساني الذي يُبقي على صلة الإنسان بمحيطه وبيئته، ولعل في القصة الآتية التي يرويها تشوانغ تزو تلميذ المعلم الأول، ما يُلقي ضوءًا على هذه المسألة:

> «بعد أن أنهى نجار البلاط المدعو تشيينغ منصبًا خشبيًّا لتعليق الأدوات الموسيقية، أعجب أهل البلاط بالقطعة الفنية ورأوا فيها ما يشبه الإعجاز، فسأل الأمير لو النجار تشيينغ: أي سر وراء صنعتك الفنية هذه؟ فأجاب النجار: ما من سر هناك يا مولاي، الأمر عندي يجري على النحو الآتي: عندما أتهيَّأ لصنع قطعة جديدة مثل هذه، أحرص أولًا على تجميع كل قواي الحيوية فأبدأ بتفريغ ذهني حتى أصل حالة السكون التام. بعد ثلاثة أيام وأنا في هذه الحالة أغدو غافلًا عن أي عطاءٍ يأتيني من عملي، بعد خمسة أيام أغدو غافلًا عن أيِّ ثناءٍ يأتيني من عملي، بعد سبعة أيام أفقد السيطرة الواعية على أطرافي وجسدي، عند ذلك يغيب البلاط عن ذهني كليًّا وتتلاشى منه كل العناصر المشوشة الخارجية، فأشعر بأن مهارتي قد صارت مشحوذة ومهيَّأة، عند ذلك أدخل إلى الغابة وأبحث عن شجرة ملائمة أرى فيها الشكل الذي صوَّرته عينُ عقلي، ثم أبدأ العمل تاركًا إمكانياتي التلقائية تتعامل مع الخشب، إن ما يراه البعض شيئًا خارقًا في عملي ليس إلَّا هذا».[١]

إن اللافعل بالمفهوم التاوي هو موقف من الحياة مثلما هو سلوك أيضًا، وهو يعتمد على إدراك مبادئ وطريقة سير الأمور على مستوى الطبيعة، من أجل التعامل معها بأقلِّ جهد ممكن ومن غير قسر أو إكراه، والتاوي في ذلك لا يستخدم ذكاءه التحليلي وحساباته

[١] Chuang Tzu, Works, ch. 19, Allan Watts, Tao: The Watercourse Way Penguin 1975, p. 111.

المنطقية، بقدر ما يستخدم ذكاءه الباطني غير الواعي المنبث في كامل عضوية الإنسان وجهازه العصبي، إنه مثل لاعب الجيدو الذي يستخدم قوة الخصم ضده ويحول اندفاعه الهجومي إلى سقوط، وهو لا يستخدم قوته إلا عندما يختل توازن الخصم أو يصل إلى حدِّ الإجهاد، وحتى في هذه الحالة فإنه لا يستخدم إلا الحد الأدنى من الجهد.

يقول العلَّامة جوزيف نيدهام، وهو أعظم دارس أوروبي للفكر الصيني القديم، في كتابه: العلم والحضارة في الصين، بأن التاوية قد قدَّمت للعلم الصيني أكثر بكثير مما قدَّمته الكونفوشية، فبينما كان الكونفوشيون يدسُّون أنوفهم في الكتب على الدوام ويحرصون على اتباع القواعد واللوائح، كان التاويون يراقبون الطبيعة. لقد حفلت أدبيات التاوية بالملاحظات والتعليقات الغزيرة بخصوص النباتات والمياه والرياح وسلوك الحيوانات والحشرات، في الوقت الذي اقتصرت فيه الأدبيات الكونفوشية على المسائل السياسية والاجتماعية، ثم يذهب نيدهام إلى حدِّ القول بأن الصوفية التاوية والنزعة التجريبية يسيران يدًا بيدٍ، على عكس السكولائية المدرسية الكونفوشية؛ لأن ما يهم الصوفي بالدرجة الأولى ليس الاعتقاد بالمبادئ التي قرر الآخَرون صحتها بل تحصيل الخبرة المباشرة الحقة. أمَّا السكولائي المدرسي، كونفوشيًّا كان أم لاهوتيًّا من العصور الوسطى الأوروبية، فإنه يعزف عن النظر من خلال تلسكوب غاليلو لأنه يعرف كل شيء عن السماء من خلال النصوص التي درسها واعتقد بها.[٢] وهذا ما يقودنا إلى نقطة أخرى جوهرية في حكمة لاو تسو وهي التعليم بدون كلمات.

يقول تشوانغ تزو، تلميذ المعلم:

> «مَن يتصدَّى للإجابة عن سؤال حول التاو لا يفهم التاو، إذ ما من تساؤل ممكن حول التاو، وما من أجوبة، إنَّ طرح أسئلة لا يمكن الإجابة عنها حماقة، وفي الإجابة عن أسئلة لا جواب لها فقدان للمعرفة الداخلية، إن الحمقى وفاقدي المعرفة الداخلية لم يلحظوا قط صيرورة الكون وكيفية عمله، ولم يعرفوا البدايات العظمى، ليس بمقدورهم اجتياز الجبل المقدس كون لون والتحليق بعيدًا نحو الفراغ العظيم، أو العدم … التاو يُعرف بدون مفاهيم، بدون تفكر

[٢] Josph Needham, Science and Civilization in China. Cambridge 1974, vol. 2. pp 89–98.

عقلي، يمكن مقاربته بالمكوث في اللاشيء (العدم، الفراغ) باتباع لا شيء، بطلب لا شيء ... الحكيم يعلم مبدأ لا يجد تعبيرًا عنه بالكلمات.» [٣]

هذا النوع من التعليم بدون كلمات، يعتمد على دفع المُريد إلى معرفة الحقائق عن طريق التأمل الباطني والخبرة الروحية المباشرة، بعيدًا عن التلقين المباشر ودراسة المفاهيم والمبادئ النظرية، يقول تشوانغ تزو:

«الشبكة تُستخدم للإمساك بالسمك، خُذ السمك وانسَ الشبكة، الفخ يُستخدم للإمساك بالأرانب البرية، خذ الأرانب البرية وانسَ الفخ، الكلمات تُستخدم لنقل الأفكار، عندما تستوعب الأفكار انسَ الكلمات، كم من الممتع التحدث إلى شخص نسي الكلمات». [٤]

(٦-أ) والحكيم في ممارسته للافعل وعدم تدخله في مسار الأشياء، إنما يماثل حركة التاو التلقائية، فالتاو لا يبذل جهدًا في تسيير الكون، لأن الكون يُشبه الجسد الحي الذي يعمل كل جزءٍ فيه في اتساقٍ وتناغم مع بقية الأجزاء، ولا قيام لكل جزء إلا بمجموع الأجزاء، وهذا ما تدعوه التاوية بالنشوء معًا أو النشوء التزامني، مما أشار إليه المعلم في هذه الفقرة بقوله:

الآلاف المؤلَّفة تظهر وتختفي بلا توقف.

وقوله في الفصل ١٦:

الآلاف المؤلَّفة تنشأ في تواقُتٍ معًا
وأنا أراقب عودتها.

وقد عبَّرت بوذية الزن ذات المنشأ التاوي عن هذه الفكرة بأكثر من صيغة شعرية، نقرأ على سبيل المثال:

ألبث في سكون لا أفعل شيئًا
الربيع يأتي والعشب ينمو من تلقاء ذاته.

---

[٣] Chuang Tzu, Work ch. 4, cited in: Chang Chung-yuan, Creativity and Taoism, p. 47.

[٤] Chuang Tzu, Works, ch. 16, Op. Cit.

(٦-ب) إن التاو ليس سيدًا للكون يمارس سلطانه عليه من موضع مستقل ومفارق، وكأنه والكون هويتان مستقلتان، بل هو عين النظام الداخلي للطبيعة الحرة من أية ضرورة خارجية، من هنا فإنه لا يتطلَّب من الكائنات عرفانًا ولا يدَّعي لهم امتلاكًا ولا ينسب لنفسه فضلًا.

(٧) ويتبع ذلك أن عمل التاو لا يهدف إلى مكافأة من أي نوع، العمل يُنجز لأنه من طبيعة الأشياء أن ينجز، والحكيم الذي يحوز على الـ «تي»، فتكون نفسه مرآة لتجلي التاو في العالم الطبيعي، يفعل مثل ذلك، ولذا فإن أثر عمله يبقى في الأرض.

الفصل الثالث

(٨) ترتبط هذه الفقرة ارتباطًا وثيقًا بالفقرة الأخيرة من الفصل السادس حيث قرأنا:

العمل يُنجز ثم يُنسى
ولذا فإن أثره لا يفنى.

أي إن المرء في إنجازه لعمل ما ينبغي ألا يفكر فيما يعود عليه من مكافأة مادية أو ثناء أو شهرة، بل أن يقوم به ثم ينساه، ونحن إذا رسَّخنا هذه القيمة في المجتمع، نعمل على كبح السلوك التنافسي حيث يحاول كل فرد توكيد ذاته على حساب الآخَرين، ونشجع السلوك التعاوني، إن عدم تمجيد السباقين والمجلين في شتى مناحي الحياة، يجعل من الإنجاز قيمة في حدٍّ ذاته، لا وسيلة لما وراءه، يضاف إلى ذلك أن الإعلاء من شأن أصحاب الثروة والجاه في المجتمعات القديمة والحديثة على حدٍّ سواء، يشجع الأفراد على تكديس الثروات باعتبارها رمزًا للسلطة والتفوق الاجتماعي، ومن دون النظر إلى مشروعية الوسائل المستخدمة في ذلك، وهذا ما يُشير إليه لاو تسو بقوله هنا:

عندما لا نقدر النفائس يختفي المال الحرام
عندما لا نعرض ما يُثير الرغبة نقضي على تبلبل الأذهان.

(٩) في مقابل المجتمع التنافسي التطاحني يطرح لاو تسو تصوره لمجتمع متجانس تسود فيه قيم التعاون بدل التطاحن، ونكران الذات بدلًا عن توكيدها، أمَّا طريق الحاكم لتحقيق هذه الصورة المُثلَى، فيوضحه لاو تسو هنا بأسلوبه الرمزي الذي يستخدم تعابير حسية متطرِّفة تُمثِّل النقيض التام لما يرفضه، فالحكيم الذي صار حاكمًا للناس:

يُفرغ العقول ويملأ البطون
يُضعف المطامع ويقوِّي الأجسام.

أي إن الحاكم يُفرغ عقول الناس من الطمع ومن الرغبة في تكديس الثروات، وذلك عن طريق سد الحاجات الأساسية للجميع، والتقليل من شأن الثروة باعتبارها معيار التفوق والتميز، إن كل رغبة تتطلع إلى ما وراء الحاجات الطبيعية للإنسان في مستواها اللائق العادي، تحمل في ثناياها خطرًا على أمن المجتمع، لأنها تدفع إلى النهب والسرقة واستخدام الوسائل غير المشروعة في تحصيل الثروة.

(٩-أ) إن المعرفة التي يرغب لاو تسو في تحرير الرعية منها ليست المعرفة على إطلاقها، بل ذلك النوع من المعرفة المرتبط بالرغبة، العامل على توسيعها وتأجيجها وخلق رغبات جديدة وحاجات متوهمة لم يكُن الأفراد على دراية بها، ولنا في المجتمعات الغربية الحديثة خير مثال على ذلك، حيث تحوَّل الإنسان إلى عبد للسلعة وإلى أداة لاستهلاك مزيد ومزيد من السلع، وهذا مؤدى قوله:

حتى إذا تحرَّرت الرعية من الرغبة ومن المعرفة
لم يبقَ للمفكرين دور يلعبونه.

ولاو تسو هنا يُميز بين المُفكر المتحذلق الذي يظن أنه اصطاد الكون بشبكة معرفته النظرية الذهنية، وبين الحكيم الذي أفلح في اختراق المظهر إلى الجوهر والبقاء في صميم الحقيقة.

(١٠) إذا أفلح الحاكم في خلق المناخ الملائم الذي يساعد كل فرد على السلوك بحرية وتلقائية، وعلى تحقيق ذاته لا على توكيد ذاته، ساد النظام من تلقاء نفسه وغدا الحاكم نفسه بلا ضرورة.

الفصل الرابع

(١١) يورد الفيزيائي البريطاني بول ديفيس في كتابه «المكان والزمان» الملاحظات الآتية حول مفهوم الفراغ (الفضاء، الخلاء، المكان):

كثيرًا ما يفهم من كلمة فضاء، الخلو أو الامتداد أو الحيز، وذلك بمعنى الوعاء الذي تحتله حجوم الأشياء ذات الجسم، وقد اكتسبت الكلمة في لغة اليوم معنى الفضاء الخارجي؛ أي المنطقة التي تقع خارج الكرة الأرضية، إن كلمة فضاء ترسم في الذهن صورة الخلو أي ما يتبقى بعد نزع كل الأشياء الملموسة، وعلى هذا فإن أغلب الناس يفكر في الفضاء وكأنه وعاء يحتوي العالم الكوني أو حلبة لما يحدث فيه ... إن هذه النظرة إلى الفضاء التي ترى فيه الخلو من الأشياء، تجعل من الصعب على كثيرٍ من الناس أن يفهموا لماذا يريد العلماء بناء نظرية بخصوصه، فالفضاء هو في نهاية الأمر لا شيء، وإذَن فلا شيء يمكن أن يقال فيه.

> «ولكن نظرة العلماء إلى الفضاء تختلف تمامًا عمَّا ذُكر، فأولًا إن النظريات العلمية في موضوع الفضاء ليست نظريات تهتم بالفضاء الخارجي حصرًا، لأن خواص الفضاء خارج الأرض تبقى مماثلة تمامًا لخواص الفضاء عند سطح الأرض ... إن العلماء المعاصرين يعتبرون أن الفضاء ذو سويات بنيوية عديدة، وبعض فروع الفيزياء الحديثة توحي فعلًا بأن الأشياء المادية ليست في الحقيقة سوى اضطراب في هذه البنية المستترة، فبدلًا من تصوير العالم الكوني كشيءٍ متضمن في الفضاء، يرى علماء الفلك الحديث أن الأشياء المادية والفضاء تؤلف مع العالم الكوني».[١]

[١] بول ديفيس: المكان والزمان، ترجمة أدهم السمان، مؤسسة الرسالة، دمشق ١٩٨٨، ص١٣-١٤.

إذا تأملنا بدقة الجملة التي تقول أعلاه بأن الأشياء المادية ليست سوى اضطراب في بنية الفراغ المستترة، اقتربنا كثيرًا من فهم قول لاو تسو:

التاو فارغ، ولا ينضبه النضح
لا يسبر غوره منشأ الآلاف المؤلفة.

فالتاو هو الفراغ أو اللاوجود أو العدم، ومع ذلك فإنه منشأ كل الظواهر الحية والجامدة، إنه العدم الخلَّاق الذي يحتوي في صميمه على ممكنات الوجود، أو الصفر الرياضي الذي لا تقوم للأعداد قائمة بدونه، فالواحد يليه اثنان ثم ثلاثة، ولكن الواحد لا يوجد إذا لم يكُن مسبوقًا بالصفر.

(١٢) لكي يتماثل الإنسان مع التاو ويتناغم مع حركته عليه أن يفرغ نفسه أيضًا، والنفس الفارغة هي النفس التي خرجت من الإنيَّة (نسبةً إلى الأنا) وحققت ذاتًا منفتحة تعكس الكون برمته، لقد تعودنا أن نطابق بين ذاتنا الحقيقية وفكرتنا عن ذاتنا التي تقود إلى الإحساس بالأنا المستقلة والمنعزلة، والتي تتعامل مع كل ما عداها تعامل الذات مع الموضوع، وعندما نتوقف عن مثل هذه المطابقة ونحس في أعماقنا بتلاشي الحدود بين الذات والموضوع، بين الأنا الفردية وما عداها، نكون قد حقَّقنا التناغم مع التاو، وهذا معنى قوله: ثلِّم الحد، حُل العُقد، خفِّف البريق، تمازَجْ مع التراب.

ثلِّم الحَد: أي افعل من خلال اللافعل، واجهد من خلال اللاجهد، فالحد القاطع يدل على ممارسة القسر في التعامل مع الآخَرين ومع الطبيعة، والحد غير القاطع يدل على الفعل التلقائي المتناغم مع حركة وصيرورة الطبيعة، يقول لاو تسو في الفصل ٥٨:

لذا فإن الحكيم حادٌّ ولكنه لا يقطع
ثاقب ولكنه لا ينفُذ.

حُل العُقد: أي اترك عقلك على سجيته، فالحقيقة الكبرى لا خصائص لها، وليست شيئًا يمكن اختباره بالطريقة التي نختبر بها الأشياء، وبالتالي فإنها ليست موضوعًا للمعرفة التقليدية، بل للمعرفة الحدسية التي تتجاوز العقل التحليلي، وبالمفهوم التاوي فإن الحقيقة الكبرى تُعرف من خلال اللامعرفة. يقول الحكيم سينغ تسي آن، من القرن السادس الميلادي:

«اتبع طبيعتك وتماثَلْ مع التاو. امشِ الهُوَيْنى ودع القلق، إذا كانت أفكارك مُقيَّدة تُتلف ما هو أصيل فيك ... الحكيم لا يُجهد نفْسه ويلزم اللافعل، الجاهل

يُقيِّد نفسه (بأفكاره). إذا حاولت معرفة عقلك بواسطة عقلك كيف لك أن تنجو من التشوُّش التام؟»[٢]

خفِّف البريق: أي تجنَّب إظهار نفسك ولا تَزْهُ بإنجازاتك. يقول لاو تسو في الفصل ٥٨ لاحقًا:

الحكيم متسع ولكنه لا يتعدَّى
يلمع ولكنه لا يُبهر.

ويقول في الفصل ٣٩:

الصِّيت الذائع ليس ميزة
فابتعد عن القعقعة والضجيج.

ويقول في الفصل ٢٢:

الحكيم لا يظهر نفسه، ولذا يبدو للنظر
لا يعتبر نفسه على حق، ولذا يحوز المكانة.

تمازَجْ مع التراب: أي كُن أنت وصيرورة الطبيعة شيئًا واحدًا.

(١٣) الفقرة الأخيرة هنا ذات صلة بالفقرة الأولى، فالتاو فارغ ولكن الأخذ منه لا ينقصه، باطنه الفراغ وظاهره ما لا يُحصى من الموجودات، لا نعرف له علَّة ولكنه علَّة كل فعالية وقدرة وطاقة.

[٢] Alan Watts, The Way of Zen, p. 109.

الفصل الخامس

(١٤) يقول عالم الفيزياء الكونية هوبرت ريفز في كتابه: الكون – البحث عن لحظة الميلاد، ما يأتي:

«إن القوانين الطبيعية المنظِّمة للكون الفيزيائي لا تنطوي على أي معنى أخلاقي، إن الخير والشر أشياء غريبة عنها تمامًا. فهذه القوانين، وبشكلٍ محددٍ، غير أخلاقية».[١] ويقول لاو تسو الشيء نفسه بخصوص المبدأ الكلي الظاهر في الطبيعة من خلال قوتيه: الـ «يانغ» والـ «ين»، أو السماء والأرض. فالمبدأ الكلي حيادي لا شفقة عنده ولا قسوة. يعامل الناس وكأنهم دمى حقول لا حياة فيها تُستخدم لإبعاد الطيور. وهو، على عكس الإله المشخص، لا يفرض شرائع أخلاقية ولا يعاقب أو يثيب. ويتبع ذلك أن الحكيم أيضًا لا يملك ما يقوله للناس بشأن الأخلاق، بل يقدم لهم العون على تحقيق ذات منفتحة. إن الأنا المنغلقة على ذاتها هي التي تتطلب التعاليم الأخلاقية الناظمة لعلاقاتها مع غيرها، أمَّا الذات المنفتحة فإن سلوكها هو عين أخلاقيتها، والحكيم التاوي ليس معلِّمًا أخلاقيًّا كما هو شأن الحكيم الكونفوشي، بل هو معلم روحي، ذلك أن التاوية لا تأبه للأخلاق المفروضة على الإنسان من الخارج، بل ترى أن السلوك التلقائي للأفراد، إذا تُركوا على سَجِيتهم، سوف ينحو منحًى أخلاقيًّا بالضرورة.

[١] هوبرت ريفز: الكون – البحث عن لحظة الميلاد، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٩٦، ص ٣٨.

يُضاف إلى ذلك أن العالم في المفهوم التاوي قائم على القطبية، حيث لا قيام للصح بدون الخطأ ولا للخير بدون الشر. يقول تشوانغ تزو:

> «إن مَن يقول بضرورة وضع اليد على الصح ونبذ الخطأ، أو تحقيق الحكم الصالح ونبذ الحكم الطالح، لا يفقه المبادئ العظمى للكون ولا طبيعة الخليقة. إنه كمَن يتحدث عن سماءٍ بلا أرض أو أرض بلا سماء. ومع ذلك فإن كثيرين يجادلون في هذا طويلًا، وأمثال هؤلاء إما حمقى أو بسطاء.»[٢]

(١٥) يعود لاو تسو في هذه الفقرة إلى فكرة العَدم الخلَّاق التي شرحناها في الفصل السابق، فالمنفاخ فارغ بطبيعته، ولكنه لا ينضب مهما دفق من داخله الهواء، وكلما كدَّ كلما أنتج أكثر.

(١٦) الحكيم هو الذي يدرك أخيرًا لا جدوى الكلمات، ويثبت قلبه على حقيقة الفراغ ومركز السر. يقدم لنا المقطع الآتي لتشوانغ تزو وصفًا لما يُحدِثه في النفس تثبيت القلب على الفراغ، والحديث هنا يجري على لسان حكيم تاوي اسمه نو يو:

> «كان عند بو ليينغ مواصفات العبقري المتميز كلها، ولكن ينقصه التاو لكي يغدو إنسانًا كاملًا، بدأت بتعليمه والأخذ بيده نحو التكامل الداخلي. بعد ثلاثة أيام صار بمقدوره تحرير نفسه من العالم، بعد سبعة أيام أخرى حرَّر نفسه من المظاهر والأشياء الخارجية، بعد تسعة أيام أخرى حرَّر نفسه من وجوده الخاص، عندما غدا حرًّا من وجوده الخاص حصلت له رؤيا الشمس الصاعدة، بعد ذلك صار بمقدوره اختبار الوحدة الداخلية، وعندها فقد الماضي والحاضر تمايزهما عنده، بعد ذلك حقق حالة لا وجود فيها للحياة وللموت، وعرف أن هلاك الحياة لا يعني الموت وأن الميلاد لا يعني الحياة، صار يتعامل مع الأشياء كلها ويقبل الأشياء كلها، كل الأشياء تسير نحو الهلاك، وكل الأشياء تسير نحو البناء، وهذا ما يُدعى بالسكينة ضمن الاضطراب.»[٣]

---

[٢] Chuang Tzu, Works ch. 17, cited in: Alan Watts, Tao: The Watercourse Way, p. 26.

[٣] Chuang Tzu, Works ch. 6, cited in: Ibid, pp. 91–92.

الفصل السادس

(١٧) يتصل هذا الفصل بالسطر الأخير من الفصل السابق حيث قال المعلم: ثبِّت قلبك على جوهر الفراغ. يقول تشوانغ تزو في حديث يضعه على لسان كونفوشيوس الذي يتوجه إلى متعبد يصوم بلا فائدة: «إذا كنت حقًّا تريد تحقيق التكامل الذاتي عليك أن لا تنصت بأذنك بل بقلبك، ثم عليك ألا تنصت بقلبك بل بروحك، دعِ الأذن تتوقف عن السماع والعقل يتوقف عن تقليب الأفكار، عندها تصير الروح فراغًا يحتوي كل شيء. التاو وحده محيط بالفراغ. هذا الفراغ هو صيام القلب.»[١]

إن تعبير روح الوادي الذي يورده لاو تسو في مطلع الفصل يدل على الفراغ، وتأتي المماثلة من كون الوادي مجوفًا وفارغًا، ونستطيع فهم مدلولات هذا التعبير من متابعته في سياقات تاوية أخرى، نقرأ لكاو بي فانغ من عصر أسرة هان (٢٠٠ق.م.–٢٠٠م): «عندما تنقص الفعالية الذهنية وما يرافقها من تقليب الأفكار إلى نقطة الصفر، إلى العدم، تقيم فيك روح الوادي.»[٢] ونقرأ لكو هونغ من القرن الرابع الميلادي: «باستنشاق أشعة الشمس تتطهر روح الوادي.»[٣] والإشارة هنا إلى تمرين التنفس اليوغي الذي يساعد على إفراغ الذهن من أفكاره، ونقرأ ليو هسين من القرن السادس الميلادي: «بإفراغ العقل تأتي روح الوادي لتقيم فيك.»[٤] من هنا يمكن القول بأن روح الوادي تعني جوهر الفراغ الذي

---

[١] Chuang Tzu, Works ch. 4, cited in: A. Watts, Op. Cit., p. 117.

[٢] Chang Chung-yuan, Tao: A New Way of Thinking, p. 16.

[٣] Ibid, p. 16.

[٤] Ibid, p. 16.

يمكن تحقيقه من خلال السكون وإفراغ الذهن من كل انشغال بالذات الفردية، حتى إذا وصل الإنسان إلى حالة الإفراغ التام امتلأ بالعدم الخلَّاق الذي هو جوهر التاو.

إن حالة الفراغ التام للذهن من مشاغل الأنا ومن الأفكار التي لا طائل تحتها، هي شكل من أشكال اللافعل الذي تحدَّثنا عنه في فصل سابق. وهذه الحالة التي يتطلع التاوي على تحقيقها لا تعني الوصول إلى شكل من أشكال البلاهة، بل تهدف إلى إفساح المجال أمام العقل لكي يستوعب الحقائق العُليا التي لا تتأتى بإجهاد العقل بل بتركه يصل إلى أقصى مدى له في الاسترخاء، هذا الاسترخاء هو موقف سلبي بالمعنى الخلَّاق للسلب، وكلما استسلم المُريد التاوي لحالة السلب هذه اقترب من الحقيقة الروحية للفراغ، وهذا ما يدعوه لاو تسو بـ "Hsuan P'I" التي تُترجم عادة بالأنثى الغامضة حيث P'i تعني الأنوثة أو السلب أو الانقياد.

إن الحقيقة الروحية للفراغ هي التي تفتح البصيرة على منشأ الأشياء كلها، أو الفارغ العظيم الذي يُعطي دون أن ينضب مَعِينه.

الفصل السابع

(١٨) إن الفارق بين مفهوم التاو ومفهوم الإله الخالق، هو أن الإله الخالق أنتج العالم عن طريق الخلق الإرادي بينما أنتج التاو العالم عن طريق الخلق غير الإرادي. الإله خلق العالم بواسطة الفعل، أمَّا التاو فبواسطة اللافعل. ولإيضاح الفرق بين هذين المفهومين للخلق، أقول بأنه في الخلق الإرادي يتم التشكيل من الخارج نحو الداخل، كما هو الحال في صنع تمثال حيث نقوم بإزالة الطبقات الخارجية للحجر الخام وصولًا إلى الشكل الذي نريد، أمَّا في الخلق غير الإرادي فإن التشكيل يتم من الداخل نحو الخارج وبشكلٍ تلقائيٍّ، كما هو الحال في نمو النبتة، حيث تتشكل الأجزاء وتتكامل في كل موحد انطلاقًا من الباطن نحو الظاهر. وبما أن الحكمة التاوية بشكلٍ خاصٍّ، والحكمة الصينية بشكلٍ عامٍّ، ترى أن ظهور الكون وصيرورته يتبعان مبدأ النمو التلقائي الذي يميز نشوء الكائنات المتعضية، فإن الفكر الصيني لا يطرح سؤالًا جديًّا حول مَن خَلَق العالم والكيفية التي ظهر بها. لأنه لو كان العالم قد خُلِق لكان له صانع جبل أجزاءه ثم ركبها. أما وأنه قد نما انطلاقًا من مبدأ كلي يمكن تشبيهه بالقانون الأزلي وهو التاو، فإن السؤال عن صانعه يغدو بلا معنى. ويتبع ذلك القول بأن التاو لا يشعر بوجوده الخاص، لأنه ليس كائنًا ذا شخصية وطباع وأهواء، ولأن وجوده هو عين وجود الظواهر. كما أنه لا يعرف كيف صدر الكون عنه معرفة الصانع للكيفية التي صنع بها أداته؛ لأنه لا يتمتع بمعرفة خاصة به، ولأن معرفته هي عين حركة الظواهر وصيرورة الكون، المطلق لا يشعر بوجوده شعور الأنا النسبية بوجودها الخاص، أمَّا الأنا النسبية فكلما زادت في التوكيد على ذاتها كلما ازدادت إحساسًا بوجودها المحدَّد المستقل، وهو وجود آيل إلى الفناء.

وهذا معنى قول المعلم:

السماء والأرض باقيتان
لماذا تبقى السماء والأرض؟
لأنهما لا تشعران بوجودهما.

(١٩) من هنا فإن الهدف الأسمى للحكيم هو التشبه بالتاو، عن طريق نكران الأنا الفردية وتحقيق ذات منفتحة. فالإنسان لا يجد نفسه الحقيقية إلا عندما يستغرق في نسيان نفسه الآنية التي ليست أكثر من وهم خادع وزائل. إن الذات المنفتحة تنطوي على الأنا وتتجاوزها. إنها هذه الحياة بالذات وهذه الروح بالذات، ولكنها في الوقت نفسه حياة كونية وروح كونية. المعرفة الحقيقية للأنا تقود إلى معرفة الذات، وعندما يتوصل التاوي إلى معرفة ذاته يعيش في الحالة التي تدعوها التاوية والبوذية أيضا ب «اللا-إنية» التي تخرج بالوعي الفردي المحدد بالأنا إلى الذات المنفتحة أو اللاأنا. وهذا معنى قول المعلم في هذه الفقرة:

الحكيم يضع نفسه في المؤخرة ليجدها في المقدمة
عندما ينسى نفسَه يجد نفسَه،
لأنه لا يشعر بنفسه قادرٌ على تحقيق ذاته.

وهذا ينطبق على الحكيم الذي حقق الاستنارة، وعلى الحاكم التاوي الذي يسوس أمة. فعندما يضع الحاكم مصالحه الفردية في المؤخرة يجد نفسه في المقدمة على رأس رعيته. وبهذا يتخلى عن أناه ليحقِّق ذاته.

الفصل الثامن

(٢٠) حركة الماء هي إحدى الصور المفضلة عند لاو تسو لتوضيح مفهوم التلقائية الكونية. فالماء يندفع وفق قانونه الذاتي الخاص ويتدفق دون أن يسيرَ على خطة مسبقة، يسير في الأماكن المنخفضة ويسقي ما لا يُحصى من الحيوات، يسعى إليها في أماكنها المنعزلة، حيث لا يستطيع إنسان أن يصل إلى هناك. وهو ينجز ذلك بسهولةٍ ويُسر، ومن غير جهد أو ممارسة للقسر. التاو يُشبه الماء. إنه wu-tse أي اللاقانون، أو بالأحرى القانون الضمني في مقابل tse أي القانون الوضعي الذي يحدد ما يجب وما لا يجب فعله. والـ wu-tse أو القانون الضمني يعمل وفق مبدأ الـ Li، والكلمة هنا تشير إلى النمط العضوي حيث لا تناظر ولا خطوط جيومترته ولا تكرار ولا أنساق موحدة. مثل هذا النمط العضوي نجده في تكون السحب، وفي ندف الثلج التي لا تشبه واحدتها الأخرى، وفي زبد البحر، وبشكل خاص في حركة الماء.

انظر إلى نهر يسير متعرِّجًا بين الأودية ويختط لنفسه طريقًا حول الصخور والعقبات، وتأمل كم ينجز من عمل دون جهدٍ، وتشبَّه به في عملك. يقول تشوانغ تزو: «إن تدفق الماء ليس نتيجة جهد يبذله الماء، بل هو خصيصة طبيعية فيه، ومثله فضيلة الرجل الكامل التي لا تأتي عن تعلم وتنمية ومع ذلك فلا شيء يخرج عن سيطرته. السماء بطبيعتها عالية والأرض بطبيعتها صلبة، الشمس والقمر بطبيعتهما برَّاقان. هل اكتسبت هذه جميعًا خصائصها تلك أم أنها كامنة فيها؟»[١] من هنا يدعو مريدو حكمة الزن (وهي سليلة التاوية) أنفسهم yum-shui والتي تعني السحاب والمطر؛ أي أنهم يجرون كما السحاب ويتدفقون كما المطر.

---

١ Chuang Tzu, Works, ch. 13, cited in: Allan Watts, Op. Cit., p. 47.

(٢١) يعلن لاو تسو في هذا المقطع موقفه الإيجابي من مسائل الحياة العملية ويبدد أوهام العدمية التي تحيط بالتاوية. فهو يقدم نصائحه حول كيفية التعامل مع نشاطات الحياة اليومية كل بما يناسبها. إن الفرق واضح بين موقف الإنسان العادي من المسائل العملية وموقف الإنسان التاوي، فالإنسان العادي مستغرق في المنافسة مع الآخرين من أجل إثبات ذاته وتتنازعه المخاوف بخصوص النجاح أو الإخفاق. أما التاوي الذي تحرر من أناه الضيقة فقد تحرر أيضًا من وهم السمعة والمكانة المميزة وينجز دون نظر إلى نتائج إنجازه. إنه يتكيف مع واقع الحياة اليومية كما تنمو الزهرة وكما يسطع القمر. مثل هذه التلقائية في الفعل والإنجاز تعبر عنها هذه الأبيات من شعر الزن:

سرب الإوز البري يقطع السماء الواسعة في الأعلى
صورة الإوز البري تنعكس على صفحة المياه الباردة في الأسفل
الإوز لم يقصد أن يعكس صورته على مياه البحيرة
مياه البحيرة لم تقصد الإمساك بصورة الإوز البري.[٢]

(٢٢) الضمير في هذا السطر عائد إلى الحكيم الذي يتشبه بالماء. وقد شرحنا ذلك أعلاه. ومن الممكن أن يكون موضع هذه الفقرة بعد الفقرة ٢٠ مباشرة، وبالتالي يكون الضمير عائدًا إلى التاو نفسه أو إلى الماء.

[٢] Chang Chung-yuan, Op. Cit., p. 57.

الفصل التاسع

(٢٣) يقول الحكيم تشو تان يي: «المطلق العظيم يتحرك، بحركته يخلق اليانغ. عندما تصل الحركة أقصى مدى لها تعود إلى السكون. السكون يخلق الـ «ين». عندما يصل السكون أدنى مدى له ينقلب إلى حركة. الحركة والسكون يتناوبان وبتناوبهما ينتجان بعضهما بعضًا. عندما ينشط الـ «يانغ» والـ «ين» بشكل متمايز تظهر القوتان، وعندما يجتمع الـ «ين» والـ «يانغ» يحولان نفسيهما إلى العناصر الخمسة: الخشب والماء والنار والمعدن والتراب ... العناصر الخمسة هي عين الـ «يانغ» والـ «ين». الـ «ين» والـ «يانغ» هما عين المطلق العظيم.»

يعبر هذا المقطع عن فكر التاوية الجدلي. فالعالم هو صيرورة جدلية وحركة لا تني بين الأقطاب المتقابلة والمتوازنة، والتي رغم تناوبها لا يبغي واحدها على الآخر ولا ينفيه. من هنا فإن الحكيم هو الذي يجعل نفسه في نقطة البرزخ بين الأقطاب ويوحدها في ذاته. إنه لا يتطرف في أي سلوك أو عمل، ويعرف متى يتوقف قبل أن توصله المبالغة في الأمر إلى وقوع نقيضه.

(٢٣-أ) لكل مهمة نقطة تصل عندها إلى نهايتها الطبيعية، فإذا أتممتها انسحب من تلقاء ذاتك ولا تنتظر جزاءً؛ لأن العمل يُنجز ثم يُنسى، كما قال المعلم في فصل سابق. وبهذا تتماثل مع التاو.

الفصل العاشر

(٢٤) يمتلك كل فرد روحين؛ روح الـ «ين» وهي الروح الجسدية وتُدعى بو، وروح الـ «يانغ» وهي الروح الأثيرية. عند الموت تنزل الروح الجسدية إلى التراب بينما تصعد الروح الأثيرية إلى السماء. هذا ما يرد في تعاليم التاوية الطقسية اللاحقة. ولكن المرجح أن لاو تسو الذي تخلو تعاليمه من أي تأمل في مسألة الموت وما بعد الموت، يؤكد في هذا المقطع على ضرورة إدراك الفرد لكينونته باعتبارها حاصل تمازج قوة السلب وقوة الإيجاب، وعلى الحفاظ على التوازن بينهما في كلِّ سلوكٍ وكلِّ موقفٍ.

(٢٤-أ) يشير هذا المقطع إلى ممارسة التأمل أو الاستغراق الباطني المعروفة في المذاهب الشرق أقصوية جميعها، والتي تعتمد على التنفس بطريقة خاصة وإفراغ الذهن من مسائل الحياة اليومية. يقول تشوانغ تزو في نصائحه للمتأمل التاوي:

«ثبت همك على هدف التأمل. لا تصغِ بأذنك بل أصغِ بعقلك. لا تصغِ بعقلك بل أصغِ بتنفسك. أوقف أذنك عن سماع الأصوات، أوقف عقلك عن تداول الصور. التنفس يعني أن تُفرغ نفسك وتنتظر التاو. التاو لا يقيم إلا حيث الفراغ. الفراغ هو تثبيت الذهن، حدِّق في الفراغ، من حجرته ينبثق النور. ها هي الغبطة، إنها هنا لتبقى.»[١]

هذا النوع من الاستغراق الباطني يجعل صاحبه مثل الوليد الجديد الذي لم تُنقش على ذاكرته أية تجربة بعد، حلوة كانت أم مُرَّة. إنه فارغ ويشعر بالغبطة والسعادة. إنه في الحالة الطبيعية البدئية التي لم تفسدها المعرفة بعد.

---

[١] Chuang Tzu, ch. 14, cited in: Chang Chung-yuan , Op. Cit., p. 12.

في حالة الاستغراق التاوي، لا يحاول المتأمل إفراغ عقله قسرًا، بل يتركه على سجيته يتلقى الأفكار ويتركها دون الإمساك بها أو إعطائها تفكرًا ثانيًا وجعلها تتردد في الذهن. وبذلك يغدو العقل مثل مرآة مصقولة، فالمرآة تعكس كل الصور دون أن تقبض على واحدة منها. الأفكار هي تراكيب عقلية مؤقتة وزائلة، لذا دعها تنعكس على صفحة عقلك وتتلاشى.

(٢٤-ب) وعلى عكس ما تهدف إليه الممارسات اليوغية للتأمل الباطني من تحكم بالجسد وإطالة للعمر، فإن الممارسة التاوية لا تهدف إلى تحصيل أي مكسب للأنا بل إلى تحقيق ذاتٍ منفتحةٍ. يقول تشوانغ تزو: «عندما يصل عالمك الداخلي حالة السكون التام فإنه يشع ضوءًا سماويًّا. مَن يشع بنوره السماوي يشعر بذاته الحقيقية. مَن يرعى ذاته الحقيقية يقبض على الأبدية في الحاضر. عندما يقبض على الأبدية تسقط عنه عناصره المادية البشرية وتسنده خصائص السماء.» ٣٣ وكما هو شأن كل نشاطٍ تاويٍّ، فإن التأمل والاستغراق الباطني لا يسعى إلى البحث عن الحقيقة بشكل قصدي وإرادي، بل بشكل تلقائي ومن خلال مبدأ اللافعل. وهذا معنى قول المعلم في هذه الفقرة:

عندما تنفتح بوابات السماء وتغلق
هل بمقدورك التزام دور المرأة؟
عندما تنفذ بصيرتك في الاتجاهات الأربعة
هل تفعل ذلك دون معرفة منك؟[٢]

إن أسلوب التأمل التاوي يساعد المُريد على تحرير العقل والمَلَكات النفسية من ممارسة الجهد ومن التركيز. وعندما يصل العقل حالة التلقائية ويتوقف عن ممارسة الفعل على نفسه، يصل المتأمل إلى الاستنارة. والاستنارة هنا أمر طبيعي يمكن أن يحصل في أية لحظة، ولا يتطلب جهدًا وتصميمًا يمتد عبر عددٍ لا يُحصَى من التقمصات المتوالية، كما هو الحال في الهندوسية وفي البوذية. طريق التاوية لا يسير عبر مراحل متدرجة يرتقي خلالها المريد من مقامٍ إلى مقامٍ وصولًا إلى لحظة الكشف، بل يتم قطعه في قفزةٍ بسيطةٍ واحدةٍ. إن صعوبة هذه الوسيلة تكمن في بساطتها المفرطة.

---

[٢] Chuang Tzu, Works, ch. 23, ibid p. 124. see also: Chang Chung-yuan, Tao: A New Way of Thinking, Op. Cit., p 28.

لدينا قصة من أدبيات بوذية الـ «شان»، سليلة التاوية، توضح الفرق بين الكد الذي يميز الطريق البوذي التقليدي من أجل تحقيق الخلاص، وبين التلقائية والطبيعية التي تميز الطريق التاوي: «جاء المريد تاو هسين إلى الحكيم سينغ تسو آن، البطريرك الرابع لبوذية «الشان»، ليتعلم على يديه. سأل المريد الحكيم: ما هو الطريق إلى التحرُّر؟ فقال الحكيم: مَن الذي يقيِّدك لكي تبحث عن التحرر؟ أجاب المريد: لا أرى أحدًا يقيِّدني. فقال الحكيم: لماذا إذَن تبحث عن التحرُّر؟ عند ذلك انكشفت بصيرة المريد وحصل على الاستنارة، وصار فيما بعد البطريرك الخامس للمذهب».[٣]

(٢٥) يكرر لاو تسو هنا مقطعًا سابقًا يصف فيه علاقة التاو بالآلاف المؤلَّفة من الحيوات ومن مظاهر الطبيعة. فالتاو ليس سيدًا للكون يمارس عليه سلطانه من موقع مفارق، بل هو عين النظام الداخلي للطبيعية، ذلك النظام الحر من أية ضرورةٍ خارجيةٍ؛ لذلك فإنه لا يتطلب من الكائنات عرفانًا ولا يدَّعي لهم امتلاكًا ولا ينسب لنفسه فضلًا.

إن الآلاف المؤلَّفة من الحيوات ومن مظاهر الطبيعة هي التاو في حالة التجلي. وهذا ما يدعوه لاو تسو في السطر الأخير بالـ «تي» الغامضة. وهنا سوف نتوقف عند مفهوم الـ «تي» لأنه من المفاهيم الأساسية في الكتاب ومتضمن في عنوانه: تاو تي تشينغ؛ أي رسالة في التاو والفضيلة.

تي-الفضيلة

من تتبعنا لكيفية استخدام تعبير الـ «تي» عند لاو تسو، يمكننا القول بأن التعبير يشير إلى التاو متحققًا في الأفراد. والكلمة في الأصل تعني الفضيلة وتعني أيضًا المزية الداخلية والقوة الداخلية وأيضًا الطبيعة الأصلية للإنسان، هذه الفضيلة أو المزية الداخلية لا تُكتسب بالتعلم، وإنما يكتشفها الفرد في أعماق نفسه عندما يغدو قادرًا على تحقيق ذات منفتحة.

لا يقف معنى الكلمة عند هذا الحد بل يتعداه إلى ما هو أوسع. ذلك أن الـ «تي» هي عين نظام الطبيعة العضوي (= Li) مما تحدثنا عنه في موضع سابق. إنها القوة التي تنتش الحبوب وتورق النبات وتدفع دورة الدم في الأوردة والشرايين. وباختصار إنها الحركة الداخلية التي تقود إلى تفتح المظاهر من الداخل نحو الخارج، لتنتظم في كلٍّ موحد متناسق من تلقاء ذاته، ومن دون خطة محكمة مسبقة.

[٣] Alan Watts, The Way of Zen, Penguin 1962, p. 109.

وعلى المستوى السلوكي والأخلاقي، فإن الـ «تي» هي تلقائية الحكيم ووعيه المنفتح الكوني الذي تجاوز حدود الأنا الفردية. إنها الفضيلة الطبيعية في مقابل الفضيلة المصطنعة التي تُغرس بواسطة التعلُّم واتباع لوائح السلوك الأخلاقي. كما أنها المهارات الفائقة التي يتسنى للأفراد اكتسابها دون تعلم من نوعٍ خاصٍّ، وإنما باكتشاف ذلك النبع الخلَّاق في داخل النفس الإنسانية. يقول تشوانغ تزو:

«كان الحرفي تشو وي قادرًا على رسم دائرة بيده أكمل من أية دائرة يرسمها فرجار، وكانت أصابعه تتعامل مع موضوعاتها بتلقائية لا يحتاج معها إلى تركيز انتباهه على الإطلاق.» ويقول أيضًا: «أولئك الذين لا يستطيعون رسم قوس أو مستقيم أو مربع دون الاستعانة بالأدوات يسيئون إلى التركيب الطبيعي للأشياء. أولئك الذين يستعملون الأربطة لجمع الأجزاء والصمغ للصقها يتدخلون في المسار الطبيعي لحدوث الأشياء. أولئك الذين يبحثون عن طمأنينة القلوب بواسطة ضجيج الموسيقى وهرج ومرج الطقوس، ويبشرون بالإحسان والصدقات وحسن المعاملة يسيئون إلى الطبيعة الأصلية للأشياء.»[٤]

مما تقدَّم شرحه حول مفهوم الـ «تي» فإني أميل إلى الموافقة على الترجمات الأوروبية الأولى لكتاب تاو تي تشينغ والتي ترى في الـ «تي» نوعًا من القوة الداخلية المنبثقة في الكون والإنسان، مع الأخذ بعين الاعتبار المفهوم التاوي للقوة، والتي هي نوع من الفعالية التلقائية البعيدة عن مفهوم القسر والإكراه.

[٤] Chuang Tzu, Works, ch. 19.8, cited in: Allan Watts, Tao: The Watercourse Way, p 110.

الفصل الحادي عشر

(٢٧) يقول لاو تسو في الفصل الثاني، الفقرة ٦: «الوجود واللاوجود ينجم بعضهما عن بعض.» ويقول تشوانغ تزو: «النفي ينشأ عن الإثبات والإثبات ينشأ عن النفي. من هنا فإن الحكيم يصرف نظره عن الاختلافات والفوارق ويستمد رأيه من السماء. إن الـ «هذا» هو أيضًا «ذاك»، والـ «ذاك» هو أيضًا «هذا». هذا له خطؤه وصوابه، وذلك له خطؤه وصوابه أيضًا. هل هناك من فرق بين هذا وذاك؟ هل ليس من فرق بينهما؟ عندما لا تنظر إلى هذا وذاك باعتبارهما ضدين نكون في جوهر التاو … إن النفي والإثبات يتمازجان في الواحد اللانهائي.»[١]

لقد رأينا سابقًا كيف أنه في الجدلية التاوية لا وجود للمتناقضات والتعارضات بل للأقطاب المتعاونة حيث لا قيام لقطب بدون مقابله. وتتجلى هذه الجدلية القطبية بشكلٍ رئيسيٍّ في تعاون القطبين الأساسيين وهما الوجود والعدم (النفي والإثبات، الشكل والفراغ). ونحن إذا انتقلنا من الوعي المباشر بالأشياء إلى مستوى أعلى للوعي يتجاوز الثنائيات، أدركنا بشكل حدسي أن العدم هو ذات الوجود والوجود هو ذات العدم. يقول الحكيم تشي تشانغ، من القرن السادس الميلادي: «يدرك عموم الناس الأشياء كلها على أنها وجود، ولا يعرفون شيئًا عن اللاوجود، ولكن الحكمة البوذية تقول بأن كل الأشياء هي في الواقع فراغ ولا وجود. من هنا فإن القول بأن كل الأشياء وجود، هو الحقيقة في مستواها العام. والقول بأن كل الأشياء لا وجود، هي الحقيقة في مستواها الأعلى.»[٢]

---

[١] Chuang Tzu, Works, ch. 2, Chang Chung-yuan, Creativity and Taoism, p. 36.

[٢] Chuang Tzu, Works, Creativity and Taoism, p. 115.

في هذا الفصل يعطينا لاو تسو أمثلة عملية عن وظيفة اللاوجود، أو الفراغ، وضرورته بالنسبة للوجود أو الشكل، وعن تعاون هذين القطبين على المستوى الظاهري. فالدولاب لا يدور ويعطي حركة بدون الفراغ الموجود عند المحور، والإناء لا يصلح للاستعمال بدون الفراغ الذي يحتويه شكله الخارجي، والغرفة لا تصير مكانًا للسكن بدون الفراغ المتسع بين جدرانها. كل ما حولنا شيء أي شكل ووجود، ولكن الشيء لا يتخذ شكله ولا يكتسب وظيفته إلا بفضل اللاشيء، أو الفراغ أو العدم. ويمكن أن نضيف هنا، اعتمادًا على فكر لاو تسو أيضًا، بأن الفراغ أيضًا لا يوجد إلَّا حيث يوجد الشكل، وأنه لا معنى للاوجود إذا لم يكن مقترنًا بالوجود. كل الأشكال تقع في حيِّز من الفراغ، ولكن الفراغ يتوقف عن كونه فراغًا إذا زالت كل الأشياء التي تشغله.

الفصل الثاني عشر

(٢٨) يقارن لاو تسو هنا بين عالم السكينة الداخلي وعالم الضجيج الخارجي. فعندما يصل الإنسان إلى تحقيق التوازن الداخلي وهدوء النفس، لا يغدو بحاجة إلى الموسيقى المصطنعة والألوان المبهرجة ومذاقات الأطعمة الحادة والرياضات العنيفة. إن ما تتركه الموسيقى من أحاسيس ومشاعر، والرسوم والأصباغ من انطباعات، والأطعمة من مذاقات، والرياضة العنيفة من أثر جسدي ونفسي، كلها أمور آنية عابرة. إذا كنت من أهل الظاهر استمتعت بها، وإذا كنت من أهل الباطن لست بحاجةٍ إليها. ففي الصمت كل الأصوات الممكنة، وفي الأبيض كل الألوان الممكنة، وكل الحركات تئول أخيرًا إلى السكون. يقول تشوانغ تزو: «على المرء أن يتعلم كيف يرى وكل ما حوله ظلام، وأن يسمع وكل ما حوله ساكن. في الظلمة يمكنك أن ترى النور، وفي السكون يمكنك أن تستمع إلى الهارموني. بهذا تقدر على اختراق الأعماق وتتعرف إلى الروح.»[١]

التاوية تعلِّم التحرُّر من إغواء الحواس، والبحث عن الحقيقة في المركز الداخلي الساكن. غير أن هذا لا يعني قمع الحواس عن طريق الزهد والتنسك، بل تركها حرة تنشط بتلقائية من خلال اللافعل، وعدم التوقف عند الحدود السطحية لما تقدمه، بل الغوص نحو الهارموني الكلي الذي تتلاشى عنده مؤثرات العالم الخارجي. التاوي لا يرفض عالم الظاهر باعتباره وهمًا (= مايا) كما يفعل الهندوسي، بل يرى فيه سبيلًا إلى عالم الباطن.

---

[١] Chuang Tzu, Works, ch. 12, Chang Chung-yuan, Tao: A New Way of Thinking, p. 87.

إن ما أراد لاو تسو قوله هنا تعبر عنه قصة تروى عن الرسام وو تاو تزو، من القرن الثامن الميلادي:

«أنهى الرسام تحفته الفنية التي كان يعدها في عزلة وصمت لفترةٍ طويلةٍ من الزمن. وعندما جاء بها إلى البلاط الملكي حضر الإمبراطور لكي يشهد إزاحة الستار عن اللوحة. أزاح الفنان الغطاء عن رائعته فأدهشت الإمبراطور وحاشيته. وبينما كان الجميع يحدقون بإعجاب في التفاصيل الجميلة من غابات وسماء واسعة وسحب وأشخاص وطيور، أشار الفنان إلى نقطة في مركز اللوحة، وقال: انظر هنا يا مولاي، في هذا الكهف الجبلي تقيم الروح ثم صفَّق بيديه فانفتحت بوابة الكهف، وتابع قائلًا: إن ما وراء هذه اللوحة أكثر جمالًا مما ترونه على سطحها، دعني أقودك إلى هناك. وقبل أن يفيق الإمبراطور من دهشته لرؤية البوابة المفتوحة في اللوحة، خطا الفنان نحو الكهف وتلاشى وراء البوابة داخل الكهف. عند ذلك تلاشت البوابة وتلاشى الكهف، ثم تلاشت اللوحة تدريجيًّا بكل تفاصيلها وتحوَّلت إلى مساحة بيضاء لا أثر عليها لفرشاة.»[٢]

[٢] Chuang Tzu, Works, Creativity and Taoism, p. 95.

الفصل الثالث عشر

(٣٠) إن الاستحسان والتقريع أمران سيان بالنسبة للتاوي الذي ينجز عمله دون انتظار جزاء عنه، كلاهما يورث الإزعاج فلا هذا يدوم ولا ذاك. إذا تلقيت استحسانًا على عمل ما لا بد أن تتلقى تقريعًا على عمل آخَر. يُضاف إلى ذلك أن الاستحسان يجعل التاوي واعيًا لعمله الصالح. بعد أن كان يسلك بشكل تلقائي دون تدبير مُسبَق وإدراك للنتائج المُرتقَبة.

والتاوية في نظرتها هذه تختلف عن الكونفوشية التي تؤكد على ضرورة تكريم المجلين وتقريع المقصرين كوسيلة لإثارة الحوافز. إن الموقف الكونفوشي من مسألة الاستحسان والتقريع يعمل على زيادة الإحساس بالأنا لدى الأفراد ويرسِّخ قِيَم التنافس في المجتمع، بينما يعمل الموقف التاوي على كبح جماح الأنا الفردية، وتفتيح الذات التي لا تبحث عن جزاء من أي نشاط دنيوي تمارسه. وتتجلى أهمية الموقف التاوي بشكلٍ خاصٍّ في مجال الحكم والسياسة؛ لأن على الحاكم أن يكون أكثر الناس التزامًا بمبدأ الإنجاز الحر من أية رغبة في توكيد الأنا وتحقيق المجد الشخصي.

(٣١) المنصب العالي ليس ميزة بل هو عبءٌ ثقيلٌ. إنه يورث الإزعاج مثل جسد المرء. الجسد يتطلب رعاية دائمة؛ لأن نكران الأنا الفردية لا يعني عند التاوي نكران الجسد وتعذيبه بالصيام الطويل وتجنب سُبل الراحة، بل العكس هو الصحيح تمامًا، فمن خلال الجسد المتوازن السليم يستطيع المرء تحقيق وعي سليم من هنا، فإن مَن يحسن الحفاظ على جسده في حالة سليمة متوازنة، ويجنِّبه عواقب التطرف في الملذات مثلما يجنِّبه عواقب الزهد والتنسُّك، هو أكثر الناس صلاحية للحكم والسياسة. وحكم الدولة يشبه التحكم بالجسد. وهذا معنى قول المعلم: من يفضل رعاية جسده على حكم مملكة يمكن أن يعهد إليه رعاية مملكة.

الفصل الرابع عشر

(٣٢) التاو وراء الثنائيات وفيه تتلاشى الأقطاب. هو المتخلل في كل شيء، المحيط بكل شيء، الموجود في كل شيء، لا يمكن رؤيته، لا يمكن سماعه، لا يمكن لمسه. إنه وجودنا والطريقة التي يعمل بها عقلنا.

(٣٣) أكثر سطوعًا من أي نور، وأكثر عتمةً من أيِّ ظلام، جوهر النور وجوهر الظلام. عندما يلتقي أقصى النور وأقصى الظلام في واحد، ذلك هو الفراغ العظيم والعدم الخلَّاق الذي ينشأ عنه كل شيء. المركز الساكن الذي يدفع بكل حركة. متشكل في ظاهره فارغ في باطنه. متحرك عند محيطه ساكن عند مركزه. ليس له بداية أو نهاية، وأبده عينُ أزله. إذا قلنا إنه الصورة التي لا صورة لها، والشكل الذي لا شكل له، وقفنا أمام جدار الصمت وتساقطت الكلمات.

(٣٤) عندما تدرك هذا في أعماق ذاتك تعرف من أين أتيت وإلى أين تمضي. عندما تدرك جوهر التاو تدرك جوهر ذاتك، وعندما تدرك جوهر ذاتك تدرك جوهر التاو.

في وصفه للتاو يقول لاو تسو: «اسبقه لا ترَ له بداية، اتبعه لا ترَ له نهاية». ولكي أقرِّب هذه الصورة المبدعة التي تفتَّق عنها حدس المعلم، أستعين بنظرية أينشتاين النسبية بخصوص الضوء، وهو المطلق الوحيد في عالم الظواهر الفيزيائية. فلقد كشفت معادلات أينشتاين الرياضية والتجارب الفيزيائية العملية أن للضوء سرعة ثابتة مقدارها ٣٠٠٠٠٠كم/ثا. وما نعنيه بقولنا إن للضوء سرعة ثابتة هو التالي: إذا كنت تقود سيارة تنطلق بسرعة ١٠٠كم/سا وأمامك سيارة تسبقك بسرعة ١٥٠كم/سا، وقمت من مكانك بقياس سرعة السيارة الأمامية فإنها ستكون حتمًا ٥٠كم/سا. وهذا الرقم هو حاصل طرح السرعتين من بعضهما. أمَّا إذا كانت السيارتان تنطلقان نحو بعضهما في اتجاهين متعاكسين، فإن سرعة السيارة الأخرى مقاسة من مكانك ستكون ٣٥٠كم/سا، وهذا الرقم

هو حاصل جمع السرعتين المتعاكستين. إلا أن الضوء، وعلى عكس كل ما يتحرك في الطبيعة، يسير بسرعة ثابتة وبصرف النظر عن الوضع الحركي للمراقب. فإذا عمدت إلى قياس سرعة شعاع قادم إليك من مصدر ساكن لوجدتها ٣٠٠٠٠٠كم/ثا، وإذا تحركت نحو مصدر الإشعاع بسرعة ١٠٠٠٠٠كم/ثا لوجدت أيضًا أن سرعته ثابتة وهي ٣٠٠٠٠٠كم/ثا. والأعجب من ذلك أنك لو لاحقت شعاعًا هاربًا وأنت تتحرك بسرعة تصل إلى ٢٥٠٠٠٠كم/ثا لوجدت أيضًا أن سرعة الضوء ثابتة ولما استطعت أبدًا أن تقصِّر المسافة بينك وبينه؛ أي أنك لن تستطيع قط رؤية ضوء ساكن لا يتحرك.

الفصل الخامس عشر

(٣٥) الحكيم التاوي رقيق وفهيم لا يسبر لمعرفته غور. لا تستطيع العين تمييزه لأنه لا يحب الظهور ولا ادعاء المعرفة والتفوق على الآخرين. ورغم أنه قد حقق الاستنارة فإنه يسلك بشكلٍ عاديٍّ وطبيعي مثل كل الناس. لا يراه أحد لأنه لا يرى في نفسه شيئًا خاصًّا. لقد حقق التلقائية باتباع اللاجهد واللافعل.

سأل بعضهم الحكيم المعاصر ت د. سوزوكي: كيف يشعر مَن حقَّق الاستنارة؟ فأجاب: إنه شعور غير متميز مثل أي شعور آخر في الحياة اليومية، ما عدا أنك فوق الأرض ببضعة سنتميترات.[١]

يَرِد في هذه الفقرة تعبير سوف يتكرر مرارًا في الفصول اللاحقة وهو: الجلمود الخام. فالحكيم التاوي كما يصفه المعلم هنا: ليِّن كثلج يذوب وصلب كالجلمود الخام. أي أنه بسيط وطبيعي، لا يسلك وفق قواعد موضوعة مسبقًا بل يترك نفسه على سجيتها؛ لأن النفس المتروكة على سجيتها قادرة على تحقيق ذاتها والتناغم مع الآخرين ومع العالم. الصخرة الخام تشبه الذات المنفتحة التي لا تشعر بالحدود الفاصلة بينها وبين الذوات الأخرى، أمَّا الصخرة المنحوتة التي اتخذت شكلها النهائي كشيء من الأشياء، فتشبه الأنا المغلقة التي تعيش وهم تميزها وتفرُّدها. إنسان الجلمود الخام يعرف اللوائح والقوانين والتشريعات، ولكنه قادر على العيش بدونها متبعًا قانون الطبيعة، أمَّا إنسان الجلمود المنحوت فلا يستطيع العيش إلا ضمن قوالب موضوعة مسبقًا والسلوك وفق لوائح الصح والخطأ، غير عارف بأن الصح والخطأ في داخلنا لا في حرفية الشريعة.

---

١ Alan Watts, Tao: The Watercourse Way, p. 42.

والحكيم مجوف وفارغ مثل الوادي. عقله مثل مرآة تعكس الكون، والكون مرآة تعكس العقل، لا هذا يمارس قسرًا على ذلك، ولا ذاك يمارس قسرًا على هذا. العقل جزء من صيرورة الطبيعة، وهو عندما يحاول تفسير الطبيعة من خلال الأفكار والمفاهيم، يكون مثل السيف الذي يحاول أن يقطع نفسه أو العين التي تحاول أن ترى نفسها. ذلك أن الأشياء وأفكارنا عنها شيءٌ واحدٌ، الذات وموضوعاتها تجتمع في كلٍّ لا ينفصم. يقول الشاعر التاوي:

عندما تصدح الطيور في ذرى الأشجار
تحمل معها أفكار الحكماء الأوائل
عندما تتفتح الأزهار البرية في أعالي الجبال
يحمل شذاها أعمق المعاني.[٢]

(٣٦) في قوله: سديمي كماء عكر، إشارة إلى عقل الحكيم. فعقل الحكيم مثل بقية الناس يمتلئ بالأفكار التي تُشبه العكر في الماء، ولكن ما يميزه عن الآخرين أن هذه الأفكار تترسب إلى القاع في أحوال التأمل، وتعود إلى الحركة في الأحوال الطبيعية، فهو قادر في أيِّ وقت على التخلص من تأثيرها لكي يرى الأشياء في «ذاتوتيتها» بعيدًا عن التجريدات الذهنية وتوسيط الرموز.

إن التأمل الباطني عند التاوي لا يهدف بشكلٍ مباشرٍ إلى تحقيق الاستنارة، فمثله مثل أي عمل آخَر يقوم به دون هدف مسبق وبصرف النظر عن توقع نتائج معيَّنة. التأمل الباطني وضع يحقِّق للنفس الحالة التلقائية الطبيعية ويضعها في الحاضر السرمدي. تقول أبيات من شعر الزن:

لا يوجد من حولنا ما هو مخبوء وخافٍ
منذ القِدَم كل شيء واضح كوضوح النهار.

وأيضًا:

الصنوبرة العتيقة تنطق بالحكمة المقدسة
وهذا الطير ينبئ بالحقيقة الخالدة.[٣]

---

[٢] Chuang Tzu, Works, Creativity and Taoism, Op. Cit., p. 113.

[٣] R. Sohl and A. Carr, The Gospel According to Zen, Mentor Book 1970. p. 39.

من هنا فإن التاوي يرى في أساليب التأمل البوذية والهندوسية جهدًا لا طائل من ورائه، لأن المتأمل يركز عقله على فكرة الاستغراق الباطني ويمارس القسوة على مَلَكاته النفسية، من أجل تحقيق حالة السكون الداخلي بهدف الوصول إلى الاستنارة. لقد انقسم عقله إلى شطرين، واحد يتأمل وواحد يترقب النتائج. أمَّا عقل التاوي فموحد، إنه لا يطلب الوصول إلى ما تسميه البوذية بطبيعة البوذا؛ لأن طبيعة البوذا لم تفارقه قط. يقول بيتان من شعر الزن:

خذ إليك واحدة من هذه الأعشاب،
انصبها بدلًا من تمثال البوذا.[٤]

(٣٦-أ) جاء أستاذ جامعي إلى حكيم الزن المعاصر نانْ إنْ ليتعلَّم الزن على يديه. جلس الاثنان إلى طاولة الشاي، وقام المعلم بصبِّ الشاي في كأس ضيفه حتى امتلأت، ولكنه تابع السكب وأخذ السائل يطفح من الكأس. وعندما لم يَعُد الضيف قادرًا على ضبط نفسه تجاه ذلك قال: ولكن الكأس قد امتلأت ولن تستوعب المزيد من الشاي! هنا توقف المعلم عن السكب وقال: الأمر كما ترى أيها السيد، الكأس المليئة لا يمكنها استيعاب المزيد. لقد جئتني وأنت مُتخم بالأفكار والمفاهيم والآراء الثابتة، فكيف أستطيع أن أعلمك الزن إذا لم تفرغ كأسك أولًا؟[٥]

في العقل المليء بالأفكار الجاهزة والمعتقدات الناجزة لا مكان للتاو، لذا فرجل التاو فارغ من الأفكار التي يحكم بها على الأمور. وهذا معنى قول المعلم في هذه الفقرة:

صاحب هذا الطريق لا يرغب في الامتلاء،
ولأنه يبقى غير ملآن
يبلى ويتجدد على الدوام.

---

[٤] Ibid, p. 40.

[٥] Ibid, p. 52.

الفصل السادس عشر

(٣٧) سأل التلميذ تشاو تشو معلمه تشو آن: «ما هو التاو؟ أجاب الحكيم: إنه وعيك الطبيعي. سأل التلميذ: كيف يستطيع الإنسان أن يتوافق معه؟ أجاب الحكيم: عندما تقصد التوافق معه تنحرف عنه. سأل التلميذ: ولكن كيف نستطيع معرفته دون قصد؟ أجاب الحكيم: لا ينتمي التاو إلى مجال المعرفة ولا إلى عدم المعرفة. المعرفة فهم زائف، واللامعرفة جهل أعمى. هل تريد فهم التاو؟ انظر إذَن إلى السماء الفارغة.»

تروي الأدبيات التاوية هذه الحوارية بين كونفوشيوس وواحد من تلامذته: «جاء المريد إلى معلمه ليُطلعه على مدى تقدمه في تطوير نفسه، وقال له: لقد نسيت المعايير الخلقية التي تميز التقوى والصلاح. فقال المعلم: هذا جيد ولكنه ليس بكافٍ. بعد مدة عاد التلميذ وقال للمعلم: لقد نسيت الطقوس والموسيقى الشعائرية. فقال المعلم: جيد جدًّا ولكنه ليس بكافٍ. في المرة الثالثة جاء التلميذ وقال: لقد جهلت نفسي في جلسة التأمل. فقال المعلم: ماذا تعني بقولك؟ قال التلميذ: أعني أني قد تحررت من هيئة الجسد وتجاوزت السمع والبصر، من خلال السمو عن الهيئة الجسدية وتجاوز الحواس تتطابق مع اللامتناهي. هذا ما أعنيه بقولي إني قد جهلت نفسي في جلسة التأمل.»

في جلسة التأمل التي أشار إليها المعلم بقوله هنا: أتأمل الفراغ المطلق، ألبث في سكون. يطابق التاوي بين نفسه وبين العالم الذي يحصل دفعة واحدة، وتنشأ عناصره كلها في تواقت معًا دونما سببية خطية. الكون يحصل في آنٍ معًا وعبر عدد لا يُحصَى من المتغيرات المترابطة بطريقة مُحكَمة لا يمكن معها حذف متغير واحد دون الإخلال بنظام الكون برمته، وحيث يحتوي كل عنصر من العناصر على الكل ويتخذ الكل معناه من الأجزاء. وهذا معنى قوله:

الآلاف المؤلَّفة تنشأ في تواقت معًا.

إن أصغر مكوِّن من مكونات الأرض يسير في توافق مع الشمس والقمر والنجوم والمجرات، وجوده مرتبط بها ووجودها مرتبط به. الكون يتطلب الوعي الذي يستوعبه والوعي يتطلب الكون موضوعًا له. وهذا ما يُدعى في التاوية بالنشوء التزامني. في النشوء التزامني يسير كل متغير في طريقه الخاص ضمن هارموني كوني متكامل، حيث يصب كل طريق في الطريق الكلي، وحيث الطريق الكلي ناتج للصيرورة الحرة لكل متغير. وهذا معنى قوله:

الآلاف المؤلَّفة في حركة دائبة
ولكنها تعود إلى أصولها.

وأصل الآلاف المؤلفة هو التاو الساكن الذي تنشأ منه الحركة ثم تعود إليه في دورة مستمرة. التاوي يرى إلى الثابت من وراء المتحرك. الثابت هو مصير الوجود وأم الحركة. وتركيز العقل على الثابت يكشف البصيرة. وهذا معنى قوله:

العودة إلى الأصول تعني السكون
السكون يعني العودة إلى مصير الوجود
العودة إلى مصير الوجود تعني الثبات
معرفة الثبات تفتح البصيرة.

نحن في الحقيقة ولكننا غافلون عنها، وباستخدام المصطلح البوذي نحن في النيرفانا ولا داعي لأن نسعى إليها، كلما سعيت إليها كلما قصرت عن بلوغ الهدف. كن مع حركة الكون ولا تحاول فهمه بعقلك تنفتح عينك الداخلية على: مَن أنت؟

(٣٨) التاوي يمارس الفعل وهو عارف بالثبات. يرى المتغير ويعرف الثابت الذي يسند كل متغير. رؤية الثابت في كل متغير بقاء في الأبدية.

الفصل السابع عشر

(٣٩) تبدأ هنا آراء لاو تسو السياسية بالوضوح. فالحاكم التاوي يفعل من خلال اللافعل، ويترك الأمور تسير في المجتمع سيرها في حياة الطبيعة. فإذا اتخذ كل شخص في المجتمع مساره التلقائي الطبيعي دون تلقين أو قسر أو إكراه، ساد التناغم في المجتمع مثلما يسود التناغم في الكون. من هنا فإن أفضل الحكام من شابه الظل عند رعيته، فلا يشعرون بوجوده أو بوطأته. يليه الحاكم الذي يحبون ويمدحون. ولاو تسو هنا يقول لنا ضمنًا إن محبة الرعية للحاكم تعني شعورهم بوجوده وممارسته للفعل القصدي للحكم، في مقابل اللافعل الذي يجعله مثل الظل. يليه الحاكم الذي يخافون ويرهبون، لأن ممارسة الفعل سوف تقود الحاكم إلى ممارسة القمع سواء بنية سيئة أم بنية طيبة. يليه الحاكم الذي يكرهون ويحتقرون، وهو أسوأ نموذج للحاكم.

(٤٠) يتميز الفكر الصيني عمومًا بموقفه الإيجابي من الطبيعية البشرية وثقته الكاملة بها. ولا يوجد في الثقافة الصينية ما يُشبه مفهوم الخطيئة الأصلية، أو النظر إلى الطبيعة الإنسانية باعتبارها شريرة من حيث المبدأ، وتتطلب الصقل والتطهير. من هنا يؤكد لاو تسو في هذا المقطع على ضرورة ثقة الحاكم بالناس وطبيعتهم الأصلية، وإلى درجة تبلغ وضع الثقة فيمَن يستحقها ومَن لا يستحقها. لأننا إذا سحبنا ثقتنا ممَّن هو غير أَهْل لها ساعدناه على توكيد مواقفه وتوجهاته السلوكية، وإذا منحناه إيَّاها ساعدناه على تغيير نفسه. على الحاكم أن يثق بالناس أولًا لكي يكون جديرًا بثقتهم.

(٤١) عندما يكمل الحاكم مهامه على هذا الوجه، تأتي النتائج وكأنها تحصيل حاصل، دون أن يبدو أن للحاكم يدًا في ذلك. وهذا أقصى ما يمكن أن يطمح إليه الحاكم التاوي، الذي لا يبغي من وراء السلطة توكيد ذاته وتحقيق أمجاد شخصية له.

الفصل الثامن عشر

(٤٢) يقول تشوانغ تزو في وصف الحالة الأولى للإنسان، قبل أن تتحول المجتمعات من حالة الجلمود الخام إلى حالة الحضارة: «كان الناس في تلك الأيام مستقيمين في سلوكهم دون أن يعرفوا أن في ذلك صلاحًا، كانوا يحبون بعضهم بعضًا دون أن يعرفوا أن في ذلك خيرًا. كانوا مخلصين دون أن يعرفوا أن في ذلك صدقًا، كانوا يساعدون بعضهم بعضًا دون أن يعرفوا أن في ذلك أخذًا وعطاءً؛ لذا فإن أعمالهم لم تترك أثرًا، ولا نملك سجلًّا عن شئونهم.»[١]

يرى لاو تسو في هذا الفصل أن تعاليم الاستقامة وأفعال الخير لا ضرورة لها عندما يعيش الناس وفق طبيعتهم الأصلية، وأن طاعة الوالدين هي من نافلة القول عندما تعيش الأسرة في تماسكها الأصلي، وأن المفكرين الذين يعملون على إصلاح المجتمع لا مكان لهم عندما يسود التناغم علاقات الأفراد والجماعات، وأن الوزراء المخلصين ليسوا ضرورة لدولة تسير وفق القوانين الطبيعية للكون. وبتعبير آخر، عندما يسود التاو في المجتمع مثلما يسود في الكون الطبيعي تفقد التعاليم الأخلاقية ضرورتها؛ لأن مثل هذه التعاليم هي بنية مصطنعة مفروضة من الخارج ولا تنبع من داخل الإنسان. ونحن مهما بالغنا في فرض اللوائح الأخلاقية الصارمة، فإن مثل هذه اللوائح لن تكون فعَّالة إذا لم تكن المرجعية الأخلاقية للإنسان هي ذاته بالدرجة الأولى. وكما أن القطة تحب صغارها دون أن يعلِّمها أحد كيف تحب، كذلك ينبغي أن يكون سلوك الفرد نحو الآخرين.

---

١ .Chuang Tzu, Works, ch. 12, Chang Chung-yuan Tao: A New Way of Thinking, p. 95

الفصل التاسع عشر

(٤٣) لكي نفهم مضمون هذا الفصل لا بد من شرح مفهوم المحبة لدى كلٍّ مِن الحكمة الكونفوشية والحكمة التاوية. تدعو الكونفوشية المحبة: jen. ويتخذ هذا المفهوم مكانةً مركزيةً في الفكر الكونفوشي. تقوم المحبة الكونفوشية على أساس من التمييز العقلي الذي يُدعى yi، والذي يقوم عليه النظام الكونفوشي برمته. فالإنسان ذو طبيعة عقلية بالدرجة الأولى. ولكي يحقق طبيعته العقلية هذه عليه بالدرجة الأولى أن يقوم بواجباته الأخلاقية بعيدًا عن الهوى الشخصي والرغبات الفردية. فإذا قام الفرد بما يتوجب عليه القيام به، وأحجم عن القيام بما لا يتوجب عليه القيام به، تحققت فيه الفضيلة. أمَّا معياره في ذلك فهو لائحة بالمعايير الأخلاقية والسلوكية تُدعى Li، وتغطي كل أنواع العلاقات الشخصية والاجتماعية تقريبًا وكل أنواع الطقوس والعبادات. فإذا واجه الفرد موقفًا مستجدًّا لم يجد له مرجعية في اللوائح الأخلاقية، عليه أن يلجأ إلى محاكمته العقلية الخاصة من أجل تطبيق قاعدة فقهية عامة على مسألته الخاصة تلك. وهذا ما يُدعى chih، أي الحكمة. هذا النوع من الحكمة وهذا الشكل من فقه السلوك والأخلاق هو ما يرفضه لاو تسو عندما يقول:

إذا استبعدت الفقهاء والحكماء
يفيد الناس أضعاف مضاعفة
إذا ألغيت تعاليم الاستقامة وأفعال الخير
يعود الناس إلى محبة بعضهم بعضًا.

إن الموقف التاوي من مفهوم المحبة يناقض الموقف الكونفوشي، وفي مقابل مفهوم الـ jen ذي الطبيعة العقلية الباردة، تطرح التاوية مفهومًا آخر يُدعى tzu. والكلمة كما يفهمها التاويون لا تشير إلى المحبة كفعل مشخص، بل إلى المصدر الأصلي والبدئي للمحبة

المزروع في صميم الكون وفي صميم النفس الإنسانية. هذه المحبة التاوية لا تقوم على أساس من التمييز العقلي ورجوع إلى لوائح أخلاقية، بل تفعل من داخل الإنسان إذا ترك نفسه على سجيتها وتخلص من تعاليم الفقهاء وحكماء الشريعة. من يسلك وفق قواعد أخلاقية مقررة سلفًا فإنما يسلك بشكلٍ لا أخلاقي، ومن يحب جاره تطبيقًا لتعاليم متعارف عليها لا يعرف شيئًا عن الحب، ومَن يرعَ أولاده خوفًا من القانون ومِن تقولات الناس لا يعرف شيئًا عن الأبوة.

(٤٤) فإذا عاد الجميع إلى طبيعتهم الأصلية غير المصقولة، تلمس كل واحد في صميمه ذلك المنبع الحقيقي للمحبة، وسلك بشكلٍ تلقائيٍّ فأحب دون أن يسمي ذلك حبًّا، وتعاطف دون أن يسمي ذلك تعاطفًا، ورفق بالحيوان دون أن يُسمي ذلك رفقًا، وأطاع الوالدين دون أن يُسمي ذلك برًّا. لقد تخلص من زينة الأخلاق ليسلكها.

ويبدو لاو تسو، الذي عاش قبل ٢٥٠٠ سنة، شاهدًا معاصرًا على ما يجري في مجتمعاتنا الحديثة من تقدير للكسب وتجميع للثروات، وما ينتج عن ذلك من سعي محموم للاغتناء غير المشروع، وسلسلة النهب التي تبدأ من نهب واستغلال الآخرين لتنتهي بنهب واستغلال الطبيعة وتدمير البيئة. وهو عندما يقول: إذا أوقفت تقدير الشطارة والكسب، يختفي اللصوص وقُطَّاع الطرق، لا يعني باللصوص وقُطَّاع الطرق أولئك الجائعين الذين يسطون على لقمة العيش اليومية، بل أولئك الذين يعيشون في قصور فارهة وحدائق غَنَّاء نتيجة ما كدَّسوه من مالٍ حرامٍ. ففي الوقت الذي تغصُّ به السجون بصغار الحرامية، يتربع كبار اللصوص في سُدَّة المناصب العليا، وينظر الناس إليهم بإكبارٍ وإجلالٍ على أنهم «شُطَّار» وأفراد ناجحون في الحياة.

الفصل العشرون

(٤٥) لكي نفهم قول لاو تسو هنا: تخلَّ عن المعرفة تدع الهم والقلق، نعود مرة أخرى إلى المقارنة بين الكونفوشية والتاوية في نظرتهما إلى المعرفة. فالكونفوشية تشغل نفسها بمسائل الأخلاق والتشريعات والتربية والطقوس، وبشكلٍ عامٍّ كل ما يُشكل معرفة تقليدية. أمَّا التاوية، فإنها تنبذ هذا النوع من المعرفة، وتركز بالمقابل على المعرفة غير التقليدية التي لا تأتي عن طريق دراسة التعاليم وتطبيقها، بل عن طريق استلهام الطبيعة الأصلية للإنسان. من هنا فإن الجهل بالمفهوم التاوي هو جهل بفقه المتفقهين وحذلقة المشرعين، واستبعاد لأية سلطةٍ معرفيةٍ غير سلطة الإدراك الحسي السليم. إنه أشبه بالمفهوم السقراطي للجهل.

وهناك نوعان آخران من المعارف التقليدية التي تنبذها التاوية؛ الأول هو البحث الميتافيزيكي الفلسفي في مسائل ما وراء الطبيعة اعتمادًا على المنهج العقلي في البحث والبرهان، فمثل هذا البحث جهدٌ لا طائل من ورائه بالنسبة للتاوي، لأنه لا يرى في العقل المنطقي الوسيلة المناسبة للخوض في مثل هذه المسائل، بل الأحرى بها أن تُترك لمَلَكات الإنسان الحدسية وعرفانه الباطني. أمَّا النوع الثاني فهو الانكباب على الطبيعة من أجل فهمها وتمحيصها والكشف عن حقيقتها باتباع المنهج العلمي التجريبي الذي يشكو من علة التجزئة. فنحن عندما ندرس ظاهرة ما من الظواهر الطبيعية نقوم بعزلها عن محيطها وتجزئتها وتحليلها، وكأن هذه الظاهرة تحدث بشكلٍ مُستقلٍّ عن بقية ما لا يُحصَى من الحدوثات.

إن العالم يحدث كله دفعة واحدة وفي ترابط تام، في الوقت الذي نقوم فيه بدراسة واحد من أحداثه وكأنه الحدث الوحيد. مثل هذه المعرفة أمر نسبي وعرضة للتغير والتبدل، لأننا كلما استطعنا ربط مجموعة أكبر من الأحداث كلما تغير فهمنا للحدث موضوع الدراسة.

ولكننا لن نستطيع قط التوصل إلى فهمٍ كاملٍ للحدث المعزول، لأن الأشياء تنشأ في تواقت معًا وبشكلٍ تزامني كما قال المعلم في فصل سابق، ويتبع ذلك أن فهم كل ما يحدث في العالم هو فوق أية إمكانية بشرية. هذا الجدار المصمت قد وصلت إليه الفيزياء الحديثة الكوانتية في بحثها عن مكونات المادة وبنيتها. فقد اكتشفت أنه على مستوى الجزيئات الصغرى لا توجد حركة بالمعنى الذي نعرفه، ولا توجد مكونات أساسية للمادة يتمتع كل منها بوجودٍ مستقلٍّ، وأن أصغر أجزاء المادة ليس إلا تجريدًا وعرضًا من أعراض الكل الكبير.

على أنه يجب التوكيد هنا على أن التاوية ليست ضد المعرفة العملية التي تتيح للإنسان التعامل مع عالمه اليومي وتطوير أفضل الأساليب التي تحقق له توازنًا تامًّا مع بيئته. ومعرفته العملية هذه تختلف عن المعرفة النظرية التي تستخدم المناهج العلمية في سبيل فهم وكشف أسرار الطبيعة، لأن التاوي يقف عند حدٍّ وصف الظواهر وتصنيفها وتبويبها دون أن يعتقد بإمكانيته على فهمها وفهم طبيعة مجرياتها والكشف عن أسرارها الدفينة. وبتعبيرٍ آخر، فإن الحقيقة ليست موضوعًا للمعرفة التقليدية ولا تستطيع اختراقها متسلحًا بالمناهج العقلية التجريبية. يقول حكيم الزن بو تشانغ، مؤلف كتاب رسالة في أساسيات مبدأ العقل، عام ٨٥٠ ميلادية: «لقد أسماه الحكماء القدماء بالتاو. ولكنكم يجب أن لا تبنوا أي مفهوم حول الاسم. وهذا معنى القول المأثور: الشبكة للإمساك بالسمك، فإذا أخذت السمك انسَ الشبكة، عندما يحقق العقل والجسم التلقائية نصل إلى التاو ونفهم العقل الكوني ... أهل الأيام السالفة تركوا التعلم وثبتوا في التلقائية. أهل هذه الأيام يحشون أنفسهم بالمعلومات ويتكلون على الشروحات المكتوبة، ثم يدعون ذلك ممارسة روحية.»

(٤٦) صاحب هذه المعرفة ينفذ من الثنائيات المتبدية في عالم الظواهر إلى الوحدة الجوهرية التي تئول إليها. وهذا معنى قول المعلم:

بين النعم واللا هل هنالك من فرق؟
بين الخير والشر كم بعيدة هي المسافة؟
وكان المعلم قد عالج هذه الفكرة في الفصل الثاني عندما قال:
الوجود واللاوجود ينجم بعضهما عن بعض
القَبل والبَعد يتبع بعضهما بعضًا.

كما عالجها تشوانغ تزو في مقطع اقتبسناه سابقًا يقول فيه: «النفي ينشأ عن الإثبات، والإثبات ينشأ عن النفي، من هنا فإن الحكيم يصرف نظره عن الفوارق ويستمد رأيه من السماء.»

(٤٧) لأن الحكيم يستمد رأيه من السماء فإنه مستقلٌّ في وجهات نظره ولا يأبه لما هو مؤسس ومتعارف عليه بين الناس. إنه يعتمد على المصدر الثابت للحقيقة، لا على اجتهادات الفقهاء والمُشرِّعين. وهذا معنى قوله:

ما يخافه الآخرون، عليَّ أن أخافه أيضًا!
إنه لأمر سخيف.

(٤٨) جموع الناس تروح وتجيء كأنها في عيد أو احتفال، ولكنها في حقيقة الأمر تسعى محمومة وراء الكسب المادي، واكتساب رموز التفوق والجاه في المجتمع. الأغنياء يكدسون ما لا حاجة لهم به، والفقراء يكدون من أجل خبز يومهم، فإذا أسعد واحدهم الحظ حاول التشبه بالأغنياء وسلك سلوكهم. أمَّا الحكيم الذي عرف القناعة والرضى فخامل لا تصدر عنه إشارة في مواجهة هذا السعي المجنون. يزداد دون أن يصل إلى الامتلاء، رغم أنه لا يمتلك شيئًا ولم يختزن أو يكدس شيئًا. الساعون في دروب الحياة يتمتعون بطمأنينةٍ زائفة تزودهم بها المعارف التقليدية، أمَّا الحكيم فهائمٌ على وجهه كمَن لا بيت عنده يئوب إليه، لأنه اتخذ من نفسه المرجعية المعرفية الوحيدة. عامة الناس تتباهى بالذكاء ومعرفة من أين تُؤكل الكتف، وتتنافس لإثبات نفسها في كل مجال، والحكيم خامل وهامل وغافل، ساكن مثل صَفْحة الماء الهادئ، يرضع من نبع الحقيقة.

الفصل الحادي والعشرون

(٤٨) يقول الفيزيائي البريطاني المعاصر بول ديفيس في كتابه، The Mind of God، أي عقل الله، ما يأتي:

لقد ناقشت في الفصل الثاني من هذا الكتاب فكرة مفادها أن العالم قادر على خلق نفسه من خلال القوانين الطبيعية، وهذه النتيجة مؤسسة بشكلٍ خاصٍّ على تطبيق الفيزياء الكمية على علم نشوء الكون. مع وجود القوانين لا يغدو وجود العالم معجزة في حدِّ ذاتها. وبتعبيرٍ آخر فإن قوانين الفيزياء هي بمثابة الأساس التحتي للوجود، إنها الحقائق الخالدة التي بُنِي عليها الكون (ص٧٣) ... ورغم أن مفهومنا عن العالم باعتباره نظامًا محكومًا بواسطة قوانين طبيعية غير ظاهرة للعيان، هو مفهوم قديم جدًّا، إلا أننا لم نكتشف الوسائل اللازمة للكشف عن النظام الخفي للعالم إلا خلال القرون الثلاثة الماضية. نحن نعرف الآن أن هندسة الكون قد بُنِيت على قواعد شمولية خفية يمكننا أن ندعوها بالشيفرة الكونية (ص٧٩) ... تتمتع القوانين الطبيعية بالخصائص الآتية:

(١) الشمولية: فهي تسري في كل مكان وعبر كل زمان من تاريخ الكون دون استثناء.

(٢) الإطلاق: أي أنها ثابتة من جهة، ولا تعتمد في فعاليتها على شيءٍ آخر، بينما تعتمد عليها كل المنظومات الفيزيائية.

(٣) السرمدية: أي إنها لا زمنية. وتنعكس سرمدية ولا زمنية القوانين في البنى الرياضية المستخدمة في وضع نماذج للعالم الفيزيائي.

(٤) كلية المعرفة والقدرة: أي لا شيء يفلت من سيطرتها، ولا تحتاج إلى تزويدها بالمعلومات من قِبَل أية منظومة فيزيائية عن أحوالها المتغيرة، لكي يقوم القانون بإصدار التعليمات الخاصة بكل حالة (ص٨٢–٨٣).

فإذا كانت الحقيقة الفيزيائية قائمة، فإن هذه القوانين تتمتع بوجود مستقل بمعنى ما ... إنها حقائق موضوعية عن العالم تتبدَّى لنا في صِيَغ رياضية (ص٨٤).

والقوانين الطبيعية وحدها لا تصف وتفسر الأحداث الفيزيائية، بل لا بد من عنصر متغير يتعاون معها هو الأحوال الابتدائية للحادثة. فالقانون البسيط مثلًا، الذي يعلمنا أن رمي حجر في الهواء يؤدي إلى رسم قطع ناقص، لا يكفي لوصف شكل القطع الناقص هذا. فهنالك قطع طويل وقطع قصير، قطع عالٍ وقطع منخفض. إن شكل القطع هنا يعتمد على الأحوال الابتدائية للحدث، والتي تتمثَّل هنا بقوة الدفعة الأولى وعدد آخر من المتغيرات. وهكذا نجد أن الأحوال الابتدائية لكلِّ حدث تجد تفسيرها في شبكة من الأحداث السابقة، وفي الأحوال الابتدائية لهذه الأحداث السابقة، ثم إن دائرة السبب والنتيجة تتسع لتشمل الكون بأسره وصولًا إلى لحظة الانفجار البدئي الكبير الذي نشأت عنه المجرات، وأخذت تتباعد عن بعضها منذ ذلك الوقت قبل خمسة عشر مليارًا من السنين. ولكن ما هي الشروط الابتدائية التي سبقت لحظة الانفجار الأعظم؟ في الواقع هذا ما لا يمكننا القول فيه. إلا أن الأحوال الابتدائية للانفجار الأعظم هي «أمر معطى» شأنه في ذلك شأن القوانين؛ لأنه إذا كانت الأحوال الابتدائية لمنظومة فيزيائية ما يمكن البحث عنها في منظومة فيزيائية أخرى، وفي مجال أعلى وأوسع وسابق زمنيًّا، فإن لحظة الانفجار الكوني الأعظم هي اللحظة الأولى التي لا نستطيع البحث وراءها عن منظومة أخرى وفي مجال أوسع وأعلى وسابق زمنيًّا. ذلك أن تلك اللحظة هي الأولى ولا نستطيع البحث وراءها عن منظومة أخرى ومجال أوسع وزمن أبعد (ص٨٧-٨٨). إن التمييز هنا بين القوانين الطبيعية والأحوال الابتدائية يتوقَّف. (ص٩١).

يناقش بعض الفيزيائيين بأن القوانين الطبيعية قد ظهرت إلى الوجود مع ظهور العالم الفيزيائي، فإذا كان الأمر كذلك، فإننا لا نستطيع أن نفسِّر ظهور العالم بواسطة القوانين الطبيعية، لأن هذه القوانين لا تتمتع بوجود سابق على العالم، وبالتالي لا يمكن أن تكون سببًا له، أمَّا إذا كانت القوانين سابقة على العالم، وهو ما يقوم عليه تفسيرنا هنا، إذا كان للقوانين وجود مفارق للعالم، كان لدينا بداية تشرح لماذا هو العالم على ما هو عليه الآن. إن فكرة القوانين المفارقة هي معادل حديث للفكرة الأفلاطونية عن عالم الماهيات، عالم الأشكال الكاملة التي هي بمثابة المخططات الأصلية لعالمنا.[١] (ص٩١-٩٢).

---

١ Paul Davies, The Mind of God, Penguin Book 1992, pp. 79–91.

هذه المخططات الأصلية التي تنطوي عليها القوانين الطبعية المفارقة، تقرِّبنا من مفاهيم «الصورة» و«الجوهر» و«الماهية الأصلية» المزروعة في صميم التاو، حيث قال لاو تسو في هذا الفصل:

التاو معتم ولا متمايز
ومع ذلك ففي صميمه صورة
معتم ولا متمايز
ومع ذلك ففي صميمه جوهر
معتم ولا متمايز
ومع ذلك في صميمه ماهية أصلية
فيها الحقيقة الناصعة.

(٤٩-أ) يقول لاو تسو في هذه الفقرة:

منذ القِدَم إلى يومنا هذا
لم يفارقه اسمُه
دليلنا إلى مصدر الأشياء طرًّا.

ولكنه يقول في الفصل ٣٢ لاحقًا:

التاو يبقى أبدًا بدون اسم.

قد يبدو في ذلك تناقض للوهلة الأولى. ولكننا يجب أن نتذكر أن كلمة التاو تعني الطريق، والطريق عند لاو تسو هو التيار الكلي الخفي الذي يحرك كل شيءٍ، ويجعل كل الطرق ممكنة رغم أنه ساكن وثابت في جوهره. الاسم يدل على شيء محدَّد معروف وموصوف وثابت، أمَّا التاو فصيرورة دافقة مستمرة. من هنا فإن الاسم تاو ليس اسمًا بالمعنى المُتعارف عليه بل إشارة لِمَا لا يمكن تسميته أو وصفه بكلمات. وضرورته هنا تأتي من أجل توجيه وعي المتأمل إلى الحركة الكلية الكونية التي هي مصدر الأشياء طرًّا، على حدِّ قول النص.

الفصل الثاني والعشرون

(٥٠) يفتتح هذا الفصل فلسفة لاو تسو في اللِّين، وهي الفلسفة التي سيتابع شرحها في فقرات عديدة مما سيلي من الفصول. التاو يفعل دون قسر أو إكراه، وصورته في الطبيعة هي الماء الذي يشق طريقه ويصل إلى غايته دون جهد. والتاوي الذي تماثلَ مع التاو ينسج على منواله فينشط من خلال اللافعل واللاجهد، وتتسم كل مبادراته باليسر واللِّين لا بالعُسر والقوة. إنه ينحني لكي يغلب، وينطوي لكي يستقيم، ويفرغ لكي يمتلئ، يبدو باليًا ولكنه متجدِّد على الدوام، يأخذ القليل من متاع الدنيا ولكنه يكسب الكثير من متاع الرُّوح. إنه مع الواحد الذي يتجاوز الثنائيات. يجعل من نفسه أمثولة للآخَرين بدلًا من أن يسير على خُطاهم.

والحكيم في سلوكه يصدر عن موقف متجاوز للأنا الفردية المنغلقة. إنه لا يؤكِّد ذاته في مقابل الآخَرين ولا يدخل في تنافس معهم. إنه لا يحاول إظهار نفسه ولكنه يبرز للعَيان، لا يتمسَّك بآرائه ومواقفه ولكن آراءه ومواقفه تلقى القبول، لا يتفاخر ولكنه يوضع في المكانة اللائقة، لا يتبجَّح ولكن الجميع يعترفون به. وهو إذ يحوز على ذلك كله دون قصد أو سعي، إنما يعتبره زينة خارجية ومتعة زائلة، فلا يُعوِّل عليه، لا يرفضه ولا يقبله أيضًا.

وبما أنه لا يُباري أحدًا ولا يدخل في منافسة مع أحد، فإنه لا يغلب ولا يتعرَّض للهزيمة. إن كل نصر تعقبه خسارة، وكل خسارة يعقبها نصر، وما من قوي إلا وهنالك مَن يفوقه قوة. فلماذا تسعى وراء موقف زهو عابر؟ إذا كنت في صميمك مع الواحد الذي يتجاوز الثنائيات، كنت في مواقفك وراء الثنائيات، تراقبها وتتعرض لتناوباتها ولكنك لا تثبت في واحد منها.

الفصل الثالث والعشرون

(٥١) في قصيدة للشاعر التاوي تاو تشي ين من القرن الرابع الميلادي، نقرأ الأبيات الآتية:

كنت أجمع الأقحوان البري عند سور الأشجار الشرقي
رفعت نظري وسرحت النظر بصمت نحو المرتفعات الجنوبية
نسيم الجبال يهب عليلًا عند الغروب
والعصافير تتجمع عائدة إلى أعشاشها
في كل ما حولي معنى حقيقي
عندما حاولت التعبير عنه بكلمات
ضعت في عالم اللا كلمات.[١]

في اللحظة التي حاول الشاعر فيها التعبير عن إحساسه بتلك اللحظة المليئة بالمعنى، تماثل عقله مع ما حوله وهربت منه الكلمات. وهذا ما أراد لاو تسو نقله إلينا عندما قال في هذه الفقرة:

في قلة الكلام تماثل مع الطبيعة
الطبيعة لا تعبر عن نفسها بالكلمات.

---

[١] Chuang Tzu, ch. 2, cited in: Allan Watts, Ibid, p. 19.

عندما تصمت تتحدث إليك الأشياء بدون كلمات، وعندما تتحدث تصمت أمامك الأشياء. أو كما قال شاعر تاوي آخر:

إنه يُشبه السماء الفارغة، لا حدود لها
ولكنها هنا والآن
دومًا عميقة وصافية.
عندما تبحث عنها لا تراها
لا تستطيع الإمساك بها
ولكنك أيضًا لا تفقدها
عندما تتكلم تصمت
وعندما تصمت تتكلم
البوابة مفتوحة على مصاريعها لوهب العطايا
وما من زحام يسد عليك الطريق.[٢]

(٥١) كل ما حولنا في تغيُّر دائم. إذا ركزت قلبك على المتغير فقدت جذورك. إذا ركزت قلبك على الثابت، ثبت في الحقيقة.

(٥٢) لا تبحث عن التاو، ولا تحاول زرع الـ «تي» في نفسك، كُن طبيعيًّا دون تفكُّر أو تدبير. عندما تبحث عن التاو تفقده، وعندما تحاول اكتساب الـ «تي» تزوغ عنك. يقول بيتان من شعر الزن:

لا تطلبه بالتفكير والتدبير
لا تبحث عنه بالإقلاع عن التفكير والتدبير.[٣]

من هنا يقول لاو تسو:

مَن يتماثل مع التاو يقبله التاو
مَن يتماثل مع الـ «تي» تقبله الـ «تي».
فإذا خسرت التاو قبلتك الخسارة وصرت من أهلها.

---

[٢] Allan Watts, Tao: The Watercourse Way, p. 164.

[٣] Ibid, p. 56.

(٥٣) قد يكون لهذه الفقرة معنًى عام يتعلَّق بمبادرة الآخَرين الثقة دون انتظارها منهم، ممَّا شرحناه في الفصل ١٧ الفقرة ٤٠، وربما أراد المعلم أن يقول هنا بأن قبول التاو لك قائم على ثقتك به والتماثل معه.

الفصل الرابع والعشرون

(٥٤) يقارن لاو تسو هنا بين الإنسان الذي يعرف نفسه حق معرفتها ويسلك تبعًا لذلك، وبين مَن يرسم لنفسه صورةً مزيَّفة يعرضها أمام الآخَرين، متناسيًا نفسه الحقيقية التي تغيب وراء ستار كثيف من التفاخر والتبجُّح والتظاهر أمام الآخَرين، فالوقوف، كما يقول لنا في هذه الفقرة، لا يتطلب التطاول على أطراف الأصابع، والمشي لا يتطلب المبالغة في توسيع الخُطَى، أيْ إن الإنسان الحقيقي يسلك بتلقائية ودون تفكير مُسبَق بصورته عند الآخَرين، بينما يسعى الإنسان المزيَّف من وراء كل سلوك إلى الاستعراض ولفت الأنظار، إنه لا يعيش حياته كما يجب بل كما تفرض عليه صورته غير الحقيقية التي يؤكدها في كل مناسبة.

(٥٥) الفعل عند التاوي مُكتفٍ بذاته، والإنجاز حُر من التظاهر والتفاخر ومن توكيد الذات، والمعلم في هذه الفقرة يكرِّر بصيغة أخرى ما قاله في الفصل ٢٢ حيث قرأنا:

لا يظهر نفسه ولذا يبدو للنظر
لا يعتبر نفسه على حق ولذا يبرز
لا يتفاخر ولذا يحوز المكانة.

بينما يقول هنا:

مَن يُظهر نفسه لا يبدو للعيان
مُن يعتبر نفسه على حق لا ينال الرضى
ومَن يتفاخر لا يحوز المكانة.

(٥٥–أ) هذه الأمور لا تجلب معها سوى رضى مؤقَّت ما يلبث أن يزول، أمَّا السعادة الحقة فتكمن في الرضا عن النفس، وفي السلوك النابع من معرفة فعلية للذات.

الفصل الخامس والعشرون

(٥٦) يصف لاو تسو في هذه الفقرة التاو في كُمونه وذاتويته قبل صدور الموجودات عنه، إن حالة من الفراغ المتماثل والصمت المُطلَق، لا وجود فيه للأشكال والهيئات، أو التقسيمات والتحديدات، فلا أعلى ولا أسفل، ولا يمين ولا يسار، ولا قبل ولا بعد، إنه اللاوجود، والعدم، باعتبار ما سينشأ عنه من مظاهر المادة والحياة، ولكنه الوجود بامتياز لنفسه وفي نفسه.

(٥٦-أ) وبما أن الاسم هو للأشياء المحدَّدة والمتمايزة عن بعضها، فإننا لا نستطيع إطلاق الاسم على حالة اللاتمايُز الأولى، التي لا شكل مُحدَّد لها ولا قيام فيها للأشكال والهيئات، وما الاسم تاو إلا إشارة لما ليس له اسم، أو فلنقُل إنه اللا اسم بامتياز.

وبما أن التاو يملأ كل مكان حيث لا مكان، ويتخلل كل حيِّز حيث لا حيِّز، فإنه متطابق مع نفسه، لا يتخذ موضعًا مما سواه لانعدام السوى، يمتد في كل اتجاه بلا نهاية حيث لا اتجاه، وبما أنه لا وجود لنهاية لانتفاء وجود لبداية، فإن امتداده ينعكس إليه، إنه دارة مُغلَقة، أو كنقطة هندسية تملأ المكان بلا مكان.

(٥٧) في هذا الفراغ المتماثل ظهرت الأشكال والتحديدات، الواحد اللامتمايُز أنجبَ السماء، السماء أنجبت الأرض، الأرض أنجبت الآلاف المؤلَّفة، التاو متخلل في جميع ما نَجَم عنه، ولذا فإن كل ما في الوجود هو من طبيعة التاو وينتمي إليه.

(٥٨) ينجم عمَّا سبق أن كل مظهر في الكون يتبع مساره الخاص، وإذا تُرك حرًّا في اتباع مساره الخاص فإنه يقتدي بالتاو وَفْق تدرُّج صدوره عنه، فالإنسان يقتدي بالأرض، والأرض تقتدي بالسماء، والسماء تقتدي بالتاو، أمَّا التاو فهو ذاته.

الفصل السادس والعشرون

(٥٩) يستخدم المعلم هنا طريقته المفضَّلة في إظهار الأقطاب والجمع بينها. فالثقيل هو جذر الخفيف والثابت هو سيد المتقلقل، إذا زرعت قدميك في الثقيل تستطيع التحرك مع الخفيف دون أن تُقتلع من جذورك، وإذا رسخت في الثابت تستطيع أن تعاني ضروب التقلقل دون أن تفقد السيطرة على نفسك.

(٥٩–أ) ثم ينتقل إلى معالجة مسألة سياسية، مُشبِّهًا الحاكم بصاحب القافلة المُحمَّلة بالبضائع، إن هذا التاجر لا يترك عرباته المثقلة تغيب عن ناظرَيه إلى أن يصل نهاية سفره ويحط الرحال وراء الأسوار الآمِنة، فإذا كان هذا شأن صاحب بضع عربات، فما بالك بصاحب عشرة الآلاف عربة، أيْ حاكم الدولة المسئول عن كل ما فيها! كيف لهذا الحاكم أن ينظر بخفة إلى شئون دولته ويتردَّد في اتخاذ القرارات الحاسمة.

(٥٩–ب) مثل هذا الحاكم يتخذ الخفيف أساسًا له فتهتز فروعه وتُجتث جذوره، يفقد سيطرته على نفسه وعلى رعيته.

الفصل السابع والعشرون

(٦٠) موضوع هذا الفصل هو رجل الـ «تي» الذي اتحدت مَلَكاته العقلية والجسدية في كلٍّ لا ينفصم، والذي ينشط مستمدًّا مبادراته من منبع التلقائية الكونية، إنه يباشر عمله دون أن يراقب نفسه خلال أدائه، فعقله مُوحَّد وغير منفصم إلى شطرٍ يفكِّر وآخَر يراقب، كما أن جسده مُوحَّد وغير منقسم إلى شطر يعمل وشطر يطلب المَدَد من الذهن الذي يحلِّل ويُجزِّئ. من هنا فإن أفعاله تأتي في تناسق وتناغم مع ما هو تلقائي وطبيعي.

ولعل أبلغ مثال عن رجل الـ «تي» في لحظة الفعل والاستجابة المباشرة، هو رجل السيف الذي يتلقى ضربة مفاجئة من خصمه، إن أي تفكير هنا سوف يقوده إلى هلاك مُحقَّق، وأي حساب للربح أو الخسارة سوف يجعله في عِداد الخاسرين، وما عليه في هذه اللحظة، التي يكون فيها الأجزاء الثانية الواحدة أهمية بالغة، إلا أن يترك استجاباته التلقائية حرَّة من أيِّ قيد ذهني. وهذا معنى قول المعلم في هذه الفقرة بأن المحنك في الأسفار لا تترك عجلاته وراءها أثرًا، وفي هذا القول أبلغ مجاز عن الفعل الذي يُنجز بتلقائية وبدون قسر أو جهد فلا يترك وراءه أثرًا يدل عليه، ومثل المحنك في الأسفار أيضًا البارع في الكلام، الذي يترك لسانه على سجيته دون أن يفكر في كل كلمة يقولها.

(٦١) من هنا فإن رجل الدولة الذي تماثل مع التاو واكتسب الـ «تي» يحكم رعيته باتباع بصيرته لا ذهنه، وحكمته في إدارة الدولة لا تأتي بالدرجة الأولى من معرفة علوم السياسة، بقَدْر ما تأتي من معرفته لنفسه واستمداد مَلَكاته الطبيعية، فهو مثل التاو لا يفعل ولكنه لا يترك شيئًا بحاجة إلى إتمام.

(٦٢) تتجلَّى في هذه الفقرة النزعة الاجتماعية الإيجابية في النظر إلى علاقات الناس، والتوكيد على الغيرية في موقف الفرد من الجماعة.

الفصل الثامن والعشرون

(٦٣) يمزج لاو تسو هنا بين فلسفته في اللِّين وفلسفة اليانغ-ين. فالرجل يعرف أنه مزيج من «يانغ» صلب و«ين» ليِّن، ورغم أن عناصر الـ «يانغ» هي التي تصنع منه ذكرًا، إلا أنه في سلوكه يجب أن يفيد من عناصر الـ «ين» أيضًا، ونموذجه في ذلك الماء، مرَّة أخرى. فإذا جنح إلى اللِّين صار مثل مسيل الماء الجاري الذي يحقِّق هدفه دون جهد، واكتسب الـ «تي» التي هي سِمة التاو في تجلِّيه وتخلله الموجودات جميعًا، وهذا معنى قوله:

اعرف الذكر والعب دور الأنثى
تكُن في المملكة كمسيل نهر جارٍ.

ثم إنه يعيد توكيد فكرته باستخدام مجاز الأبيض والأسود للدلالة على قوتَي اليانغ-ين، فيقول:

اعرف الأسود والعب دور الأبيض
تكُن في المملكة أمثولة.

وهنا إشارة إلى الحاكم الذي يسلك في طريق التاو ويجعل من نفسه نموذجًا للرعية، فإذا كان الإباء من سمات الـ «يانغ» والتواضع من سمات الـ «ين»، فإن معرفة الحاكم للإباء وفي الوقت نفسه التزامه للتواضع في سلوكه، من شأنها أن تجعله مثل الماء الذي يعكس صورة الـ «تي» الخالدة.

ويصف لاو تسو مَن حقَّق هذا النوع من التوازن الداخلي بين القوتَين، مستخدمًا مجازَي الجلمود الخام والوليد الجديد، وكلا المجازَين يشير إلى الحالة الأصلية الطبيعية، يقول تشوانغ تزو: «ينظر الوليد الجديد إلى الأشياء من حوله طيلة النهار ولكنه لا يحدِّق

في شيءٍ ولا يركِّز نظره على شيءٍ، وعندما يغدو قادرًا على الحركة فإنه يتحرَّك دون أن يعرف إلى أين، ويتوقَّف دون أن يدري لماذا توقَّف. إنه يمزج نفسه بمحيطه ويتماشى معه، هذا هو مبدأ الصحة العقلية.»[١]

(٦٤) في قوله هنا إن الجلمود الخام عندما يُنحَت ويُجزَّأ يصير آنية، إشارة إلى الوزراء والنوَّاب الذين يعتمد عليهم الحاكم في إدارة الدولة، فكما أن الجلمود الخام لا وظيفة له، كذلك الحاكم الذي ينبغي ألَّا يمارس عملًا مُحدَّدًا، بل أن يكتفي بالإشراف على مَن لهم أعمال مُحدَّدة، مثل هؤلاء مثل الجلمود الخام بعد أن يُنحَت ويُجزَّأ إلى قطع ذات شكل مُعيَّن ووظيفة مُعيَّنة.

(٦٥) يبدو هذا المقطع أشبه بالأمثال الدارجة، فالخياط الماهر في التفصيل والخياطة لا يتكئ كثيرًا على المقص، فإذا استخدمه حقَّق غايته بسهولة ويُسر، ومن غير أن يهدر الكثير من الزوائد والقصاصات، عند ذلك يخرج الثوب من بين يدَيه وكأنه القطعة القماشية وقد صارت ثوبًا من دون تدخُّل المهارة البشرية، ومثل الخياط في ذلك الحاكم الذي يُدير شئون رعيته بأبرع السُّبل وأسرعها، ودون أن يشعر بوطأته أحد:

فإذا أكمل مهمته وأتمَّ عمله،
تقول الرعية: لقد حصل ذلك من تلقاء ذاته.

على ما أفادنا به المعلم في الفصل ١٧ الفقرة ٤١.

[١] Chuang Tzu, Works, ch. 21, cited in: Allan Watts, Tao: The Watercourse Way, Op. Cit., p. 55.

الفصل التاسع والعشرون

(٦٦) تنطلق النظرية التاوية في المجتمع من اعتبار المجتمع الإنساني ظاهرة طبيعانية بالدرجة الأولى، من هنا يتوجَّب على أية بِنية ثقافية تتراكب فوق البِنية الأصلية أن تكملها دون أن تتعارض معها أو تُفقدها شيئًا من طبيعتها وتلقائيتها، ويعبِّر لاو تسو في هذه الفقرة عن ذلك بقوله:

المملكة وعاء مُقدَّس لا يمكن مسُّه بالتعديل
مَن يعمل على قولبتها يجعلها خرابًا.

إن تشبيه المملكة بالوعاء المُقدَّس يعني أنها امتداد للنظام الطبيعي، مثلها في ذلك مثل أية بيئة حية متكاملة، حيث لا يمكن المساس ببعض جوانبها دون التأثير على بقية الجوانب، فإذا سلك كل عنصر في هذه المملكة وفق طبيعته الخاصة، مثلما تسلك الكائنات الحية الأخرى في بيئتها المتوازنة، سارت الأمور على أفضل وجه، أمَّا إذا تدخَّل الذكاء الإنساني بما يمتلكه من غرور وادَّعاء، سارت الأمور على عكس ما نشتهي وانقلبت محاولة الإصلاح المصطنعة إلى نقيضها وعمَّت الفوضى.

كما يمكننا فَهْم هذا المقطع على مستوى أشمل حيث تعني «المملكة» هنا العالم بأسره، فالعالَم أيضًا وعاء مُقدَّس لا يمكن مسُّه بالتعديل، إذا أردت العيش فيه بسلام عليك أن تُلائم نفْسك معه لا أن تجعله متلائمًا معك، إن السبَّاح الماهر في لُجَّة البحر لا يلائم الماء مع جسده بل يلائم جسده مع الماء.

(٦٧) بما أن العالَم يقوم على القطبية، وتتداول أحواله الثنائيات، فإن من طبيعة الأمور أن تتوزَّع أحوال البشر بين الأقطاب والثنائيات، فمن غير الممكن أن يكون الجميع في المقدمة بسبب وجود مؤخرة، ومن غير الممكن أن يكون الجميع في المؤخرة بسبب وجود

مقدمة، ومن غير الممكن أن يتسم الجميع بالضعف بسبب وجود القوة، ومن غير الممكن أن يتسم الجميع بالقوة بسبب وجود الضعف.

(٦٨) وبما أن هذه الأحوال تنقلب إلى بعضها بعضًا، فإن الحكيم الذي يدرك مبدأ التغيُّر يحافظ على حالة مُثلى من التوازن بين الأقطاب والثنائيات، ويتجنب الغلو والتطرف في أيِّ سلوك، إنه يعرف دائمًا متى يتوقف، على حدِّ تعبير المعلم في الفصل التاسع:

عندما تزيد في شحذ الحد
تعمل في النهاية على انثلامه.

وأيضًا:

أن تنسحب عقب إتمام المهمة
تتشبه بطريق السماء.

الفصل الثلاثون

(٦٩) لا يطمح الحكيم، الذي أدرك مبدأ التغير، إلى حالة يسود فيها الـ «يانغ» وينتفي الـ «ين». ذلك أن الصحة والمرض، والألم والمتعة، والقوة والضعف، والحب والكراهية ... إلخ، هي أقطاب وثنائيات تتداول أحوال العالم وأحوال الأفراد والجماعات والممالك، ولكن الحكيم بالمقابل يستطيع التخفيف من الآثار المدمِّرة للإفراط والغلو في كلِّ حالٍ من هذه الأحوال، إن الحاكم الذي يُغالي في إظهار ما لديه من السلاح والعتاد وأدوات القمع، سوف يستثير في الناس ردود فعل تلقائية باتجاه المقاومة والدفاع عن النفس، كما أن الحاكم الذي يلجأ إلى الحرب عندما تكون هناك خيارات أخرى، سوف يذوق الهزيمة رغم نجاحاته الباهرة الأولى.

(٦٩) إذا كان هناك ضرورة للحرب، على الحاكم أن يخوضها بسرعة وينهيها قبل أن تستفحل آثارها، ثم لا يُتبع ذلك بالتفاخر والتبجُّح والغطرسة؛ لأن الحرب كما يراها الحكيم أشبه بالعملية الجراحية ذات الهدف المحدَّد والنتائج المرجوَّة الواضحة، وليست سبيلًا لتحصيل المجد الشخصي أو القومي.

يقول لاو تسو في الفصل ٦٩:

عندما يرفع الطرفان السلاح في وجه بعضهما
الطرف الرابح هو الذي يدخل الحرب بأسًى وحزن.

(٧٠) الحاكم الذي يدرك تناوُب الأقطاب وتعاقُب الأحوال يعرف أن فورة القوة يعقبها الوهن، ولذا فإنه لا يتطرَّف ولا يُغالي إذا أحسَّ من جانبه قوة، ولا يخنع أو يذل إذا أحسَّ من جانبه ضعفًا، في صيرورة الطبيعة لا يوجد تطرُّف بل توازُن، إذا أدركت موقعك في هذا التوازن سلمتَ، وإذا تجاهلته أتيت إلى نهاية سريعة.

الفصل الحادي والثلاثون

(٧١) يتابع المعلم في هذا الفصل شرح أفكار الفصل السابق، لقد قال في الفقرة ٦٩:

حيثما تعسكر القوات ينبت شجر الشوك
وفي أعقاب الجيوش الجرَّارة يذوي الحصاد.

ويتابع هنا فيقول بأن السلاح أداة شؤم يبغضها الناس، لذا فرجل الدولة التاوي لا يلجأ لاستخدامها، فإذا كان لا بدَّ من شنِّ الحرب وإشهار السلاح، فإن على رجل التاو أن يخوض حربه في حيادٍ، والحياد هنا هو الحياد النفسي الذي يخلو من الانغماس العاطفي. التاوي يحارب وهو في حالة من صفاء الذهن والنفس، ولا يسمح لعواطفه أن تكون مُوجِّهًا له، كما أنه يتفادى ما تثيره الحرب من مشاعر العنف والرغبة في القتل والتدمير، وبشكل خاص عليه أن يتخلص ممَّا يتركه الانتصار من إحساس بالمجد الزائف، فلا مجد في الانتصار؛ لأنه لا يتحقق إلَّا على أشلاء ألوف القتلى، وتمجيد الانتصار يعني القتل وإعطاءه مشروعية وقيمة، عندما نحقق الانتصار علينا أن نُقيم طقوس الحداد على من قُتِل من الجانبَين المتحاربين في سبيل تحقيقه، عوضًا عن إقامة الاحتفالات، من الأفضل أن نبكي القتلى من الطرفَين، عوضًا عن فرحة النصر الزائفة.

يستعمل لاو تسو هنا مجاز اليمين واليسار للتعبير عن حال الحزن وحال الابتهاج، ففي الأحوال العادية يلجأ السادة إلى حال الابتهاج، أي إلى حال اليسار، أمَّا في زمن الحرب فيلجئون إلى حال اليمين، أي إلى حال الحزن؛ لأنه لا بهجة في الحرب ولا فرحة، مَن يخوض الحرب بفرح هم القتلة والسفَّاحون، أمَّا السادة فيخوضونها بأسًى وحزن ويقودونها كما تُقاد الجنازة لا كما تُقاد مواكب الفرح.

الفصل الثاني والثلاثون

(٧٢) للتاو حالان، حال البطون وحال الظهور، في حال البطون ليس للتاو اسم، لأن الأسماء تلحق الأجزاء والأشكال، أمَّا الكل فلا يلحقه الاسم لأنه بلا أجزاء وبلا شكل وبلا حدود. قبل ظهور الموجودات عن التاو لا مجال لتصوُّر الاسم، وبعد ظهور الموجودات عن التاو صارت الأسماء ضرورة لحصول الأجزاء ووضوح الأشكال وتمايُز الحدود، فإذا تطلبت الأجزاء أسماء اتخذ المطلق تجاهها اسمًا، فكانت أسماؤها على ما هي عليه، وكان اسمه التاو، به تعرفه الآلاف المؤلَّفة، ومن خلال اسمه ينظرون بعين بصيرتهم إلى ذاتويته التي لا تلحقها الأسماء ولا الصفات.

ويعبِّر لاو تسو عن حال البطون وحال الظهور، من خلال مجاز الجلمود الخام؛ فالجلمود الخام في حالته الطبيعية بدون اسم، وعندما يُجزَّأ الجلمود إلى قِطَع ذات شكل ووظيفة مُحدَّدة تظهر الأسماء، ولكن التاوي أمام هذه الكثرة من مظاهر الطبيعة يرى إلى الكثرة في الوحدة، وينظر من خلال الأشياء إلى مصدرها، من الحركة إلى المركز الساكن الذي تئول إليه كل حركة، التاوي يثبت في الواحد الذي تلتقي عنده الثنائيات وتذوب الأقطاب.

التاو هو المنبع الخلَّاق لكلِّ شيء، والأشياء طرًّا هي ظهوراته، من هنا فإن الآلاف المؤلَّفة هي أشكال مُتمايِزة ظاهرًا، ومتحدة باطنًا، كلٌّ منها يعكس الكل الذي صدر عنه ويتطابق معه، إذا أدركت الأجزاء استقلاليتها في كليتها، وكليتها في استقلاليتها الْتَقت السماء بالأرض، على حدِّ تعبير النص، وسلك الكل في نظام دون حاجة إلى نظام مُصطنَع مفروض.

(٧٣) يستخدم لاو تسو هنا مجاز البحر والنهر لوصف التاو، وقد شرحنا مُؤدَّى هذا المجاز في مواضع سابقة.

الفصل الثالث والثلاثون

(٧٤) يستخدم لاو تسو في هذه الفقرة تعبير الذكاء وتعبير البصيرة، للدلالة على المعرفة العملية وأداتها الذكاء، والمعرفة الروحية الباطنية وأداتها البصيرة، المعرفة العملية تتجه نحو ملاحظة العالم الخارجي وكيفية عمله من أجل الإفادة منه، أمَّا المعرفة الباطنية فتتجه نحو الداخل وموضوعاتها الجوهر، جوهر النفس وجوهر العالَم، ثم إن المعرفة العملية تتطلَّب القدرة، أمَّا المعرفة الباطنية فتتطلَّب القوة، والقدرة هنا هي المقدرة على إتيان فعل مادي، أمَّا القوة فهي الشكل الأسمى والأنقى للفعل الإنساني، إنها قوة النفس وطاقة الروح، وهذا معنى قوله:

في معرفة الآخَرين ذكاء
في معرفة الذات بصيرة
في قهر الآخَرين قدرة
في قهر النفس قوة.

(٧٥) معرفة النفس تتطلَّب منا ضبط وترويض الرغبات، وعدم الانسياق وراء ما يقدِّمه العالَم الخارجي من إغراء المال والجاه والسلطة والمكانة الاجتماعية، إن الرضى بالقدر المتوازن والمعقول من احتياجات الإنسان المادية، هو الشرط المُسبَق لتحصيل الغنى الداخلي والتوازن النفسي الذي من شأنه تفجير القوة الحقيقية من منابعها، ففي الانسياق وراء الرغبات اقتلاع من الجذور، وفي المحافظة على التوازن بين زينة العالَم الخارجي وحقيقة العالم الداخلي محافظة على الجذور، وهذا معنى قوله:

مَن يعرف الرضى غنيَ،
مَن يحافظ على صلته بجذوره يَدُم.

من يحافظ على جذره يَدُم، قد يموت ولكنه لا يَفْنى. الأنا المنغلقة على نفسها المزهوَّة بحضورها الشخصي هي التي تموت، أمَّا الذات المنفتحة على الكون والمتجذِّرة في التاو فإنها من التاو وإلى التاو تعود.

الفصل الرابع والثلاثون

(٧٦) يعالج لاو تسو هنا مجددًا الفكرة التي طرحها في الفصل الثاني، فالتاو ليس سيدًا للعالم يتحكَّم به من موضع سامٍ ومُفارِق، وكأنه والعالَم هويتان مستقلتان، بل هو عين النظام المنبث في هذا العالم المتخلِّل في كل جزء من أجزائه، من هنا فإنه لا يتطلب من الكائنات عرفانًا، ولا يدَّعي سلطانًا عليهم أو امتلاكًا لهم، ولا ينسب لنفسه فضلًا.

(٧٦-أ) ولأن التاو يفعل بلا مقابل وبلا رغبة في مردود، وبطريقة لا يشعر معها أحد بوجوده، يمكن أن ندعوه بالصغير، ولأنه لا يجعل من نفسه سيدًا ولا يدَّعي سلطانًا، يمكن أن ندعوه بالعظيم، غير أن هذه الأوصاف وأضرابها ليست إلا ثنائيات في عالَم المظاهر، فالكبير كبير مقارنة بما هو صغير، والصغير صغير مقارنة بما هو كبير، العالي عالٍ مقارنة بما هو منخفض، والمنخفض منخفض مقارنة بما هو عالٍ، أمَّا المطلق الحر من أيٍّ شرط فحُرٌّ من أية صفة أو اسم.

(٧٦-ب) في هذه الفقرة إشارة إلى التاو وأيضًا إلى الحاكم الذي يماثل التاو ويفعل من خلال اللافعل، فالحاكم التاوي لا يؤكد ذاته ولا يسعى إلى المجد الشخصي الزائف، يمكن وصفه بالعظيم لأنه لم يسعَ إلى العظمة.

الفصل الخامس والثلاثون

(٧٧) تجري المقارنة في هذا الفصل بين خبرتين للوعي، الأولى هي خبرتنا مع الأجزاء والمظاهر، والثانية هي خبرتنا مع الحقيقة الكبرى، في الخبرة الأولى نحن نرتبط بما حولنا من مظاهر حية وجامدة من خلال الحواس الخمس، إضافةً إلى الحاسة العُليا التي تتربع فوقها، وأعني بها الدماغ الذي يستقبل مؤثرات الحواس فيُحللها ويربط بينها ويفسِّرها ضمن إطار زماني ومكاني، أمَّا الخبرة الثانية فتتخطى الحواس الخمس كما تتخطى الدماغ نفْسه أو ما يمكن وصفه بالتفكير الخطي التحليلي، فهنا لا وظيفة للأصوات أو الكلمات أو الأشكال، لأننا ندلف إلى ما وراء الصوت والشكل والصورة في خبرة لا زمانية ولا مكانية، تقودها الروح، أو العقل المستقل عن الدماغ، والذي ينشط في الزمان والمكان مثلما ينشط فيما وراءهما، في هذه الخبرة نرحل إلى ما وراء الكلمات التي ترسم علاقتنا بالأشياء، وندلف إلى الفراغ العظيم الذي ارتسمت عليه الموجودات والنبع الذي لا ينضب مَعِينُه مهما أعطى وأفاضَ.

(٧٨) في هذا المقطع إشارة إلى الخبرة الأولى المرتبطة بالحواس حيث يسوق لاو تسو صورة مادية عن المسافرين الذين يجتذبهم الطعام والموسيقى إلى التوقُّف، وإشارة أيضًا إلى الخبرة الثانية التي تتخطى الحواس، وهنا يسوق لاو تسو صورة مادية أخرى حيث يقول:

ولكن التاو في مروره عبر الفم لا طعم له
انظر إليه لا ترى شيئًا
أنصِت إليه لا تسمع شيئًا.

وفي هذا ما يشبه قوله في الفصل ١٤:

ما لا تستطيع رؤيته هو ما لا شكل له
ما لا تستطيع سماعه هو وراء الصوت
ما لا تستطيع لمسه هو بدون كتلة.

الفصل السادس والثلاثون

(٧٩) يتجلَّى في هذا الفصل الفكر الجدلي للاو تسو في أوضح وأجمل تعبيراته، فالمضغوط هو حال من أحوال المطوط، والمطوط هو حال من أحوال المضغوط، المنحني هو حالٌ من أحوال المنتصب، والمنتصب هو حال من أحوال المنحني، وكذلك القويُّ والضعيف والفارغ والمليء، وبتعبير آخَر فإن الأشياء في العالم المادي تمارس الفعل على بعضها بعضًا، وهذا ما يدعو إلى نشوئها المتزامن والمتواقت بالمصطلح التاوي، حيث لا ظهور لواحد منها في معزل عن شبكة الأفعال المتبادلة التي تربطه بالأشياء الأخرى، إن الشيء المنفرد يؤكِّد نفسه من خلال روابطه وقنوات تفاعُله بنفْس الدرجة التي ينذكر بها نفسه، لأنه موجود بغيره، معدوم بدون ذلك الغير.

(٧٩) إذا تأملنا قول المعلم في الفقرة السابقة مرة أخرى يتكشَّف لنا مقصد آخَر من مقاصده:

إذا أردت ضغط شيء، عليه أولًا أن يكون ممطوطًا
إذا أردت إضعاف شيء، عليه أولًا أن يكون قويًّا
إذا أردت حنْيَ شيء، عليه أولًا أن يكون منتصبًا
إذا أردت أن تأخذ من شيء، عليه أولًا أن يكون مليئًا.

نلاحظ أعلاه أن أفعال الضغط والإضعاف والحنْي والأخذ تُشير إلى ممارسة القسر والإكراه على حالة طبيعية، هذه الحالة الطبيعية تتسم بنوعٍ من القوة والصلابة الأصلية، وإلا لَمَا كان فعل القسر عليها مطلوبًا، إنها في وضع الـ «ين» ولكنها تنطوي على «اليانغ»، أمَّا مَن يمارس القسر فإنه في وضع الـ «ين» أمامها رغم ممارسته لـ «اليانغ». وهذا معنى قوله:

اللَّيِّن والضعيف يقوى على القاسي والصلب.

إن إدراك هذا المعنى الدقيق والعميق لعلاقة الأشياء ببعضها ولعلاقة الفاعل بالمفعول به هو ما يدعوه لاو تسو بالبصيرة الخافية.

(٨٠) وهناك مستوًى ثالث لفهم هذا النص، إن اختيار الثنائيات في الفقرة ٧٩ يُوحي بمقصد ذي طبيعة سياسية، فهو في توكيده على ثنائيات: ضغط-مط، إضعاف-قوة، حنْي-انتصاب، أخْذ-ملء، يعرض أمامنا أحوالًا للرعية والحاكم، فالحاكم لا يستطيع تحصيل الضرائب من رعيته إنْ لم يعمل أولًا على إتاحة سُبل الكسب أمامهم، ولا يستطيع ممارسة الضغط عليهم لغرض مُعيَّن، إذا لم يفسح لهم أولًا مجالًا واسعًا من الحرية يشعرون معه بمعنى الضغط ... إلخ. وعلى الحاكم في ذلك كله أن يلجأ إلى اللِّين وألَّا يحاول استعراض قوته أمام الناس، أسلحة الحاكم ينبغي أن تبقى في مستودعاتها مثلما تبقى السمكة في مسكنها المائي العميق، إشهار السلاح في وجه الرعية يجلب على الحاكم مصير السمكة التي تغادر مسكنها المائي نحو السطح، وقد قال لاو تسو في الفصل ٣٠:

إذا كنتَ في موضع نُصح الحاكم وفق التاو
لا تُشِر عليه بإشهار السلاح وإخافة الناس
فمن شأن ذلك إثارة ردود أفعال تلقائية.

الفصل السابع والثلاثون

(٨١) إن الفعل الذي يقصده المعلم في هذا الفصل وفي بقية فصول الكتاب، هو الفعل الناجم عن تدبُّر وتفكُّر وحيلة وتخطيط مُسبَق، وما يتبعه من توقُّع لنتائج مُعيَّنة، ويقابله تعبير اللافعل، وهو الفعل التلقائي المتطابق مع تلقائية صيرورة الطبيعة، والتي نموذجها النظام العضوي الذي يتفتح من الداخل نحو الخارج، ولا ينتظم من الخارج في وحدات تنضم إلى بعضها مثلما تنضم أجزاء العربة التي تُصنَع وفقًا لنموذج مُعَد سلفًا، وهذا معنى قوله:

التاو ليس من شيمته الفعل
ولكنه لا يترك شيئًا بحاجةٍ إلى إتمام.

أيْ إن كل ما في الكون ينتظم من تلقاء ذاته وفق قوانين التاو الداخلية، ومن غير حاجة إلى تدخُّل قوة خارجية، ويتبع ذلك أن المجتمع الإنساني ينبغي أن يعي نَفْسه بالدرجة الأولى كظاهرة طبيعانية لا كظاهرة ثقافية، وألَّا ينسلخ عن تلك التلقائية الكونية الفاعلة من الداخل، وتقع مسئولية هذا الوعي أولًا على السَّاسة والحُكام الذين يتوجَّب عليهم إدارة المجتمع مثلما يُدار الكون، أيْ من خلال اللافعل وعدم التدخُّل، وفي معزل عن الرغبة التي تدفع عادةً إلى السلوك المتعارض مع التلقائية، فإذا تحرَّر الحاكم من الرغبات في كل أفعاله، فإن الرعية أيضًا سوف تتحرَّر من الرغبات وتكشف عن جوهرها الطبيعي الخام، وتسلك وفق طبيعتها الأصلية التي يمكن للحاكم والمحكوم على حد سواء الثقة بها.

لقد هدفت التعاليم الكونفوشية إلى ضبط سلوك الأفراد والجماعات وفق مبادئ ولوائح أخلاقية مفروضة، أمَّا التاوية، وانطلاقًا من ثقتها بالطبيعة الإنسانية، فإنها تساعد الإنسان على اكتشاف ذاته الحقيقية، وأن يكون على ما هو عليه بالفعل، من هنا يقول لاو تسو للحاكم:

إذا استطعت التحرُّر من الرغبات والبقاء ساكنًا
فإن المملكة ستعيش بسلام من تلقاء ذاتها.

الفصل الثامن والثلاثون

(٨٢) عندما تؤدي عمل الخير وأنت شاعر به، وعن سابق تصميم وتدبير، ثم تشعر بعد ذلك بالرضى عن نفسك وبالسعادة لأنك إنسان خيِّر، فأنت إنسان غير فاضل بالمعيار التاوي، لأن الخير في هذه الحالة لا ينبع من ذاتك الطبيعية بل من الأنا المشغولة بنفسها وبالرضى عن أعمالها. أمَّا عندما يتصف عملك بالخير في كل خطوة تخطوها، ومن دون أن تشعر بأنك تؤدِّي عملًا خيِّرًا، أو يتملكك إحساس بالرضى عن نفسك واعتزاز بعملك، فأنت إنسان فاضل حقًّا.

(٨٢-أ) إن القيام بعمل الخير دون قصد أو تصميم على إتيان الخير هو شكل من أشكال اللافعل، أمَّا القيام بعمل الخير عن قصد وترقُّب للنتائج، مادية كانت أو معنوية، فهو شكل من أشكال الفعل، الفضيلة الناجمة عن الفعل تبقى غير كاملة، أمَّا الفضيلة الناجمة عن اللافعل فهي الفضيلة الكاملة، لقد قال المعلم في الفصل السابق:

التاو ليس من شيمته الفعل
ولكنه لا يترك شيئًا بحاجة إلى إتمام.
ويقول هنا في وصف الإنسان الفاضل الذي يفعل من خلال اللافعل:
رجل الفضيلة لا يفعل
ولكنه لا يترك شيئًا بحاجة إلى إتمام.

(٨٢-ب) من هنا يميِّز المعلم بين ثلاث درجات للعمل الصالح، هي الخير والاستقامة والشريعة، فرجل الخير يؤدي عمله دون دوافع، واعية كانت أم غير واعية، ورجل الاستقامة يؤدي عمله بدوافع خفية، وعلى رأسها إرضاء «الأنا» التي تحاول دومًا رسم صورة لنَفْسها تتمرأى بها وتعرضها أمام الآخَرين، ورجل الشريعة يؤدي عمله استنادًا إلى لوائح أخلاقية

وسلوكية وضعَها وقرَّرها له الآخَرون، وهو إذ يجعل من هذه اللوائح مرجعيته الوحيدة بخصوص ما هو صالح وما هو طالح، فإنه يحاول أيضًا فرضها على الآخَرين ويعمد إلى إقناعهم بها بالقوة.

(٨٣) هذا التدرُّج في سلوك الناس من الخير إلى الاستقامة إلى الشريعة، مردُّه درجة ابتعاد المجتمع عن سبيل التاو أو اقترابهم منه، فعندما يُنسى التاو تظهر الفضيلة، وعندما تُنسى الفضيلة يظهر عمل الخير، وعندما يُنسى عمل الخير تظهر الاستقامة، وعندما تُنسى الاستقامة تظهر لوائح الأخلاق، والشرائع المفروضة من أجل إلزام الناس بجادة الصواب.

(٨٤) عندما تظهر الشرائع المفروضة من قِبَل أية سلطة، فإن في ذلك مؤشِّرًا على وجود خلل في المجتمع، لأن المجتمع السليم المتماشي مع سبيل التاو لا يتطلب شريعة أخلاقية تنظِّم علاقات أفراده، الشريعة هي قشرة خارجية للإيمان والإخلاص، ورجل الفضيلة الحقَّة لا يأبَه لها بل يصدر في سلوكه عن منبع الأخلاق الأصلي.

ينقل لنا تشوانغ تزو حوارية (مُتخيَّلة على الأغلب) بين لاو تسو وكونفوشيوس حول مفهوم الإحسان، وواجب الفرد تجاه الآخرين، اقتطف منها خاتمة جواب لاو تسو على كونفوشيوس:

> «... لننظر إلى الكون وصيرورته التي لا تنقطع ولا تتوقف، إلى الشمس والقمر وضيائهما المُرسَل أبدًا، إلى النجوم في تجمُّعاتها التي لا تتغير، إلى الطير والوحش تحتشد أفواجًا أفواجًا، إلى الشجر والقصب ينمو نحو الأعلى بلا استثناء، كُن كهؤلاء، اتبع التاو فتغدو كاملًا، لماذا كل هذا العناء العقيم في البحث عن الإحسان والواجب؟ إنه يُشبه ضرب الطبل بحثًا عن الآبِق الفارِّ، وا أسفاه! سيدي، لقد جلبت الكثير من التشوُّش إلى عقول الآخَرين.»[١]

[١] Alan Watts, The Way of Zen, p. 46.

الفصل التاسع والثلاثون

(٨٥) تعبير الواحد الذي يتكرر في هذه الفقرة ليس إشارة إلى شخصية إلهية تتصف بالوحدانية في مقابل التعددية، بل هو التاو الذي تذوب فيه الثنائيات وتتلاشى الأقطاب، إنه الوحدة الأصلية التي نشأت عنها مظاهر الكون والآلاف المؤلَّفة من النفوس الحية، وبما أن المظاهر المتجزئة للخليقة تبقى متجذرة في الوحدة التحتية للوجود، فإن كلًّا منها على تفرُّده يعكس تلك الوحدة الأصلية وينطوي على سرها، ولكن عين الحجاب الكليلة تعجز عن رؤية الوحدة ولا تميز إلا أجزاءها وتمظهراتها في عالَم الشهادة، أمَّا عين الكشف فترى الوحدة في الكثرة، وترى الكثرة في الوحدة، عين البصيرة تدرك أن الوحدة الأصلية هي سكون وحركة في الآن نَفْسه، في حال السكون يكون التاو عَيْن ذاته، وفي حال الحركة يكون التاو هو عَيْن المخلوقات.

(٨٦–٨٧) فإذا كنت تنقل القلب من الجزء إلى الكل من المظهر إلى الجوهر، عرفت أن قليل الشأن هو جذر عالي الشأن، والواطئ هو قاعدة العالي، وهنا ينتقل لاو تسو من هذا التأمل الماورائي إلى تأمل في عالم السياسة، فإذا أراد السادة والأمراء أن يجعلوا من أنفسهم فعلًا قاعدة للدولة وأساسًا لها، عليهم أن يرتكزوا على التواضع وأن يلجئوا إلى الفعل من خلال اللافعل، بعيدًا عن القعقعة والضجيج وطلب السُّمعة والصيت الذائع، وكما قال المعلم في الفصل ٧:

الحكيم يضع نفسه في المؤخرة ليجدها في المقدمة
عندما ينسى نَفْسه يجد نفسه
لأنه لا يشعر بنَفْسه قادرًا على تحقيق ذاته.

الفصل الأربعون

(٨٨) التاو ساكن في باطنه، متحرِّك في ظاهره، حركته تعود إلى الخلف إلى أصولها الساكنة، وهذا معنى قوله:

بالعودة إلى الخلف يتحرك التاو.
وهو هنا يكرر بصيغة أخرى ما كان قد أورده في الفصل ٢٥:
عظمته امتداد في المكان
الامتداد في المكان يعني امتدادًا بلا نهاية
الامتداد بلا نهاية يعني العودة إلى نقطة المُبتدَى.

يضاف إلى ذلك أن في الحركة نحو الخلف تعبيرًا عن حركة الفكر وعكس اتجاهه من الظاهر إلى الباطن، ومن النشاط إلى السكون، من الكلمات إلى الصمت، من المعرفة إلى اللامعرفة، من القصد إلى التلقائية، من القسر إلى اللِّين، كلما استرخى العقل وجنح إلى اللين اقترب أكثر من مركز الوجود الساكن الثابت.

(٨٩) التاو ليس شيئًا له كيان محدَّد وخواص وصفات مُعيَّنة، من هنا لا يمكن الإشارة إليه إلا بصيغة النفي، لأن صيغة الإثبات هي للشيء المحدَّد المخصَّص، فهو كذا وهو كذا، أمَّا ما يقع خارج نطاق التحديد والتخصيص فهو ليس كذا وليس كذا، ليس بالصغير ولا بالكبير، ليس بالقوي ولا بالضعيف، ليس بالعالي ولا بالمنخفض ... وهكذا وصولًا إلى حالة النفي المطلق: إنه لا شيء، أو النفي بامتياز، وعندما تنفي عنه كل شيء تكون قد أثبتَّه الإثبات الذي لا يقابله نفي، وهذا معنى قوله:

الآلاف المؤلَّفة في العالم

نجمت عن وجود
والوجود نجم عن لا وجود.

إن تعبير الوجود هنا يُشير إلى قوتَي اليانغ-ين اللتين أنجبتا الآلاف المؤلَّفة من مظاهر العالَم الحية والجامدة، أمَّا تعبير اللاوجود فيُشير إلى التاو الذي أنجب اليانغ-ين.

الفصل الحادي والأربعون

(٩٠) إن الخبرة التاوية بالعالم، هي أقرب إلى النتيجة منها إلى المقدمة، وما يحصله التاوي من هذه الخبرة/النتيجة، ليس خطوة أولى في سلسلة خطوات من التفكير المنطقي نحو تحقيق فَهْم عامٍّ متكامل، بل هو المقدمة والنتيجة معًا في خطوة أو قفزة واحدة، الْتِماعة حدسية تضعك أمام الكل دفعة واحدة، فيذوب الفارق بين العارف وموضوع معرفته.

فإذا أردنا التشبيه الحسي، قلنا إن هذه الالْتِماعة الحدسية تُشبه إلى حدٍّ كبير انفجارنا بضحكة عالية تهز كياننا عقب الاستماع إلى نكتة، نحن نفهم النكتة في كليتها ودون بذل جهد في تحليلها وتفسيرها وصولًا إلى إدراك الطرافة فيها، من هنا يقول لاو تسو في هذه الفقرة: إن التلميذ النجيب المتمرِّس بالتفكير المنطقي يُعمِل في التاو بحثًا وتمحيصًا، على أنه مفهوم فلسفي يتوجب عليه دراسته من أجل استيعابه، أمَّا التلميذ العادي الذي لم تُفسِد المعارف التقليدية كلَّ تلقائيته، فإنه يتعامل مع التاو بطريقة توسط المنطق والحدس معًا، وأمَّا التلميذ الغبي، ويقصد به لاو تسو الإنسان الذي لا يُعوِّل على المعارف التقليدية، فإنه يضحك بصوت عالٍ. ويُتبع ذلك بقوله: إذا لم يكُن هناك ضحك، فإن التاو لن يكون ما هو عليه، أي إننا إذا لم ندركه بحدسنا ودون توسيط المنطق التحليلي، فإننا لن ندركه أبدًا.

يفسِّر لنا هذا المقطع المغزى الكامن وراء تمثال بوذا الضاحك، المعروف بأكثر من وضعية وشكل في الفن الصيني والياباني، ففي مقابل الوضعية التقليدية التي تمثِّل البوذا في حالة الاستغراق الباطني العميق، نراه هنا وقد انفجر بضحكة صاخبة برزت فيها أسنانه واندفع رأسه إلى الوراء، وكأن الوجود نكتة ما عليك سوى الإصغاء إليها ليباغتك

السر، هذه الصيغة لتمثيل البوذا هي من نتاج بوذية الـ «شان»، وريثة التاوية وسليلتها الشرعية، فلقد تبنَّت بوذية الـ «شان» طريقة الاستنارة المفاجئة وصارت ركنًا أساسيًّا من أركانها، كما انتقلت إلى بوذية الزن وهي الشكل الياباني لـ «الشان» الصينية.

إن الاستنارة بالمفهوم التاوي أشبه بالقفز فوق خندق عميق، عليك أن تقوم بها دفعة واحدة، فإما أن تصل إلى الطرف الآخَر وينفتح عقلك على الحقيقة، أو تبقى في مكانك. وذلك على عكس الاستنارة بالمفهوم البوذي، حيث يتم تدريب المُريد على تحقيقها خطوة خطوة وفق تمرينات يتعلمها من أستاذه، في التاوية، وأشكالها الأخرى، لا يوجد تعاليم نظرية مكتوبة يتوجب على التلميذ دراستها وفهمها، ولا قواعد مرسومة وتمرينات مقررة، وهنا تقتصر مهمة المعلم على الأخذ بيد التلميذ ليكتشف الحقيقة وحده، ومن خلال تجربة خاصة يُعانيها في أعماق ذاته، تقول أبيات من شعر الزن في وصف هذا الطريق:

بدون تعاليم وخارجًا عن التقاليد
غير مُؤسَّس على الحرف والكلمات
يشير إلى العقل بلا واسطة
يدفع إلى رؤيا الطبيعة الداخلية
ومنها إلى تحقيق حالة البوذا[١]

ومن الوسائل المتبعة في تحريض القوى النفسية الهاجعة لدى المُريد ودفعها نحو تحقيق الاستنارة، يلجأ معلم الـ «شان» إلى أسلوب الـ «ون-تا»، أو الموندو في الزن الياباني، وهو أسلوب السؤال الواضح المباشر من قِبَل المُريد، والجواب المُلغِز الذي يحرِّض العقل من قِبل المعلم، وصفة «المُلغِز» هنا لجواب المعلم لا تعني تضمنه لرمز مُعيَّن يتوجب على المُريد فهمه وإدراك ما وراءه، بل يعني أن الجواب في حدِّ ذاته متضمن لحقيقة الأمر من دون واسطة، وما على المريد سوى إدراكه في ومضة حدسية بارقة. وفيما يأتي بعض الأمثلة.

تحكي تقاليد الـ «شان» عن مؤسسها الأول بودي دهارما القصة الآتية: كان بودي دهارما معتكفًا في كهف جبلي ناءٍ عندما جاءه التلميذ هووي كو يطلب التعلُّم، حاول

[١] Alan Watts, The Way of Zen, p. 108.

التلميذ جر الحكيم إلى الحوار، ولكن الحكيم بقي معتصمًا بصمته يحملق في جدار الكهف على عادته منذ تسع سنوات، عندها قبع التلميذ خارج الكهف في وضعية التأمل تحت الثلج أيامًا عديدة، على أمل أن يستجيب له الحكيم ويقبل محاورته، وعندما يئس عَمِد إلى قطع ذراعه الأيمن وقدَّمها إليه عربون رغبته الحقيقية في التعلُّم، عندها الْتفتَ بودي دهارما إلى هووي كو وسأله عن مراده: ما هي بغيتك أيها الغريب؟

– إني أفتقد السكينة في عقلي. أتوسل إليك أن تُحِل السَّكِينة فيه.

– أرني عقلك لأجلب إليه السَّكِينة.

– ولكني عندما أبحث عن عقلي لا أجده!

– إذَن، فقد جلبت السَّكِينة إلى عقلك.

عند ذلك انكشفت بصيرة هووي كو وحصل على الاستنارة. وفيما بعد صار البطريرك الثاني لبوذية الـ «شان».[٢]

ويُحكى عن البطريرك الثالث المدعو سينغ تسا آن ما يأتي: جاء المُريد تاو هسين إلى المعلم سينغ تسا آن يسأله: كيف أجد طريقي إلى التحرُّر؟

– ولكن ما الذي يقيدك؟

– لا أرى شيئًا يقيدني أيها المعلم.

– إذَن، لماذا تبحث عن التحرر؟

عند ذلك انكشفت بصيرة تاو هسين وحصل على الاستنارة. وفيما بعد صار البطريرك الرابع للطريقة.[٣]

ويُحكى عن تاو هسين هذا، القصة الآتية: زار تاو هسين رجلًا قدِّيسًا يُدعى فا يونغ في معتكفه الجبلي، وعندما كان الاثنان يتمشيان حول المكان، سمع صوت حيوان بري يزأر، فقفز تاو هسين واحتمى بصخرة قريبة، عند ذلك علَّق فا يونغ قائلًا: أرى أنك لم تتخلَّص من ذلك بعد! ويعني بذلك غريزة الخوف الطبيعي عند الإنسان، ثم جلس الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث، وعندما قام فا يونغ لشأن ما، عمد تاو هسين إلى كتابة اسم البوذا في مكان جلوس صديقه، عاد فا يونغ وتردد في الجلوس فوق إشارة الاسم المقدس،

---

٢ Ibid, p. 107.

٣ Ibid, p. 109.

عند ذلك قال له تاو هسين: أرى أنك لم تتخلص من ذلك بعد! عند ذلك انكشفت بصيرة فا يونغ وحصل على الاستنارة.[٤]

إن أي تفكر أو تأمل في جواب المعلم وترجمته إلى لغة منطقية واضحة، من شأنه إفساد العملية برُمَّتها وإبقاء التلميذ حيث هو، وهذا ما تُشير إليه القصة الآتية من أدبيات الزن:

الْتحقَ المُريد هسون تزو بدير المعلم فا ين، وأمضى فترة لا بأس بها يعيش مع البقية ويمارس نشاطاتهم اليومية من غير أن يتوجه إلى المعلم بسؤال واحد، وفي أحد الأيام قال له المعلم: لماذا لم تتوجَّه حتى الآن بسؤال حول الزن؟

– لقد توجهت بالسؤال إلى معلم آخَر وحصلت منه على الجواب.

– ماذا سألتَ المعلم الآخر؟

– سألته: ما هو البوذا؟ فأجابني: بينغ تنغ جاء يطلب نارًا.

– جواب ممتاز. ولكني متأكد من أنك لم تفهمه.

– بلى أيها المعلم، لقد فهمته تمامًا.

– حدِّثني إذَن.

– بينغ-تنغ هو إله النار، فكيف يأتي لطلب النار؟ ومعنى ذلك بالنسبة لي هو أن طبيعة البوذا لم تفارقني قط فكيف أسعى لاكتساب طبيعة البوذا؟

– لقد كان ظني في محله. فأنت لم تفهم الجواب.

عند ذلك شَعَر المريد بالحرج والغضب وهجر الدير. ولكنه بعد فترة أحسَّ بالندم وعاد إلى المعلم يطلب الصفح. فقال له المعلم: سَلْني.

– ما هو البوذا؟

– بينغ-تنغ جاء يطلب نارًا.[٥]

(٩١) عندما تصل الصفة أو الخصيصة أقصى درجات التوكيد تنقلب إلى ضدها، فأقصى درجة للبياض هي السواد، وأقصى درجة للقوة هي التراخي، وأقصى درجة للصفاء هي العَكَر، من هنا فإن الشيء الأمثل هو بلا صفة أو خصيصة، فالمربع الأمثل لا زوايا له، والإناء الأمثل لا يمتلئ، والنغمة المثالية بلا صوت، والصورة المثالية بلا شكل.

---

٤ Ibid, p. 110.

٥ Ibid, p. 148.

(٩٢) التاو بدون خصيصة أو صفة، وكما قال المعلم في الفصل ٣٤:

إنه الصورة التي لا صورة لها
إنه الشكل الذي لا شكل له
إنه بلا تحديد ويتجاوز الخيال.
التاو باطن ومحجوب لكونه بلا اسم، ولكنه وحده الظاهر في كلِّ شيءٍ.

الفصل الثاني والأربعون

(٩٣) الواحد والاثنان والثلاثة، هنا، ليست كيانات ذات هوية محددة، بل صيغة جدلية يحاول من خلالها لاو تسو التعبير عن ظهور التمايز من حالة اللاتمايز الأصلية، ونشوء تنوعات ظواهر الوجود عن الوحدة التحتية، إن الأرقام هنا تُشير إلى التغيُّرات التي تقوم باللامتغير السرمدي.

(٩٤) رغم أن فكر لاو تسو يقوم على فلسفة التغيرات التي وجدناها في كتاب آي تشينغ، إلا أن الإشارة المباشرة إلى الـ «يانغ» والـ «ين» لا ترد في كتاب التاو إلَّا مرة واحدة وفي هذه الفقرة بالذات، وقد فصلنا في مسألة اليانغ-ين في أكثر من موضع سابق ولا نجد ضرورة للتكرار هنا، ولكني أود الإشارة إلى أن ذكر اليانغ-ين ونشوء الآلاف المؤلَّفة عنهما، يُلقي ضوءًا على مضمون الفقرة السابقة، فالواحد هو الـ «يانغ»، والثاني هو الـ «ين» والثالث هو الوحدة الجامعة لهما، وكنا قد ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب، أن كتاب التغيرات أو الآي تشينغ، قد رمز لكل ما يجري في السماء وفي الأرض بثماني مجموعات من الأشكال الرمزية التي يحتوي كلٌّ منها على ثلاثة خطوط، بعضها متصل يدل على الـ «يانغ» وبعضها متقطع ويدل على الـ «ين»، ويمكن مراجعة ذلك الموضوع من المقدمة لمزيد من الإيضاح.

(٩٥) يعيد لاو تسو هنا بصيغة أخرى ما قاله في الفصل ٣٩:

> لذا يعتبر السادة والأمراء أنفسهم بمثابة الأرامل واليتامى وعديمي الشأن لأنهم يرتكزون على التواضع.

الفصل الثالث والأربعون

(٩٦) لا يهدف التاوي إلى إقامة علاقة معرفية مع العالَم، بل إلى إقامة علاقة اختبارية مباشرة، تهدف إلى تذوق جمالية الأشياء واكتشافها في ذاتويتها، من هنا فإن تكديس المعارف التقليدية واستخدامها في تحليل ما يقع تحت أبصارنا من أجل فهمه، يُبعدنا عن جوهر العلاقة الحقيقية مع الأشياء، وهذا معنى قوله:

بالإضافة إليك تنقص
وإذا ما نقصتَ تكسب.

وعلى عكس المعرفة التقليدية، فإن المعرفة الباطنية تضيف إليك باستمرار ومن دون أن تصل حدَّ الامتلاء بها، على ما قاله المعلم في الفصل ٢٠:

أنا وحدي خامل هادئ لا تصدر عني إشارة.
أزداد دون أن أصل إلى الامتلاء.

وفي الفصل ١٥:

ولأنه يبقى غير ملآن
يبلى ويتجدَّد على الدوام.

ومن الممكن أن يكون لهذه الفقرة معنًى عملي يتعلق بجمع الثروة وتكديس الأموال واقتناء ما يزيد على حاجات الإنسان الاعتيادية، فبإضافة الممتلكات الزائدة إليك تنقص وتفقد الكثير من نكهة الحياة الحقيقية. وكلما نقصت رغباتك في هذه الممتلكات وقلَّ سعيك إليها تكسب، وفي هذا ما يُشبه قوله في الفصل ٢٢:

بالقليل تكسب
بالكثير تتعثر.

(٩٨-٩٩) يتعامل العقل التحليلي مع مسائل الحياة العملية ويسعى لإيجاد أفضل الوسائل من أجل حفظ البقاء والتمتع به، وهو يعمل من خلال ممارسة القسر على ما حوله من أجل الإفادة منه، أمَّا التفكير الحدسي، أو العقل الأسمى، فموضوعه الحقائق الكلية، وهو يفعل بدون قسر، فيرتفع من معاينة الظواهر إلى جوهرها، إنه فعالية الرُّوح التي لا مادة لها ولذا فإنها قادرة على النفاذ إلى الحقيقة التي لا مداخل مادية لها.

الكلمات هي أداة العقل التحليلي، إنها المعادل الذهني لعالم الظواهر المادية وصورتها في العقل، ولكن الكلمات تتساقط عندما يبدأ العقل الأسمى فعالياته، ونحن مهما حاولنا انتقاء الكلمات التي يمكن للفكر الحدسي من خلالها التعبير عن خبرته مع ما وراء عالم الظواهر المادية، فإننا نبقى كمَن يحاول ثقب الفراغ بإزميل، أو كمَن يحاول النفاذ إلى كتلة مُصمَتة لا فراغ في جوفها ولا منافذ لها، العقل الأسمى يقارب الحقيقة دون استعانة بالكلمات ودون استعانة بالأفكار والمفاهيم، وشيئًا فشيئًا تنفتح البصيرة على أن العارف وموضوع معرفته وعملية المعرفة هي شيء واحد.

من هنا يقول حكيم الزن تشانغ تشينغ بعد أن أعمل عقله التحليلي طويلًا من أجل النفاذ إلى الحقيقة:

لَكَمْ كنت مخطئًا في سعيي! لَكَمْ كنت مخطئًا
ما عليك إلا أن ترفع الستارة وترى العالَم.

إذا سألني بعد الآن سائل عن فلسفتي سوف ألطم فمه بطرف عصاي هذه.[١]

[١] Ken Wilber, The Spectrum of Conciousness, Quest Book, Wheaton Illinois, 1989, p. 61.

الفصل الرابع والأربعون

(١٠٠) لدينا قصة من أدبيات الزن تدور حول القناعة والرضى، وهي الفكرة الأساسية في هذا الفصل:

«عاش معلم الزن ريو كان في كوخ متواضع عند سفح الجبل، في إحدى الأمسيات دخل الكوخَ لصٌّ فوجد المكان خاليًا من أي شيء ذي قيمة، وبينما هو خارج من الباب أمسك به ريو كان الذي وصل لتوِّه من الخارج وقال له: لقد أتعبت نفسك في الوصول إلى هذا المكان النائي لتجده فارغًا، وإنه ليعز عليَّ أن أتركك تذهب خالي الوفاض، إليك ثوبي هدية، تسمَّر اللص في مكانه ذاهلًا بينما كان ريو كان يخلع ثوبه ويقدمه إليه، وفي غمرة ارتباكه أخذ الثوب وولى هاربًا، جلس ريو كان عاريًا تقريبًا قبالة النافذة يرقب القمر الذي توسطها، ثم هزَّ رأسه بأسف قائلًا: كم وددت لو أعطيته هذا المشهد الجميل.»

عن هذه القصة يقول شاعر الزن:

اللص
تركه وراءه:
القمر في النافذة.[١]

---

[١] R. Sohl and A. Carr, The Gospel According to Zen, p. 53.

الفصل الخامس وأربعون

(١٠١) لكي نفهم مقصد لاو تسو من إيراد ثنائيات: كمال-نقصان، امتلاء-فراغ، استقامة-انحناء، فصاحة-تلعثم، وجميعًا أشكال ثنائية: نفي-إثبات، نعود إلى قول تلميذه تشوانغ تزو:

> «الإثبات ينشأ عن النفي، والنفي ينشأ عن الإثبات، من هنا فإن الحكيم يصرف النظر عن الاختلافات ويستمد رأيه من السماء، الـ «هذا» هو أيضًا «ذاك». والـ «ذاك» هو أيضًا «هذا». هل هنالك من فرق بين هذا وذاك؟ هل ليس من فرق بينهما؟ ألَّا نكرس الـ «هذا» والـ «ذاك» باعتبارهما نقيضين هو جوهر التاو … إن النفي والإثبات يتمازجان في الواحد اللانهائي، من هنا يذهب القول إلى أنه لا شيء يعلو على رؤية الأشياء من خلال الضوء.»[١]

إن رؤية الأشياء من خلال الضوء ليست فقط رؤية الأقطاب في الواحد، بل الولوج أيضًا إلى الوحدة الكلية.

(١٠٢) تعطف هذه الفقرة على سابقتها في التوكيد على مفهوم التغير باعتباره تفاعلًا بين الأقطاب يقود إلى وحدتها، وما يعنيه لاو تسو بقوله: التحرك يقهر البرد والسكون يقهر الحر، هو أن البرودة تتحول إلى حرارة والحرارة تتحوَّل إلى برودة.

ولعلنا واجدين عند هرقليطس الإغريقي، صاحب فلسفة التغيرات والجدل في الفكر اليوناني، ما يُلقي ضوءًا على مقصد لاو تسو هنا، يقول هرقليطس: «الأشياء الباردة تَدْفأ والأشياء الدافئة تبترد، الرطب يتجفَّف والجاف يترطَّب.»

---

[١] Chuang Tzu, Works, ch. 2. cited in: Chang Chung-yuan, Taoism and Creativity, p. 36.

ومن أقواله التي نكاد نظنها للاو تسو قوله: «كل الأشياء في حالِ تغيُّر دائم، ونظام العالم أشبه بنار متوقِّدة.» وأيضًا: «الطريق الذي يقوّد إلى أعلى هو نفسه الطريق الذي يقود إلى أسفل.»[٢]

(١٠٣) في إدراكه لتداول الأقطاب وتفاعلها في داخله وفي الخارج، فإن الحكيم يفضِّل السكون على الحركة، وعندما يصل حالة السكينة الداخلية التامة يسيطر على نَفْسه وعلى محيطه، يقول تشوانغ تزو: «عندما يكون الماء ساكنًا يبدو كمرآة، إنه يعكس أدق تفاصيل الوجه المنعكس عليه، ويُعطي مؤشرًا على درجة امتلاء الحوض، من هنا فإن الحكيم يتخذ نموذجًا ... عندما يكون عقل الحكيم في سكون فإنه يغدو مرآة للعالم ومرتسمًا للخليقة.»[٣]

[٢] G. S. Kirk, Hiraclitus, Cambridge University Press, London 1970 pp. 105, 149, 307.

[٣] Chuang Tzu, Works, ch. 21, cited in: Allan Watts, Tao: The Watercourse Way, Op. Cit.

الفصل السادس والأربعون

(١٠٤) تقوم الحروب بسبب التنافس بين الأفراد وبين الجماعات ثم بين الأمم، وقد قال لاو تسو:

عندما لا نمجد السبَّاقين نمنع التنافس.

وتقوم الحروب على تسابق الأفراد لتجميع المال، وعلى صراع الشرائح الاجتماعية من أجل رفاهية العيش، ثم بين الأمم على الموارد الطبيعية، وقد قال لاو تسو:

عندما لا نقدِّر النفائس، يختفي المال الحرام
عندما لا نعرض ما يُثير الرغبة، نقضي على تبلبل الأذهان.

وتقوم الحروب على صراع الأفراد لتوكيد ذواتهم واكتساب رموز الجاه والسلطة، وعلى تناحر الشرائح الاجتماعية من أجل التمايز والتفوق، ثم على التطاحن بين الأمم بداعي التفوق القومي أو العرقي، وقد قال لاو تسو:

إذا انحنيت تغلب
إذا انطويت تستقيم.

وأيضًا:

مَن يظهر نفسه لا يبدو للعيان
مَن يتفاخر لا يحوز المكانة
مَن يتبجح لا ينال الاعتراف.

وأيضًا:

على الدولة الكبيرة أن تكون مثل سرير النهر
حيث تلتقي كل مياه الأرض.

وتقوم الحروب على تضخُّم الأنا الفردية لدى الحُكَّام وسعيهم إلى تحقيق الأمجاد الشخصية. وقد قال لاو تسو:

لذا يَعتبر السادة والأمراء أنفسهم بمثابة
الأرامل واليتامى وعديمي الشأن
لأنهم يرتكزون على التواضع.

من هنا يمكن القول إنه:

إذا كان التاو حاضرًا في المملكة
يقتصر عمل الخيول الرشيقة على حراثة الأرض.

الفصل السابع والأربعون

(١٠٦) زار المريد دايجو المعلم باسو في الصين وجرت بينهما الحوارية الآتية:

– ما الذي تبحث عنه يا دايجو؟

– أبحث عن الاستنارة أيها المعلم.

– افتح خزنة كنوزك وانظر ما بداخلها، لماذا تبحث في الخارج؟

– ولكن أين خزنة كنوزي أيها المعلم؟

– ما تبحث عنه هو خزنة كنوزك، إنها في داخلك.

لسماع هذا الجواب حصل دايجو على الاستنارة وصار من معلمي الـ «شان»، وقد عُرف عنه فيما بعد قوله لتلامذته في كل مناسبة: افتحوا خزنة كنوزكم واستخدموها.[١] وحول هذه الفكرة تقول أبيات من شعر الزن:

لا فراديس في الشرق
لا فراديس في الغرب
ابحث في الطريق الذي أتيت منه
تجدها جميعًا في داخلك.[٢]

وهذا ما عبَّر عنه السيد المسيح عندما قال: لماذا تسألون عن ملكوت الله؟ إن ملكوت الله في داخلكم! وما عبَّر عنه التصوف الإسلامي بأكثر من صيغة ومنها قولهم الشائع: وفيك انطوى العالَم الأكبر.

---

[١] R. Sohl and A. Carr, The Gospel According to Zen, p. 51.

[٢] Ibid, p. 51.

من هنا نفهم ما يقصد إليه لاو تسو في هذه الفقرة عندما يقول:

من غير أن تسافر بعيدًا
تستطيع أن تعرف العالم كله
من غير أن تنظر من النافذة
تستطيع أن ترى طريق السماء.

(١٠٧) رؤية طريق السماء تتأتَّى عن الانكفاء إلى حالة السكون، حيث يعكس الفكر مساره الاعتيادي، وبدلًا من توزيع طاقاته في الخارج، يعود إلى وحدته الداخلية. وهذا معنى قوله:

لذا فإن الحكيم يعرف دون أن يتحرك خطوة واحدة.

إنه يتجنب إغواء الحواس الخارجية الخمس ويلجأ إلى الحواس الداخلية. وهذا ما عبَّر عنه المعلم في الفصل ١٢:

لذا فإن الحكيم تقوده أحاسيسه لا عيناه
يترك هذا ويأخذ بالآخر.

وما عبر عنه في هذه الفقرة عندما قال:

يميِّز دون حاجة إلى نظر.

الحواس الخارجية تقود إلى الفعل، أمَّا الحواس الداخلية فتضعك في حالة اللافعل:

ينجز دونما حاجة إلى فعل.

الفصل الثامن والأربعون

(١٠٨) في طلب المعرفة التقليدية يبذل الإنسان جهدًا متزايدًا كل يوم، حيث يجمع الوقائع ويرتِّبها ويصنفها ويحلِّلها، وهنالك دومًا المزيد لكي يعرفه ويضيفه إلى مخزونه، أمَّا في طلب المعرفة الباطنية فإن الإنسان يتخلَّص تدريجيًّا من المعارف التقليدية، ويطامن من نشاطه الخارجي في طلبها حتى يُفرغ نفسه تمامًا. عند ذلك فقط يكون مستعدًّا لتلقِّي الحقائق الكلية الكبرى. وقد قال لاو تسو في الفصل ٤٢:

بالإضافة إليك تنقص
إذا ما نقصت تكسب.

(١٠٩) من خلال اللافعل وعدم التدخُّل في مسار الأشياء تكسب العالم وتحقِّق حالة من التوازن مع الكون.

وبالمعنى العملي السياسي لهذه الفقرة، فإن الحكيم الذي وصل حالة اللافعل في طلبه للتاو يطبِّق أسلوب اللافعل أيضًا في إدارة المملكة، وقد قال لاو تسو في الفصل ١٧ يصف مثل هذا الحاكم:

فإذا أتمَّ مهمته وأكمل عمله.

تقول الرعية: لقد حصل ذلك من تلقاء ذاته.

الفصل التاسع والأربعون

(١١٠) عقل الحكيم ليس عقل «أنا» تتعامل مع ما حولها على أنها وحدة مغلقة مستقلة مشغولة بما يعود عليها بالفائدة، وفي عقل الحكيم لا تتداول، فقط، الأفكار التي تصنعها مواجهاته الخاصة مع بقية الأفراد ومع الأشياء، عقل الحكيم شمولي يتخلَّل كل ما حوله، ويتداول فيه الأفكار التي تصنعها مواجهته الداخلية مع الحقائق الكبرى، عقل الحكيم هو «لا-عقل» بامتياز، لأنه فارغ من الأفكار الجزئية المحدودة البواعث والأهداف، وهو عقل بامتياز لأنه يشتمل على الكل ويجعل من نفسه مرآة للكل، وهو في ذلك يشبه التاو الذي يتخلَّل «عقله» كل شيء ولكنه لا يشعر بعقل خاص به، وتشمل حيطته كل شيء ولكنه لا يشعر بأناه. وهذا معنى قوله:

عقل الحكيم ليس شأنًا خاصًّا به
لأنه مشغول على الدوام بما عداه.

ومعنى الانشغال بما عداه هنا لا يُشير إلى الانشغال بالمسائل التفصيلية الخاصة بالآخرين، بل الانشغال بكل ما يتجاوز الأنا الضيِّقة وصلاتها المباشرة المحدودة.

يقول معلم الزن تي شان: «عندما لا يكون في عقلك أشياء ولا في الأشياء عقل، عندها تغدو فارغًا وروحانيًّا، خاليًا ورائعًا.»[١] فعندما يحقِّق الحكيم حالة الفراغ التام ويوحِّد بين معرفته وموضوعاتها، بين ذاته المنفتحة والكون، فإنه يدرك حقيقة الثنائيات ويتجاوزها إلى وحدتها العُليا.

---

[١] Alan Watts, The Way of Zen, p 151.

(١١١) وبشكل خاص فإن الحكيم يتجاوز ثنائية الخير والشر كمفهومين مُطلقَين متعارضين، ولذا فإنه لا ينظر إلى الشر باعتباره صفة دائمة، بل باعتباره حالة مؤقتة يمكن أن تئول إلى عكسها، من هنا فإنه يعامل الصالح من الناس على أنه صالح، ويعامل الطالح منهم على أنه صالح أيضًا، وبذلك يعمل على تعميم الصلاح، كما أنه يثق بمَن هو أهلٌ للثقة مثلما يثق بمَن هو غير أهلٌ لها، وبذلك يعمل على تعميم الثقة في المجتمع. الحكيم في دوره كحاكم يساعد كل فرد على اكتشاف طبيعته الأصلية الخيرة.

(١١٢) يقول لاو تسو في هذه الفقرة:

في حكم الناس لا ينير الحكيم العقول بل يُخَدِّرها
الناس يتكئون على حواسهم
وهو يعاملهم جميعًا مثل الأطفال.

والمقصود هنا الحفاظ على البراءة الأصلية التي يتصف بها الناس وعدم تعريضهم إلى ذلك النوع من المعارف الذي يثير الرغبات ويُفقدهم طبيعتهم النقية، وكما أن الطفل يتعامل بشكل مباشر مع كل ما حوله دون إخضاع سلوكه للتفكير والتدبير، كذلك يجب أن تكون حال الرعية.

الفصل الخمسون

(١١٣) لكي نستطيع فهم هذا الفصل علينا مراجعة موقف التاوية العام من مسألة الحياة والموت، ولعل المقاطع الآتية التي انتخبتها من أعمال تشوانغ تزو تفي بالغرض، يقول تلميذ المعلم:

«عندما يسقط رجل مخمور من عربة منطلقة، قد لا يموت ولكنه يشعر ببعض الألم، ورغم أن عظامه مثل عظام بقية الناس، فإنه يواجه الحادث بطريقة مختلفة، ذلك أن نفسه في حالة من الأمن والطمأنينة، فهو لم يكن واعيًا لركوبه في العربة، ولم يكن واعيًا أيضًا لسقوطه منها، والأفكار حول الموت والحياة والخوف لا تجد سبيلها إلى قلبه، من هنا فإنه لا يعاني نتيجة لاصطدامه بالأشياء، فإذا كان للخمرة أن تمد الإنسان بمثل هذا الإحساس بالطمأنينة، فما بالك بما يمكن للتلقائية أن تمده به؟»[١]

وأيضًا:

«كيف لي أن أعرف بأن حب الحياة ليس وهمًا؟ كيف لي أن أعرف بأن الخائف من الموت ليس إلا كرجل ترك بيته صغيرًا ولذا لا ينوي العودة إليه؟ مَن يحلم بالمباهج خلال نومه قد يستفيق على النواح والعويل، ومَن يحلم بالنواح والعويل في نومه قد يستفيق ويغدو إلى الصيد واللهو، في أحلامهم لا يعرف الحالمون بأنهم

---

[١] Chuang Tzu, Works 19, cited in: Alan Watts, Tao: The Watercourse Way, p. 97.

يحلمون، وربما وصلوا إلى تفسير أحلام ضمن أحلام وهم نائمون، فقط عندما يصحو الحالم يعرف أنه كان يحلم. ولكن عمَّا قريب سوف تأتي الصحوة الكبرى، وعندها نكتشف أن الحياة لم تكُ إلَّا حلمًا طويلًا»[٢]

وأيضًا:

«الناس في الأيام الخوالي لم يعرفوا حب الحياة ولا كُره الموت، الولوج إلى الحياة لم يكُن بهجة لهم، والخروج منها لم يكُن يُثير فيهم جزعًا ومقاومة. بهدوءٍ كانوا يأتون وبلا ضجيج كانوا يمضون، لا ينسون ما كانت عليه بدايتهم، ولا يتساءلون عمَّا ستئول إليه نهايتهم، لقد قبلوا الحياة واغتبطوا بها، ثم نسوا وآلوا إلى حالةِ ما قبل الحياة، وبهذا لم يكُن لديهم رغبة أو نية لمقاومة التاو، ولم يبذلوا أية وسيلة متاحة لمعارضة طريق السماء.»[٣]

وأيضًا:

«العارفون بالتاو يقبضون على المبادئ الأساسية، مَن يقبض على المبادئ الأساسية يعرف كيف يتعامل مع الظروف والأحوال، مَن يعرف كيف يتعامل مع الظروف والأحوال لا يترك نفسه عُرْضة للأذى، عندما يمتلك الإنسان الـ «تي» الكاملة، فإن النار لا تحرقه، والماء لا يغرقه، والحر والبرد لا يوجعانه، والجوارح والكواسر لا تؤذيه، لا أعني بذلك أن صاحب الـ «تي» يقلل من شأن هذه الأمور ويستخف بها، بل أعني أنه يميز بين ما هو خطِر وما هو آمِن، ويرضى بحسن الحظ أو بسوئه، ويلزم الحذر في غدوِّه ورواحه، ولهذا لا شيء يمكن أن يسبب له الأذى.»[٤]

إن ما يمكن استنتاجه من هذه المقاطع لتلميذ المعلم، هو أن التاوية الحكموية، وعلى عكس التاوية الطقسية اللاحقة لها، ترفض أساليب اليوغا الهادفة إلى إطالة العمر

[٢] Chuang Tzu, ch. 2, cited in: Allan Watts, Ibid, p. 93.

[٣] Chuang Tzu, ch. 2, cited in: Allan Watts, Ibid, p. 87.

[٤] Chuang Tzu, ch. 2, cited in: Allan Watts, Ibid, p. 116.

بالوسائل الاصطناعية، والسعي إلى تحقيق الخلود الشخصي بعد الممات، وبالمقابل فإنها تؤكد على ضرورة أن يحيا الإنسان حياة طبيعية خلال الفترة المقدَّرة له في هذه الدنيا، بدون خوف من الموت أو تعلُّق وشغف بالحياة. كما تؤكد على ضرورة حفظ البقاء عن طريق السير مع تيار الطبيعة وعدم معارضة التاو، إن فرص البقاء تكون أفضل عندما لا تؤرِّقنا فكرة الموت ولا يتملكنا هاجس البقاء، وهذا ما عناه لاو تسو في آخِر الفصل عندما قال بأنه لا موضع في الجسد التاوي لطعنة سلاح، لأنه لا يترك للموت مكانًا ينفذ منه، فالتاوي معنيٌّ بالحياة ويعرف كيف يسير عبرها، ولكنه غير هيَّاب من الموت ويعرف كيف يموت أيضًا.

الفصل الحادي والخمسون

(١١٤–١١٦) يتصل التاو بالآلاف المؤلَّفة من خلال الـ «تي»، التاو يهبهم الحياة والـ «تي» ترعاهم، ينشئهم ويرزقهم ويُئويهم ويطعمهم، ولكن دون خطة مُحكَمة مُسبقة ودون غاية يسعى إليها من وراء ذلك، لا يوجد فكر محرِّك في الكون ولا عقل مُدبِّر، بل تلقائية وصيرورة طبيعية، وكما قلنا في الفصل ٤٩ سابقًا، فإن عقل التاو مُنبَثٌّ في مظاهر الوجود كلها ولكنه لا يشعر بعقل خاص به، وحيطته تشمل كل شيء ولكنه لا يشعر بأنا خاصة به.

التاو لا يفرض نفسه سلطانًا على العالم وكائناته، ومع ذلك فإن كل نفس حية منقادة بطبيعتها في مجراه، متعلِّقة به، من هنا، فإن حريتها هي عين تماثلها مع التاو، وعبوديتها هي التنكُّر له والتعلُّق بالأنا الوهمية الزائلة، عندما تنظر الأنا إلى نفسها من خلال شروطها المحدودة، فإنها ترى استقلاليتها واستقلال كلَّ ما عداها، فتظن أن باستطاعتها ممارسة الفعل الحر الفردي، فتحاول ممارسة القسر على الآخَرين وعلى الطبيعة، الأمر الذي يقود إلى اختلال المجتمع واختلال علاقة الإنسان بالطبيعة، أمَّا عندما تنظر الأنا إلى نفسها من خلال التاو، فإنها تتحوَّل إلى ذاتٍ مُنفتِحة وتكتشف الحرية الكبرى: حرية الامتثال لتلقائية الكون وحركة التاو.

الفصل الثاني والخمسون

(١١٧) التاو هو مبتدأ السماء والأرض، عندما تعرف الأصل تغدو قادرًا على معرفة الفروع، ولكن بعد معرفة الفروع عُد إلى الأصل وثبِّت قلبك عليه، عندها ستحصل على السعادة القصوى وتعيش أيامك الموعودة في تناغُم مع الكون.

ونلاحظ هنا كيف أن المفهوم التاوي للمعرفة ينطلق من المعرفة بالكليات أولًا، لأن المعرفة بالكليات هي التي تجعل المعرفة بالجزئيات ممكنة، أمَّا المعرفة بالجزئيات فتتركك عند حدود الجزئيات، ولا تستطيع أبدًا الانطلاق منها نحو الكل.

(١١٨) دعِ الكلمات والتفكير بالكلمات وأغلِق منافذ الحواس، هذا هو طريق العرفان الداخلي الذي يقود إلى الاستنارة الكاملة، عندما تحقِّق الاستنارة تغدو مثل التاو، فارغًا ولكنك لا تنضب، الكلمات هي المعادل الذهني للأشياء، والأشياء هي الظواهر المتجزِّئة التي تنشغل بها الحواس الخمس، إذا بقيتَ عند حدود الكلمات وما تنقله لك حواسك من انطباعات متجزِّئة عن العالم، تضل عن طريق العرفان الداخلي ولا تحقق الاستنارة قط.

(١١٩) الظاهر يُرى بالحواس والخافي يُرى بالبصيرة. استخدم الحواس للتعامل مع الظاهر، ولكن إذا أردت الجوهر، إذا أردت العودة إلى الأصول، أغلِق بوابات الحواس وافتح عينك الداخلية، وفي هذا وذاك مارِس اللافعل واللاجهد، الجأ إلى اللِّين الذي هو قوتك الحقيقية، عندما تنكفئ نحو الداخل اهجر كل ما عرفت من وسائل التمييز، التي تُستخدم للتعامل مع عالم الظواهر، والجأ إلى ضوئك الداخلي. عند ذلك فقط تحيا في الحقيقة.

الفصل الثالث والخمسون

(١٢٠) من السهل إدراك التاو والسير وفق طريق السماء، طريق السماء مستقيم وممهَّد، وكذلك طبيعة الإنسان الأصلية، فإذا أدركت طبيعتك الداخلية المتناغمة مع حركة الكون، تركتَ نفسك تنقاد إليها، ولكن الناس غافلون عن حقيقتهم، عابدون لرغباتهم، متمركزون حول أناهم الفردية الزائلة، ولذا فإنهم لا يرون الطريق السهل الممهَّد، بل يضلون في طريق وعرة متعرِّجة، هي طرق الرغبات التي تقود إلى التنافس والتطاحن وتمايُز الشرائح الاجتماعية.

(١٢١) وينجم عن ذلك ما نراه في المجتمعات التي تُؤَلِّه الرغبة وتزرع قِيَم التفوق والتفاخر والاكتناز، فالإهراءات فارغة بينما القصور مليئة ومُزيَّنة، الحقول مَلْأى بالأشواك وهناك مَن يخطر بالأزياء الفارهة، ومَن يتبختر والسيف إلى جنبه، ومَن يأكل ويشرب بإفراط ويكتنز ما يفيض عن حاجته.

الفصل الرابع والخمسون

لا يوجد في الفقرة الأولى والثانية من هذا الفصل ما يمكن التعليق عليه، لذا سأنتقل إلى الفقرة الثالثة وهي لُب موضوع الفصل.

(١٢٤) عندما ننظر إلى الأشياء من خلال الأشياء ذاتها نتبع طريق الطبيعة، وعندما ننظر إلى الأشياء من خلال الأنا فإننا نتبع طريق الهوى والرغبات، الطبيعة حيادية أمَّا الرغبة فذاتية ومتحيِّزة وعمياء، عندما تنظر إلى الأشياء من خلال الأشياء ذاتها فإنك تفرح لفرحها وتحزن لحزنها؛ لأن عقلك يكون في حالة من التماهي والتواحُد معها، وما نعنيه بالأشياء هنا هو مظاهر العالم الجامدة والحية، والبشر أفرادًا وجماعات، وهذا ما يشير إليه لاو تسو عندما يقول:

لذا، انظر إلى الشخص من خلال الشخص
انظر إلى العائلة من خلال العائلة.

ثم يوسِّع دائرة النظرة غير الذاتية هذه لتشمل القرية والأمة ثم العالَم بكامله، إن رؤية الأشياء من خلال الأشياء ذاتها لا من خلال ذواتنا، تقود إلى تماهي العقل مع حقيقة الأشياء، وتوحده مع السماء والأرض في تيار دافق واحد.

الفصل الخامس والخمسون

(١٢٥–١٢٦) يستخدم لاو تسو هنا صورة الوليد الجديد للتعبير عن الحالة التي يئول إليها مَن يفتح قلبه لقوة التاو المتخلِّلة في الطبيعة، فرغم أن عضلات الوليد الجديد ليِّنة وعظامه طريَّة فإن قبضته قوية، وهو يصرخ طيلة النهار دون أن يُبَح صوته، وينتصب قضيبه لا لأنه يعرف عن الأمور الجنسية، بل لأن طاقته الحيوية في أوْجِها. مثل هذه القوى وغيرها لا تتأتى بالاكتساب عند أهل الـ «تي»، بل هي ناتج تلقائي للتناغم الداخلي الذي تحقق عددهم، التناغم الداخلي هو باب العرفان الداخلي الذي يقود إلى الاستنارة.

ويستخدم تشوانغ تزو صورة الوليد الجديد أيضًا للتعبير عن الحالة التلقائية المُثلى التي يطمح التاوي إلى تحقيقها، فيقول:

> «ينظر الوليد الجديد إلى ما حوله دون تدقيق أو تحديق، لأن عينَيه لا تركِّزان على شيء بحدِّ ذاته. يتحرك دون أن يعرف إلى أين، ويتوقف دون أن يعرف لماذا، إنه يمزج نفسه بمحيطه ويتماشى معه، هذه هي مبادئ الصحة العقلية.»[١]

وهذا يذكِّرنا بقول لاو تسو في الفصل ٢٠:

هائم كمَن لا بيت عنده يئوب إليه
عقلي مثل الأبله، صفحة بيضاء
ساكن مثل صفحة الماء الهادئ
أعتمد على الأم مرضعتي.

---

[١] Chuang Tzu, Works, ch. 2. cited in: Alan Watts, Tao: The Watercourse Way, p. 55.

(١٢٦) بعد أن أوضح لنا نوعية القوى الطبيعية التي تهبها قوة التاو لَمَن يفتح نفسه لها دون جهد أو ممارسة للقسر، ينتقل لاو تسو في هذه الفقرة إلى نقد المذاهب الطقسية الهادفة إلى اكتساب القوى الخارقة وإلى إطالة العمر بالوسائل المصطنعة، أو إلى تحقيق نوع من الخلود الشخصي، كما هو الحال في المذاهب اليوغية (ومنها التاوية الطقسية). فمن وجهة نظر التاوية الحكموية، لا يمكن تحقيق الاستنارة عن طريق تمرينات مُعدَّة سلفًا يمارسها المُريد، بل عن طريق ترك العقل حرًّا من أي قيد أو شرط، قد يجلس التاوي في وضعية الاستغراق الباطني، ولكنه لا يمارسه كتمرين مفروض، ولا يهدف من ورائه إلى تحقُّق نتائج مُعيَّنة ومُحدَّدة بواسطة القسر والإكراه، والاستنارة عنده لا تأتي بالسعي إليها بل بعدم السعي، ومن خلال اللافعل واللاجهد.

(١٢٧) في صيرورة الطبيعة لا يوجد تطرُّف بل توازُن، إذا أدركت موقعك في هذا التوازن سلمت، وإذا تجاهلته أتيت إلى نهاية سريعة، التاوي يحافظ على موقع الوسط بين الأقطاب، يتحرر منها ولكنه يوحدها في نفسه، وفن الحياة عنده أن يسير في الطريق الوسط دون انحراف نحو هذا القطب أو ذاك، وقد قال المعلم في الفصل ٢٩:

من هنا فإن الحكيم يتجنب الغلو والإفراط والصلف.

الفصل السادس والخمسون

(١٢٨) اللغة بطبيعتها ثنوية؛ لأنها نتاج فكر ثنوي علائقي، حيث لا يتخذ النفي والإثبات معنَيهما إلا من خلال العلاقة القطبية التي تجمع بينهما، إن أي تحديد وتعريف لشيء مادي أو معنوي، يفصله عن غيره، هو التحديد والتعريف الذي يجمعه إلى غيره، فالواطئ مستقل عن العالي ولكنه لا يوجد بدونه، والقَبل مستقل عن البَعد ولكنه لا يوجد بدونه، والصوت مستقل عن الصمت ولكنه لا يوجد بدونه ... وهكذا وصولًا إلى الوجود والعدم، والمطلق والنسبي، وينجم عن ذلك أن أية أطروحة ميتافيزيكية هي بالنتيجة أطروحة نسبية وذات طابع كلامي لا يعكس جوهر الحقيقة؛ لأن الحقيقة غير ثنوية ولا يمكن مقاربتها بفكر ثنوي، الفكر غير الثنوي هو الفكر الذي حقَّق الوحدة الداخلية وتجاوز القطبية إلى طباقها الذي لا نفي له، من هنا يقول لاو تسو:

الذي يعرف لا يتكلم
الذي يتكلم لا يعرف.

(١٢٩) والعارف إذ يهجر الكلمات وينسى التفكير من خلال المفاهيم، فإنه في الوقت نفسه يتجنَّب إغواء الحواس، على حدِّ قول لاو تسو في الفصل ١٢، وينكفئ نحو الداخل، ويعبِّر المعلم في هذه الفقرة عن الانكفاء نحو الداخل بإغلاق الأبواب وسد النوافذ، ويتبع ذلك بتكرار ما قاله في الفصل الرابع:

ثلِّم الحد، حُل العُقَد
خفِّف البريق، تمازج مع التراب.

وقد شرحنا مؤدَّى هذه العبارات في موضعها من الفصل الرابع، فيُرجى المراجعة.

(١٣٠) الضمير في هذه الفقرة عائد إلى التاو، ويمكن في الوقت نفسه أن يُشير إلى الحكيم.

الفصل السابع والخمسون

(١٣١) في السطر الأول من هذا المقطع ترد كلمة chen الصينية والتي تعني الاستقامة، وتعني في الوقت نفسه السكون، وقد استخدمها لاو تسو بهذا المعنى الأخير في أكثر من موضع، لذلك فقد فضَّل بعض المترجمين المعنى الأول فقالوا: «احكم البلاد بالاستقامة.» وفضَّل البعض الآخَر المعنى الثاني فقالوا: «احكم البلاد بالسكينة.» ولكنني أعتقد أن لاو تسو قد قصد المعنيين معًا من هذه الكلمة، ولذا فضلت استخدامهما على التتابع وقلت:

احكم البلاد باتباع السكينة، وتقويم ذاتك.

وقد وجدت سندًا لهذه الترجمة في أقوال كونفوشيوس في الحاكم الصالح، فلقد قال كونفوشيوس لتلامذته: «ألَم يكن الإمبراطور شون هو الحاكم الذي لم يلجأ إلى التدخل في شئون المملكة، ومع ذلك فقد حكم المملكة بشكل ممتاز؟ ما الذي فعله الإمبراطور شون؟ لقد أصلح نفسه واتخذ وضع الحاكم المؤهَّل، هذا كل ما فعله.»[١] أيْ إنَّ الإمبراطور قد قوَّم نفسه واتبع السكينة، على حدِّ تعبير لاو تسو، وعزف عن التدخل في شئون الرعية.

ويُحكَى عن الوزير الأول للإمبراطور كينغ هوي (١٩٤–١٨٧ق.م.) المدعو تسي آو، أنه قد جمع عددًا من الحكماء ليشيروا عليه بأفضل طريقة لإدارة البلاد، ولكن نصائح الحكماء تضاربت ولم يستطع الوزير استخلاص شيء مفيد منها، عند ذلك استدعى الحكيم التاوي كاي كونغ، الذي قال له: إن البلاد تُدار بهدوء الحاكم واتباعه السكينة، عندها ينتظم الناس

١ Alan Watts, Tao: The Watercourse Way, p. 77.

وينقادون من تلقاء ذاتهم، وتقول الأخبار عن تلك الفترة: إن شئون البلاد قد استقرت بعد أن أخذ الوزير بنصيحة الحكيم التاوي.[٢]

(١٣٢) إن زيادة تدخل الحاكم في شئون الرعية من شأنها إحداث آثار سلبية على المجتمع وعلى علاقة الحاكم بالمحكوم، وكلما عمدت السلطة إلى مزيد من التنظيمات والتقييدات على حرية وحركة الناس، ازداد الناس فقرًا، وعندما يزدادون فقرًا ينسون طيبتهم ويلجئون إلى الخبث والحيلة في التعامل مع السلطة، كما يلجئون إلى المقاومة بشتى الوسائل، وكلما زادت السلطة في سنِّ القوانين والعقوبات الرادعة، انتشرت الجريمة وازداد عدد اللصوص وقُطَّاع الطُّرق.

(١٣٣) من هنا فإن الطريقة المُثلَى لحكم الناس هي التزام مبدأ اللافعل، وعدم التدخل في شئون الرعية، لأن الناس إذا لم يشعروا بوطأة السلطة عادوا إلى طبيعتهم الأصلية الطيبة، وانتظمت أحوالهم من تلقاء ذاتها دونما حاجة إلى قوانين صارمة وعقوبات رادعة. ولدينا من تاريخ الصين أمثلة مقنعة على نجاح مثل هذا الأسلوب.

في عام ٣٦٠ق.م. صعدت أسرة شانغ إلى السلطة في مملكة شي آن الغربية في الصين، وأرسى أول ملوكها المبادئ الرئيسية التي قام عليها حُكم هذه الأسرة حتى نهايتها في عام ٢١٠ق.م. فقد ألغى هذا الملك ألقاب الشرف التقليدية وما يتمتع به حاملوها من مزايا مادية ومعنوية، وأعاد توزيع الألقاب والمراتب وفقًا للمنجزات الحربية، فكان على النبلاء القدماء استعادة مواقعهم السابقة من خلال الخدمة العسكرية وإلا تم إنزالهم إلى مصافِّ العوام، وكان السبيل لتحقيق الجاه والثروة هو خوض المعارك ضد الممالك الصينية الأخرى، الأمر الذي جعل الناس في حالة نَهَم للحرب وترقُّب لها كما تترقب الذئاب الجائعة قطعة من اللحم، وقد ترافق ذلك كله مع شيوع الفوضى في البلاد وازدياد الجريمة وانتشار اللصوص وقطَّاع الطرق في كل مكان، وكلما عمدت السلطة إلى زيادة القوانين والتشدد في العقوبات عمَّت الجريمة أكثر فأكثر، ورغم أن الإبلاغ عن المجرم كان يُكافَأ كما يُكافَأ الإقدام في المعارك، والتستُّر على المجرم كانت عقوبته كعقوبة التخاذل أمام العدو.

وعندما أفلحت أسرة شانغ أخيرًا في توحيد الصين تحت لوائها، أعلن آخِر أباطرتها المدعو شينغ هوانغ تي أنه قد أسس لأسرة حاكمة جديدة سوف تستمر لألف عام، ولكن بعد

[٢] Chang Chung-yuan, Tao: A New Way of Thinking, p. 144.

وفاة هذا الإمبراطور عمَّ التمرد في كل مكان من الإمبراطورية، وقام المدعو ليو بانغ بتنظيم ثورة شاملة استطاعت أخيرًا إسقاط أسرة شانغ ورفعت ليو بانغ إلى العرش، فكان أول أباطرة أسرة هان التي استمرت في الحكم قرابة أربعة قرون، عقب دخول القوات المنتصرة إلى العاصمة، جمع ليو بانغ شيوخ البلاد ووجهاءها وأعلن أمامهم بيانه السياسي، الذي ندَّد فيه بكل وسائل القمع والاضطهاد السابقة، وأعلن إلغاءه لجميع القوانين التعسُّفية الجائرة التي سَنَّها أباطرة أسرة شانغ، وإبقاءه على ثلاثة قوانين بسيطة تتعلق بالقتل العمد والاعتداء والسرقة، وكان على المحاكم والقضاة أن تتعامل مع كل جريمة واقعة تحت هذه القوانين الثلاثة وفق ظروفها وملابساتها الخاصة، والامتناع عن التطبيق الأعمى والعشوائي للقانون، ويقول مؤرِّخو تلك الفترة إن الأمن والاستقرار قد سادا فترة طويلة من الزمن خلال عهد هذا الإمبراطور وخلفائه.[٣]

[٣] Alan Watts, Op. Cit., pp. 84–86.

الفصل الثامن والخمسون

(١٣٤) الغفلة التي يقصدها لاو تسو هنا، هي عدم تدخل السلطة في شئون الناس، وتخفيفها للتنظيمات والتقييدات ممَّا أوضحناه في الفصل السابق، أمَّا اليقظة فهي توكيد السلطة السياسية لنفسها في كل مناسبة، والإكثار من القوانين والعقوبات الرادعة، إن غفلة الحكومة في تعاملها مع الرعية تترك الناس على طيبتهم وبساطتهم الأصلية، أما يقظة الحكومة وتشديد قبضتها على الرعية فتفسد بساطة الناس وطيبتهم، وتدفعهم إلى الخبث والتحايُل على القانون مهما بلغت شدته وصرامته.

(١٣٥–١٣٦) الناس العاديون ممَّن تقودهم حواسهم لا بصيرتهم، لا يدركون الكون كصيرورة تتداولها الأقطاب. فإذا جاءهم الحظ ابتهجوا وظنوا أنها خاتمة المطاف، ولكن سوء الحظ ما يلبث أن يُسفر عن وجهه وتظهر الكارثة من تحت الأفراح والمباهج، مثلما ينبت السيِّئ من قلب الطيب، ويظهر الخداع من تحت الصدق، أيضًا، أمَّا الحكيم فيرى الثنائيات ويدرك تداول الأقطاب، لا يتطابق مع واحد منها، ولذا لا يكون عرضة لتناوباتها، إذا صار حادًّا لا يقطع وإذا لمع لا يُبهر الأبصار وإذا اتسع لا يتعدى، إنه يعرف الذكر ويلعب دور الأنثى، يعرف الأسود ويلعب دور الأبيض، على حد قول المعلم في الفصل ٢٨. وفيما يتعلق بالمعنى السياسي المتضمن في الفقرة ١٣٦، فإن لاو تسو يقول إن على الحاكم أن يكتسب كل خصائص الـ «يانغ» مع إظهار كل خصائص الـ «ين».

الفصل التاسع والخمسون

(١٣٧) الحاكم الأمثل هو الذي يكون له ظاهر الحاكم الدنيوي وباطن الحكيم الساكن الهادئ، إن أفعاله لا تصدر عن أنا منغلقة على نفسها تسعى إلى تحقيق غاياتها الشخصية من خلال السلطة، بل تصدر عن ذات منفتحة لا تسعى إلا إلى تحقيق التاو في المملكة وفي العالم، عندما يمتلك الحاكم السلطة المطلقة على المملكة تمتلئ نفسه بالطموحات مثلما تمتلئ بالقلق والمخاوف والهواجس، ومن وجهة النظر التاوية في الحكم والسياسة، فإن مثل هذا الحاكم لن يستطيع قيادة الدولة بكفاءة، إذا لم ينكفئ إلى حالته الأصلية التي تتصف بالسكون والصفاء، عندها يغدو حكم الدولة سهلًا مثل تحضير سمكة صغيرة للأكل.

الفصل الستون

(١٣٨) عندما يسود التاو في المملكة وفي العالم، يحل التناغم بين الأقطاب التي كانت تبدو متعارضة متناقضة، وذلك من غير أن يفقد كل قطب خصيصته المميزة والمعاكسة لقطبه الآخَر، فالشر يفقد سلطانه رغم أنه لم يفقد قوته، والمتمتعون بالقوة يبقون أقوياء ولكن قوتهم لا تُستخدم لإيذاء غيرهم، ينطبق ذلك على الحاكم مثلما ينطبق على سائر الناس، عندما يسود التناغم في المجتمع لا يرى كل واحد لنفسه فضلًا فيما حصل، أو كما قال المعلم:

عندها يعزو كل شخص الفضل للآخر.

الفصل الحادي والستون

(١٤٠) يطبِّق لاو تسو في هذا الفصل أفكاره في اللِّين والتواضع على العلاقات الدولية، فقد قال المعلم في الفصل ٣٢:

يشق التاو طريقه في العالم
مثلما تشق الأنهار طريقها إلى البحر.

ويقول هنا:

على الدولة الكبيرة أن تكون مثل سرير النهر
حيث تلتقي مياه الأرض جميعًا.

(١٤١) وقد قال في الفصل ٢٨:

اعرف الذكر والعب دور الأنثى.

ويقول هنا عن الدولة الكبيرة:

إنها للبقية مثل المرأة
المرأة تحصل على بغيتها من الرجل بالسكون.

(١٤٢) وقد قال في الفصل ٢٢:

إذا انحنيت تغلب، وإذا انطويت تستقيم.

ويقول هنا:

لذا فإن الدولة الكبيرة عندما تتخذ الوضعية السُّفلَى
تكسب الدولة الصغيرة.

(١٤٢) وقد قال في الفصل ٢٨:

اعرف الإباء والعب دور المتواضع.

ويقول هنا:

ولكن على الدولة الكبيرة أن تُبدي تواضعها أولًا.

الفصل الثاني والستون

(١٤٣) قال المعلم في الفصل ٤٢:

الآلاف المؤلَّفة تحمل الـ «ين» على كتفها
وتعانق الـ «يانغ» بالذراعين
الآلاف المؤلَّفة ناتجُ تمازُج القوتين.

وهذا يعني أنه لا يوجد شيء حي أو جامد إلا مُتخلَّل بالتاو، فإذا كان الصالحون يوقِّرونه ويُجلونه فإن موقفهم منه ليس مفروضًا من قِبَل أية سلطة ولكنه من طبيعة الأشياء، على حد قول المعلم في الفصل ٥١. وبالمقابل فإن التاو يبسط حمايته ورعايته على الطالحين من الناس مثلما يبسطها على الصالحين.

وموقفه هذا ليس فعلًا إراديًّا بل هو من صلب طبيعة الأشياء أيضًا، لأنه:

يعطيهم الحياة ولا يدَّعي امتلاكًا
يعينهم ولا يقتضي عرفانًا
يدبِّر شئونهم ولا يدَّعي سلطانًا.

(١١٤–١١٥) فإذا كان التاو يبسط حمايته على الصالح والطالح معًا، فإن مَن عرف التاو يتماثل معه، فلا يصدر عنه إلا الفعل والعمل الخيِّر، وهو يتعامل مع الصالح والطالح بالمعيار نفسه، فلا يدير وجهه عن الطالح رغم سوئه، وقد قال المعلم في الفصل ٤٩:

أثق بمَن هو أهلٌ للثقة
كما أثق بمَن هو غير أهل لها
وبذلك أعمل على تعميم الثقة.

(١٤٦) من هنا، فإن أعظم هدية يمكن للحكيم أن يقدِّمها للملك في يوم تتويجه هي فتح بصيرته على التاو، ليغدو مثله أبًا للجميع.

(١٤٦-أ) يقول المعلم هنا: إنك إذا لم تبحث عن التاو تجده، وهذا هو مضمون الحوارية التي أوردناها في موضع سابق بين الحكيم نان تشوان وتلميذه تشاو تشو:

«سأل تشاو تشو معلمه نان تشوان: ما هو التاو؟ فأجاب المعلم: عندما تقصد أن تتوافق معه تنحرف عنه. فقال التلميذ: ولكن كيف لي أن أعرف التاو دون قصد؟ فأجاب المعلم: لا ينتمي التاو إلى مجال المعرفة ولا إلى مجال عدم المعرفة. لأن المعرفة فهم زائف واللامعرفة جهل أعمى. إذا أردت أن تفهم التاو انظر إلى السماء الفارغة.»[١]

[١] Alan Watts, Tao: The Watercourse Way, p. 38.

الفصل الثالث والستون

(١٤٧) بعد أن يبسط لاو تسو في هذه الفقرة نصيحته المألوفة حول اللافعل وعدم التدخل في مسار الأشياء، يتبعها بقوله: تذوَّقْ ما لا طعم له، ويعني بذلك تفادي إغواء الحواس والانكفاء نحو الداخل، وقد قال حول المعنى نفسه في الفصل ١٢:

الطعوم الخمسة تفسد حاسة التذوق
لذا فإن الحكيم ينكفئ نحو الداخل
ويتجنَّب إغواء الحواس.

كما قال في الفصل ٣٥:

التاو في مروره عبر الفم لا طعم له.

(١٤٨–١٥٠) يتابع لاو تسو هنا معالجة مبدأ تماهي الثنائيات وتقابل الأقطاب وتحول بعضها إلى بعض، فالصغير يغدو كبيرًا، والقليل يغدو كثيرًا، والسيئة تصير حسنة، والسهل مقدِّمة للصعب ... إلخ. وتتضمَّن أقواله هنا نوعًا من النصائح العملية التي يمكن تطبيقها في الحياة اليومية وفي عالم الحكم والسياسة، وذلك كقوله: إن أصعب المهام تبدأ بالخطوات السهلة، والحكيم ينجز ما هو عظيم لأنه لا يباشر العمل بما هو صعب، ومعظم نصائح لاو تسو في هذا الفصل قد تحوَّل إلى أمثال دارجة كقوله: كلما استسهلت بَذْل الوعود صعُبَ عليك تحقيقها، وكلما وجدت الصعب خفيفًا شقَّ عليك تحقيقه.

الفصل الرابع والستون

(١٥٢) لقد قال المعلم في الفصل السابق:

تأمل الصعب من خلال السهل
باشر العمل الكبير من خلال العمل الصغير.

وهو يقول لنا هنا أن نباشر ما هو سهل قبل أن يتحوَّل إلى ما هو صعب، وتنطبق هذه النصيحة بشكل خاص على الحاكم الذي يخاطبه قائلًا:

من السهل أن تحافظ على موقف لم ينفجر بعد
من السهل أن تتعامل مع موقف لم تظهر فيه أعراض الخلل.

وكما أنه:

من السهل أن تُخرِّب ما هو في طور التشكل
ومن السهل أن تبعثر ما هو صغير ودقيق.

فإن عليك أن:

تتعامل مع الأمور قبل وقوعها
وتضبط الأمور قبل أن يدب فيها الاضطراب.

(١٥٣) إن الأمور التي تفاقمت وغدت أمرًا لا يمكن السيطرة عليه تشبه:

الشجرة العملاقة التي نشأت عن سُوَيقة صغيرة
ومدرجًا من الأرض بتسع مساكب صُنع ابتداءً من حفنة تراب.

(١٥٤) إن حكم الدولة وفق النظام الطبيعي الذي يشكِّل المجتمعُ الإنساني إحدى ظواهره، لا وفق ما تمليه الأنا الضيقة، هو الذي يمنع ظهور أعراض الخلل في المجتمع، ولاو تسو يقول في هذه الفقرة ما قاله بصيغة أخرى في الفصل ٥٧:

لا أقوم بأي فعل والناس يتغيرون من تلقاء ذاتهم
أميل إلى حالة السكون والناس ينصلحون من تلقاء ذاتهم
متحرِّر من الرغبات والناس يصيرون بسطاء كالجلمود الخام.

(١٥٦) إن السطر الأخير من المقطع أعلاه يستبق ما يقوله المعلم في هذه الفقرة من أن الحكيم: يرغب في ألَّا يرغب، ويتعلم ما لا يعلم. إنه:

في تناغم مع طبيعة الآلاف المؤلَّفة
ولكنه لا يتدخل بشئونها.

يقول تشوانغ تزو:

«في الماضي، جرت العادة على ترك الناس لشئونهم، في الماضي لم تكُن مسألة حكم الناس مطروحة، إذا لم يُترك الناس لشئونهم، هنالك محذور من أن تنحرف ميولهم الطبيعية وتُهمَل فضيلتهم التلقائية، أمَّا إذا تُرك الناس لشئونهم فإن ميولهم الطبيعية لا تنحرف وفضيلتهم التلقائية لا تُهمَل. فما الذي يبقى بعد ذلك للحكومة أن تفعل؟»[١]

---

١ Chuang Tzu, Works, ch. 11, cited in: Alan Watts, Tao: The Watercourse Way p. 81.

الفصل الخامس والستون

(١٥٧) إن حالة الجهل التي يرى لاو تسو ضرورة إبقاء الناس فيها، هي حالة البراءة الأصلية التي لم تفسدها مفاهيم المجتمعات المدنية وقيمها، تلك القيم التي تشجع على التنافُس والتناحُر والتفوُّق على حساب الآخرين، حيث يبدو أكثر الناس فطنة هو أقدرهم على اقتناص الفرص والصعود ولو على أشلاء البقية من منافسيه، وحيث يبدو أكثر الناس غباء هو الذي لا يعرف من أين تُؤكَل الكتف، على حدِّ تعبير المثل الدارج.

إن الحالة المُثلى التي يجب أن تكون عليها الرعية، هي حالة الطفل البريء الذي يتعامل مع محيطه بشكل مباشر ودون إعمال لفكر، وممارسة لذكاء مُصطَنع ومكتسب، وهذا ما قاله المعلم في الفصل ٤٩:

في حكم الناس، لا ينير الحكيم العقول بل يُخدِّرها
الناس يتكئون على حواسهم
وهو يعاملهم جميعًا مثل الأطفال.

(١٥٧-أ) إن ممارسة الحاكم للسلطة من خلال اللافعل واللاجهد، وعدم تدخله في مسار الأشياء، يساعد على إبقاء الناس في حالة البراءة الأصلية، ولا يعرِّضهم إلى ذلك النوع من المعارف الذي يثير الرغبات. ويعبِّر لاو تسو عن هذه الطريقة في ممارسة السلطة بـ «عدم استخدام الذكاء»، وعن عكسها بـ «استخدام الذكاء». عندما يتدخل الحاكم ويُكثر من التنظيمات والتقييدات وسَنِّ القوانين، يفسد الطبيعة الأصلية للناس ويدفعهم إلى مقاومته بطريقته وأسلوبه.

الفصل السادس والستون

(١٥٩) يتابع هذا الفصل شرح فضيلة التواضع مما ورد في الفصل ٦١. وقوله في هذه الفقرة يشبه ما قاله سابقًا:

على الدولة الكبيرة أن تكون مثل سرير النهر
حيث تلتقي كل مياه الأرض.

(١٦٠) السلطة ليست مزية بل عبءٌ ثقيل، وليست حظًّا يُصيب المرء بل سوء طالع، وقد قال المعلم في الفصل ٤٢:

العزلة والتوحد وسوء الطالع كلمات يكرهها الجميع
ومع ذلك فإن الحكام والأمراء يستخدمونها لوصف أنفسهم.

لذا فمَن أراد أن يحكم أمة عليه أن يتضع أمامها أولًا، ومَن أراد أن يقود شعبًا عليه أن يسير وراءه أولًا، على حد قول المعلم في هذه الفقرة، وقد قال سابقًا في الفصل ٢٤:

مَن يتفاخر لا يحوز المكانة، مَن يتبجح لا ينال الاعتراف.

(١٦١) الحاكم إذا اعتلى قمة السلطة لا يشعر بسلطته أحد، وإذا سار في مقدمة الركب لا يشعر بوجوده أحد، على حد قول المعلم في هذه الفقرة، وقد قال سابقًا في الفصل ١٧:

أفضل الحكام مَن شابه الظل عند رعيته.

(١٦٢) يقرن لاو تسو هنا فضيلة التواضع بفضيلة اللِّين، وقوله يتضمن تنويعًا على قوله في الفصل ٢٢:

لا يباري أحدًا، ولذا فلا منافس له.

لقد تخلَّلَت تعاليم لاو تسو في فضيلة التواضع ثقافة الشرق الأقصى بكاملها، وساعدت على تكوين الشخصية الصينية واليابانية بشكل خاص، وما تتسم به من تواضع وتهذيب واحترام للآخرين.

الفصل السابع والستون

(١٦٣) إن الكِبَر أو الصغر، الضِّيق أو الاتساع، هي صفات نسبية تتخذ واحدتها خصيصتها من الأخرى، فالصغير صغير مقارنة بما هو كبير، والكبير كبير مقارنة بما هو صغير، لا يوجد في العالم النسبي كبير إلَّا وهنالك أكبر منه، ولا صغير وإلا وهنالك أصغر منه. أمَّا في مجال المطلق فإن هذه الصفات وأمثالها لا وجود لها، المطلق ليس كمثله شيء، على حدِّ تعبير لاو تسو في هذه الفقرة، وهذا يفسر قوله الآخر أيضًا: لو ماثله شيء لغدا صغيرًا منذ أمد طويل، لأن في المماثلة دخولًا في النسبي، المطلق في المفهوم التاوي يتخلل المظاهر ولكنه قائم في ذاته وفي غِنًى عنها. النسبي يئول إلى المطلق ولكن المطلق لا يئول إلى النسبي، النسبي عَرْض ومظهر، والمطلق كمون وجوهر.

(١٦٤) الكنز الأول من الكنوز الثلاثة التي يحرص لاو تسو عليها هو الرحمة، والكلمة هنا هي ترجمة لمصطلح تاوي يعني التعاطف والحب الشمولي الذي يعادل مفهوم المحبة في المسيحية، هذه المحبة ليست فعلًا يجري بين كائنين مُشخَّصين ومحدَّدين، بل هي المصدر الأصلي والبدئي للمحبة المزروع في صميم الكون والنفس الإنسانية، إنها لا تقوم على قرار وتمييزٍ عقلي ورجوع إلى مبادئ موضوعة، بل تفعل في داخل الإنسان إذا تُرك على سجيته وتلمس طبيعته الأصلية.

الكنز الثاني الذي يدعوه لاو تسو بنكران الذات، هو تحقيق ذات منفتحة تنطوي على الأنا وتتجاوزها، إن الذات المنفتحة هي هذه الحياة بالذات وهذه الأنا بالذات، ولكنها في الوقت نفسه حياة كونية وروح كونية، إن المعرفة الحقيقية بالأنا تقود إلى معرفة الذات، وعندما يتوصل التاوي إلى معرفة ذاته يعيش في اللاإنية التي توحده بالآخرين وبالعالم.

الكنز الثالث الذي يدعوه لاو تسو بالعزوف عن صدارة الآخرين، يتضمن فضيلة التواضع من جهة، وإدراك الحكيم أن موقع الصدارة والقيادة يتطلب حالة من الكمال لا يعتقد بقدرته على تحقيقها.

الفصل الثامن والستون

(١٦٦) لقد قلنا في موضع سابق إن مفهوم اللاجهد يعني أن تنجز عملك دون قسر وباستخدام أقل قَدْر ممكن من القوة، وذلك عن طريق السير مع التيار لا ضده، إنه أشبه بالملاحة الشراعية التي تستفيد من حركة الهواء واتجاهاته الطبيعية، وبالسباحة التي تستفيد من خصائص دفع الماء، وبالتدحرج على المنحدر، ولعل أقرب مثال على تطبيق فلسفة اللاجهد في النشاطات العملية هو رياضة الجيدو، فلاعب الجيدو يقوم بأقل قَدْر ممكن من الحركات المتبعة في انتظار وضعٍ يكون فيه الخصم في وضع يسهِّل الإخلال بتوازنه، وتقوم قواعد هذه الرياضة على مبدأ الإفادة من قوة الخصم نفسه وتوجيهها للإيقاع به.

وفي هذا الفصل يطبِّق لاو تسو مفهوم اللاجهد على فن القتال والعمليات العسكرية، ويقول لنا إن:

المقاتل الصنديد لا يُظهر عنفًا
والمجلِّي في المعارك ليس غضوبًا
والمنتصر على عدوه ليس منتقمًا.

لأن المقاتل التاوي لا يلجأ إلى ممارسة القوة العمياء، ولا يهدر طاقته في اللجوء إلى القسر والعنف، كما أنه لا يخسر هدوءه وسكينته وصفاء ذهنه في سَوْرة الغضب، داخله ساكن في الحرب سكونه في ممارسة أي فعل عادي آخر، يعتمد على مَلَكاته الطبيعية التلقائية، ويفيد من قوة الطرف الآخَر فيوجهها ضده.

الفصل التاسع والستون

(١٦٧) يتابع هذا الفصل ما بدأه الفصل السابق من تطبيق مبدأ اللاجهد على فنون القتال، وموضوعه هنا التكتيك العسكري، فالقائد المحنَّك في رأي لاو تسو يوفر قدراته القتالية ولا يهدرها في الصدام الأول، إنه ينتظر ويترقَّب هجوم الخصم من أجل الإيقاع به والإفادة من قوة هجومه في تشتيت شمله، ويستخدم لاو تسو مجاز الضيف والمضيف، فالضيف يلزم في العادة موقف المتحفظ في سلوكه وجلسته وكلامه، بينما يبادره المضيف بالكلام وطرق المواضيع المختلفة وإظهار حسن الضيافة.

(١٦٨) ولكن الموقف السلبي للقائد الذي يشبِّهه لاو تسو هنا بالضيف المتحفظ ليس سلبيًّا في جوهره، بل هو نوع من الهجوم والتقدم نحو الخصم دون حركة توحي بالتقدم والهجوم، وتشمير للأكمام أمام الخصم دون تشمير حقيقي للأكمام، والنتيجة المرتقبة هي الإيقاع به بأقل قدر ممكن من ممارسة القوة وهدر الطاقة.

(١٦٩) بعد هذه النصائح في فن التكتيك يعود لاو تسو إلى التذكير بمواقفه السابقة من الحرب، فالحرب شر لا بد منه أحيانًا، والمنتصر فيها هو الذي يدخلها بأسًى وحزن لا بفرح ورغبة في القتل والإذلال. وقد قال في الفصل ٣٠:

إذا كان لا بد من الحرب فعجِّل في إنهائها
عجِّل في إنهائها ولا تتفاخر
عجِّل في إنهائها ولا تتبجح.

وقال في الفصل ٣١:

عندما يُقتَل العديد من الناس نبكيهم بحزنٍ وأسًى
وعند الانتصار علينا أن نقيم طقوس الحداد.

الفصل السبعون

(١٧٠–١٧١) قال المعلم في الفصل ٥٢:

عندما تعرف الأم تتوصَّل إلى معرفة الابن
بعد أن تعرف الابن عُد إلى الأم.

ويقول هنا:

كلماتي تأتي من نبع الكلمات
والأفعال تصدر عن أصول ومرجعيات.

ونبع الكلمات الذي يقصده لاو تسو في هذه الفقرة هو التاو أم الحقائق، والكلمات هي الابن، من غير معرفة الأم لا تتوصل إلى معرفة الابن، كلمات الحكيم لا تصدر عن فكر شخصي مُغلَق و«أنا» منعزلة تحاول فرض آرائها الخاصة، بل عن فكر شمولي متصل بالحقائق الكبرى وبنبع المعاني، من هنا تأتي بساطة كلمات الحكيم، ولكن الناس لا يفهمون كلماته لأنهم عاكفون على أناهم عابدون لرغباتهم.

(١٧٢) ولكن الحكيم لا يسعى إلى مجد أو شهرة، ويحرص على كنوزه الثلاثة وهي الرحمة ونكران الذات وعدم الرغبة في صدارة الناس، ولذا فكلما قلَّت معرفة الناس به كلما زادت قيمته، والقيمة المقصودة هنا ليست بالمعيار التقليدي السائد في المجتمع التنافسي، بل بالمعيار الحقيقي، معيار الطريق الكوني.

(١٧٢-أ) كلما أدار الناس وجوههم عن سماع كلمة الحق من الحكيم، كلما اضطروه إلى التخفي والابتعاد عنهم، وعلى حد قول المعلم هنا: «الحكيم يلبس الثوب الخشن ويستر تحته حجرًا كريمًا.» وعلى حد قوله في الفصل ٢٢:

إذا بدوت باليًا تتجدد.

الفصل الحادي والسبعون

(١٧٣) يتحدث لاو تسو في هذا الفصل عمَّا يمكن تسميته بالمعرفة بلا معرفة، ففي مقابل تكديس المعارف التقليدية عند المثقف الكونفوشي في تعامله مع الوقائع النسبية، فإن التاوي يتجاوز هذه المعارف التي لا تنفع في التعامل مع الحقائق الكلية، ويواجه العالَم بعقل فارغ يتلقى المعارف دون أفكار مسبقة، هنا تكون المعرفة بدون موضوعات جزئية تنصبُّ عليها، فتتحول إلى معرفة عُليا بلا موضوع، عندما يصل التاوي إلى هذه المرحلة يفقد مفهوم المعرفة لديه دلالته العادية؛ لأن المعرفة تتطلب ما يعرف، أمَّا هنا فقد تلاشى العارف بالمعروف، وصار العارف والمعرفة وموضوع المعرفة شيئًا واحدًا، عندما يصل التاوي إلى هذا المقام من المعرفة فإنه يعرف دون أن يشعر بأنه يعرف، وذلك على عكس الكونفوشي الذي يكدِّس المعارف التقليدية ويظن أنه يعرف، ولكنه بعيد عن المعرفة الحقة.

الفصل الثاني والسبعون

(١٧٤) عندما يتبع الحاكم أسلوب تهديد الناس بأرزاقهم وأمنهم ومساكنهم، فإنه يدفعهم إلى النقيض حين تغدو الرعية غير هيابة من شيء، وهذه هي نقطة الانفجار التي تقود إلى الثورة، ودروس التاريخ مَلْأى بمثل هذه العِبَر.

(١٧٥) من هنا يشير لاو تسو على الحاكم بعدم اتباع أسلوب التخويف، والتخفيف من وطأة حكمه إلى الحد الأدنى الذي لا يشعر معه أحد بوجوده.

(١٧٦) الحاكم الذي يحقِّق هذه الحالة من ممارسة السلطة عن طريق اللافعل وعدم التدخل، هو الحكيم التاوي الذي يعرف نفسه ولكنه لا يظهرها، على حدِّ تعبير النص، ويصقل نفسه ولكنه لا يُعلي من شأنها.

الفصل الثالث والسبعون

(١٧٧) الشجاعة مع التهور هي شكل من أشكال ممارسة القسر، أما الشجاعة مع التأني فهي شكل من أشكال ممارسة اللاجهد، في الخيار بين هذين الطريقين واحد يكسب والثاني يخسر، وهذه النصيحة تنسجم مع ما قاله المعلم في الفصل ٦٩:

لا أجرؤ على لعب دور المضيف بل ألزم دور الضيف
لا أجرؤ على التقدم مسافة إنش بل أتراجع مسافة قدم
وهذا ما يُدعى بالتقدم نحو الأمام دون حركة نحو الأمام.

(١٧٩) مَن يتبع طريق السماء يتشبه به، طريق السماء يفعل دون غاية، وكذلك التاوي الذي لا يقصد من عمله إلى تحقيق مطلب آني على حساب الآخرين، ولا يدخل في تنافس معهم، إنه يقوم بما يتوجَّب عليه دون نظر إلى مردود أو عائد، ينغمس في عمله وعينه على ما بين يديه، لا على ما يقوم به الآخرون ليقارن نَفْسه بهم ويحاول التفوق عليهم، وهذا ما يأخذ بيده نحو النجاح دون طلبه، والحصول على ما يريد دون سؤاله، وتحقيق الربح دون نضالٍ من أجله.

(١٧٩-أ) كيفما تحركت وأنَّى اتجهت فأنت واقع تحت حيطة التاو، ولا مفرَّ لك من السير مع صيرورة الطبيعة لأنك جزء منها، ويُشبِّه لاو تسو هنا إحاطة التاو بكل الموجودات وتخلُّله فيها، بالشبكة التي لا تسمح لشيء بالمرور عبرها رغم اتساع ثقوبها.

الفصل الرابع والسبعون

(١٨٠) قال لاو تسو في الفصل ٧٢ في مخاطبة الحاكم المستبد: «عندما يفقد الناس الخوف من أي شيء، فبأي شيء تخيفهم؟» ثم يتابع هنا يقول:

عندما يفقد الناس خوفهم من الموت
لماذا تهددهم بالموت؟

إن التطرف في تطبيق قانون العقوبات الجنائية ليس أداة فعَّالة في مكافحة الجريمة وحكم الناس، كما يرى المعلم في هذه الفقرة، وكلما أرسلت مزيدًا من المذنبين إلى الجلَّاد ازداد خرق القانون وانتشرت الجريمة، ولدينا مثال من تاريخ الصين يُثبت صحة رأي لاو تسو، فعندما صعدت أسرة مينغ إلى الحكم عقب فترة انتقالية عمَّت فيها الفوضى وكانت الجريمة هي قانون الشارع في كل مدينة صينية، لم يجد أول أباطرة هذه الأسرة سوى اللجوء إلى كتاب لاو تسو يبحث فيه عن الحل، وقد ترك هذا الإمبراطور مقطعًا حيًّا كتَبَه بنفسه عن تجربته تلك يقول فيه:

> «عندما استلمتُ السلطة كانت الجريمة متفشيةً والفساد يعشعش في أجهزة الدولة جميعها، ورغم أن عشرة متهمين كانوا يُرسَلون إلى الموت في الصباح، فإن مائة آخَرين كانوا ينتهكون القانون في المساء، ألا يثبت هذا الوضع صحة ما ورد في كتاب التاو من أنه عندما يفقد الناس خوفهم من الموت، لماذا تهددهم بالموت؟ لذا فقد بدأت بإلغاء عقوبة الإعدام على الجرائم، وأخذت بإرسال المذنبين للعمل في المشاريع العامة. وفي أقل من سنة انتظمت الأحوال، وصارت نفسي في حالة هدوء وسلام.»[١]

[١] Chang Chung-yuan, Tao: A New Way of Thinking, p. 182.

(١٨٠-أ) في رفضه لعقوبة الإعدام يقول لنا لاو تسو في هذه الفقرة بأن الموت هو نصيب كل إنسان، فلماذا نأخذ على عاتقنا مسئولية ملاك الموت ونساعده على تأدية مهمته؟ إننا في هذه الحالة نكون كمَن يأخذ عن الحطاب مسئولية قطع الحطب، عندها لا نجني سوى إيذاء أيدينا.

الفصل الخامس والسبعون

(١٨٠) قال المعلم في الفصل ٤٩:

عقل الحكيم وفكره ليسا شأنًا خاصًّا
لأنه مهتم على الدوام بما عداه.

وهو يقول لنا هنا:

عندما لا يجعل المرء من حياته بؤرة تفكيره
يعرف كيف يصون حياة الآخرين.

والكلام هنا موجه إلى الحاكم الذي يتوجب عليه نكران ذاته بالدرجة الأولى ليكون أهلًا لحكم الناس، عندما يحكم الحاكم من خلال أناه الفردية، فإنه يتبع مصلحته الشخصية بالدرجة الأولى مفضِّلًا إياها على مصلحة الجماعة، وهذا ما يقوده إلى ممارسة القسر والتدخل في كلِّ صغيرة وكبيرة من شئون الناس، ويعيش في لهو وإفراط. الأمر الذي يقود أخيرًا إلى نقطة الانفجار، حيث يغدو الناس غير هيَّابين من السلطة وغير هيَّابين من الموت.

الفصل السادس والسبعون

(١٨٢) قال المعلم في الفصل٤٧:

أَلْيَن الأشياء في العالَم
يقوى على أقسى الأشياء في العالم.

وهو يتابع هنا تأملاته في طبيعة الأشياء من حوله، فيجد أن الجسد الحي ليِّن ورقيق، ومثله العشب الأخضر والشجر النامي، ويجد أن الجسد الميت صلب وقاسٍ، ومثله العشب الأصفر والشجر اليابس. من هنا فإن في اتباع اللِّين وقوف إلى جانب الحياة، لأن اللين والرقة من علائم الحياة، وفي ممارسة القوة والقسر وقوف إلى جانب الموت، لأن القسوة والصلابة من علائم الموت.

(١٨٣) مَن يلجأ إلى ممارسة القوة كأسلوب وحيد ينتهي به الأمر إلى السقوط مثلما يسقط الشجر اليابس تحت ضربات الفأس، مَن يلجأ إلى اللِّين والتواضع يكتسب القوة الحقيقة التي تهزم أقوى الأقوياء.

الفصل السابع والسبعون

(١٨٤) إن أية حركة في هذا الكون الواسع مهما صغرت، تؤثِّر على شبكة ترابطات تضم ما لا يُحصى من الأجزاء التي يشد بعضُها بعضًا، ويعتمد بعضها على بعض في تساوُق وتناغم كامل، بحيث يعكس الجزء الكل وحيث الكل يعكس الجزء، وعلى حدِّ التشبيه الذي ورد في أحد أسفار البوذية، فإن في سماء الإله «إندارا» شبكةً سعتها سعة السماء، في كل عقدة منها جوهرة متلألئة، وهذه الجواهر تتبادل الانعكاس بحيث إن كل جوهرة تعكس على سطحها صورة كل الجواهر الأخرى، وكل الجواهر تعكس بدورها صورة هذه الجوهرة المفردة، وبذلك يغيب الكل في الجزء والجزء في الكل.

يعبِّر لاو تسو عن هذا التناغم في حركة الكون، بآلية الوتر والقوس، فعندما تشد الوتر فإن القوس ينحي بحيث ينضغط الجزء الأعلى نحو الأسفل، ويرتفع الجزء الأسفل نحو الأعلى، وبذلك يتم مقابلة كل حركة بحركة أخرى معادلة لها، ويجري الحفاظ على التوازن الطبيعي، هذه هي الطريقة التي يعمل من خلالها التاو، أمَّا الطريقة التي يعمل من خلالها الناس فلا تؤدِّي إلا إلى الإخلال بالتوازن الطبيعي.

(١٨٥–١٨٦) إن رجل التاو الذي يدرك هذه الوحدة الضمنية بين الجزء والكل، يغدو عنصرًا في هذا التناغم الكوني ويتحرَّر من أناه الفردية، إنه مثل جوهرة في شبكة «إندارا»، يأخذ ويعطي، دون رغبة في الأخذ أو بحث عن غاية في العطاء، ولذا فإن فضله يبقى مستورًا.

الفصل الثامن والسبعون

(١٨٦–١٨٧) قال لاو تسو في الفصل ٧٠:

كلماتي سهلة الفهم والتطبيق
ومع ذلك لا أحد يفهمها أو يعمل بها.

وهو في هذه الفقرة يُعيد علينا بعضًا من كلماته الواضحة والسهلة الفهم، ويكرِّر قوله بأنه لا أحد يضعها موضع التطبيق:

لا يوجد في العالم أَرَقُّ وألْيَن من الماء
ومع ذلك فإنه الأقدَر على مواجهة القويِّ والصلب
كلنا يعرف أن الضعيف يتفوق على القوي
ولكننا لا نضع هذه المعرفة موضع التطبيق.

(١٨٩) أمَّا لماذا لا توضع هذه المعرفة موضع التطبيق فلأن:

الكلمات الصادقة تبدو متناقضة.

الكلمات الصادقة غالبًا ما تأتي بما لا تشتهي النفوس المشبعة بالرغبات الساعية إلى إرضاء الأنا الضيقة، ولهذا تبدو كلمات الحكيم بعيدة عن الواقع متعارضة معه، الواقع يُعلِّم الناس التنافس والتطاحن من أجل امتلاك الثروة والجاه، والحكيم يُعلِّم القناعة والرضا، الواقع يعلِّم أن القوة والقسر هما فيصل العلاقات بين الأفراد والجماعات والممالك، والحكيم يُعلِّم أن سلاح القوة لا ينفع … إلخ.

(١٨٩) أمَّا لماذا لا توضع هذه المعرفة موضع التطبيق، أو تسمو على أفهام أغلبية الناس فلأن: الكلمات الصادقة تُبدي تناقضًا، على حدِّ قول المعلم في هذه الفقرة، فعندما نقول مع لاو تسو في الفصل ٤٣ بأن: ألْيَن الأشياء في العالم يقوى على أقسى الأشياء في العالم، فإننا نعرض أمام السامع جملة تحتوي على تناقض ظاهري، لا يتفق مع خبرته العادية في الحياة، والتي تُعلِّمه بأن أقسى الأشياء يقوى على ألْيَن الأشياء.

الفصل التاسع والسبعون

(١٩٠-١٩١) عندما تتم المصالحة بين فريقين من الأفراد أو الدول، وتوضع الاتفاقات الناظمة لحل المشكلات العالقة بينهما، فإن شيئًا من الشك وعدم الثقة في نوايا كلٍّ منهما يبقى قائمًا، إزاء هذا الوضع يقوم رجل التاو بتنفيذ ما يترتَّب عليه من الالتزامات التي نصَّ عليها الاتفاق، وبشكل مباشر، دون التفات إلى ما يقوم به الطرف الآخَر، أو انتظار لمبادرة منه، وهو في ذلك منسجم مع مواقفه العامة التي تنطلق من أنه:

إذا لم تمنح ثقتك للناس أولًا
لن تستطيع الحصول على ثقتهم.

على حد قول المعلم في الفصل ١٧، وعلى حد قوله في الفصل ٤٩:

أثق بمَن هو أَهْل للثقة
كما أثق بمَن هو غير أَهْل لها
وبذلك أعمل على تعميم الثقة.

(١٩٢) يستوقفنا في هذه الفقرة قول يبدو متناقضًا مع نفسه، فكيف يكون طريق السماء حياديًّا، وفي الوقت نفسه يبقى إلى جانب الشخص الطيب؟ إن ما عناه لاو تسو بقوله هذا، لا يشير إلى أن التاو يقف إلى جانب هذا الشخص دون ذاك، بل إلى أن الشخص الطيب هو الذي يتماثل مع التاو ولا ينحرف عنه، ولذا فإنه يجده دومًا إلى جانبه.

الفصل الثمانون

(١٩٣) يرسم لنا لاو تسو في هذا الفصل صورة متطرِّفة في تعبيرها عن الحالة المثالية التي يئول إليها المجتمع الإنساني، عندما تختفي الرغبات ويقنع الأفراد بالحد الأدنى الضروري لحياة الإنسان، وهذه الحالة تشبه يوتوبيا خيالية، المملكة فيها ليست أكثر من قبيلة صغيرة منعزلة، أهلها قانعون بما يستطيعون إنتاجه من غذاء وملبس ومسكن، راضون بطقوسهم وعاداتهم الموروثة، لا يتطلعون إلى ما وراء حدود أراضيهم، ولا يرغبون في التعدي على أحد، ورغم أن الجماعات الأخرى قريبة منهم ويستطيعون من أماكنهم سماع صياح ديكتها ونباح كلابها، إلا أنهم لا يحاولون التعرُّف على جيرانهم أو الاتصال بهم، إنهم سعداء بما لديهم وبما يعرفونه، غير راغبين في السفر والترحال، لأنهم يعيشون حالة من التناغم التام مع أنفسهم وبيئتهم.

هل كان لاو تسو يرى ببصيرته الثاقبة، قبل ألفين وخمسمائة سنة، ما آل إليه الناس في عصر المعلوماتية والاتصالات الراهن؟ هل أحسَّ بما يحسه الإنسان الحديث من عزلة وتعاسة رغم كل ما قدَّمه له عصر العلم والتكنولوجيا من معارف أوصلته إلى الفضاء الخارجي، وجنَّبته الأمراض القاتلة ومدَّت في عمره وزودته بأضعاف حاجاته الطبيعية؟

يقول تشوانغ تزو:

«في تلك الأيام القديمة، عاش الناس وفق غرائزهم الطبيعية، كانوا يتحرَّكون بهدوء ويرون بنظر ثاقب، في تلك الأيام لم يكُن هنالك طرق تعبر الجبال ولا جسور ممدودة فوق الأنهار ولا قوارب تنقل بين ضفافها، في تلك الأيام عاش الناس مع الطيور والوحوش، وكانت الخليقة كلها مجتمعًا واحدًا، في تلك الأيام لم يكُن هنالك تمايز بعد بين الصالح والطالح، لقد كانوا على قدم المساواة جميعًا

وبلا معرفة، ولذا فإن فضيلتهم لم تذهب هباءً، لقد كانوا على قدم المساواة جميعًا وبدون رغبات، ولذا فقد كانوا في حالة تكامل طبيعي: حالة الوجود الإنساني الكامل.»[١]

[١] Chuang Tzu, Works, sh. I, cited in: Chang Chung-yuan, Op. Cit., p. 194.

الفصل الحادي والثمانون

(١٩٤) تصف هذه الفقرة التاو تي تشينغ في ختامه، فالكتاب ينبع عن مصدر الجمال رغم ما يبدو من شذوذ أقواله، وعن مصدر الحقيقة رغم ما يبدو من غرابة كلماته، لقد قال المعلم عَبْر فصول الكتاب كلمة الصدق التي تبدو غير جميلة في أسماع الغالبية، لأنها تأتي بعكس ما تشتهي النفوس العاكفة على رغباتها وأهوائها، مثل هذه النفوس تفضل الكلمات المنمقة والمداورة على الكلمات الصادقة والمباشرة، لأنها تأتي بما تحب وتشتهي، ولأنها تؤكد لها صورتها الزائفة عن أناها.

(١٩٤) ولعلَّ أهم ما يقوله لك الكتاب: اعرف نفسك، ومعرفة النفس لا تتم بالدراسة والتحصيل الدراسة تفيدك في معرفة ما سوى نفسك.

(١٩٥) لم يُخفِ المعلم لاو تسو في كتابه عنك شيئًا، لقد قال لك كل شيء وتخلَّى عن كلِّ شيءٍ، ومع ذلك فقد بقي لديه الكثير، لأن الحكيم مثل التاو فارغ ولكنه لا ينضب.

(١٩٦) لقد كشف لك لاو تسو عن حكمته وأكمل قوله، دون أن يبغي من وراء ذلك فضلًا أو عرفانًا لأن:

العمل يُنجَز ثم يُنسى،
ولذا فإن أثره لا يفنى.

المراجع

• مراجع نص كتاب التاو:

(1) Chung-yuan, Chung., Tao: A New way of thinking, Perenial Library—Harper and Row, New York 1975.

(2) Feng, Gia-Fu., Tao Te Ching, Alfred Knopf, New York 1972.

(3) Kia – Hway, Liou., Tao To King, Gallimard, Paris 1967.

(4) Lau, D. C., Tao Te Ching, Penguin Book, London 1978.

• مراجع في التاوية والزن:

(5) Chung-yuan, Chang., Creativity and Taoism, Wild Wood House, London 1975.

(6) Sohl. R, The Gospel According to Zen, Mentor Books, Chigaco, London 1975.

(7) Watts, Allan., Tao: The Wattercourse Way, Penguin Books, London 1975.

(8) Watts, Allan., The Way of zen, Penguin Books, London 1962.

- **مراجع في الفكر الصيني:**

(9) Chuang Tzu, Works, trans. Jarnes Legge, Ace Books, New York 1971.

(10) Needham, Joseph., Science and Civilization in China, Cambridge 1974.

(11) Parrindar, G, World Religions, New York 1984.

(12) Tai, Ou, L., Chineez Mythology. In: Larrousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London 1977.

(13) Tompson, L. Tien I, Incyclopedia of Religion, Mac Millan, London 1987, vol.12.

(14) Wilhelm, Richar., The I. Ching, or Bookof changes, Princeton University Press, 1977.

- **مراجع عامة:**

(15) Davies, Poul., The Mind of God, Penguin Books, London 1922.

(16) Kirk, G.S., Hiraclitus, Cambridge University Press, London 1970.

(17) Wilber, Ken., The Specteum of Consiousness, Quest Book, Weaton, Illinois 1989.

(١٨) هوبرتريفز: الكون – البحث عن لحظة الميلاد، ترجمة درويش الحلوجي، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٩٦م.

(١٩) بول ديفس: المكان والزمان، ترجمة أدهم السمان، مؤسسة الرسالة، دمشق ١٩٨٨م.

(٢٠) عبد الكريم الجيلي: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٠م.


هنداوي